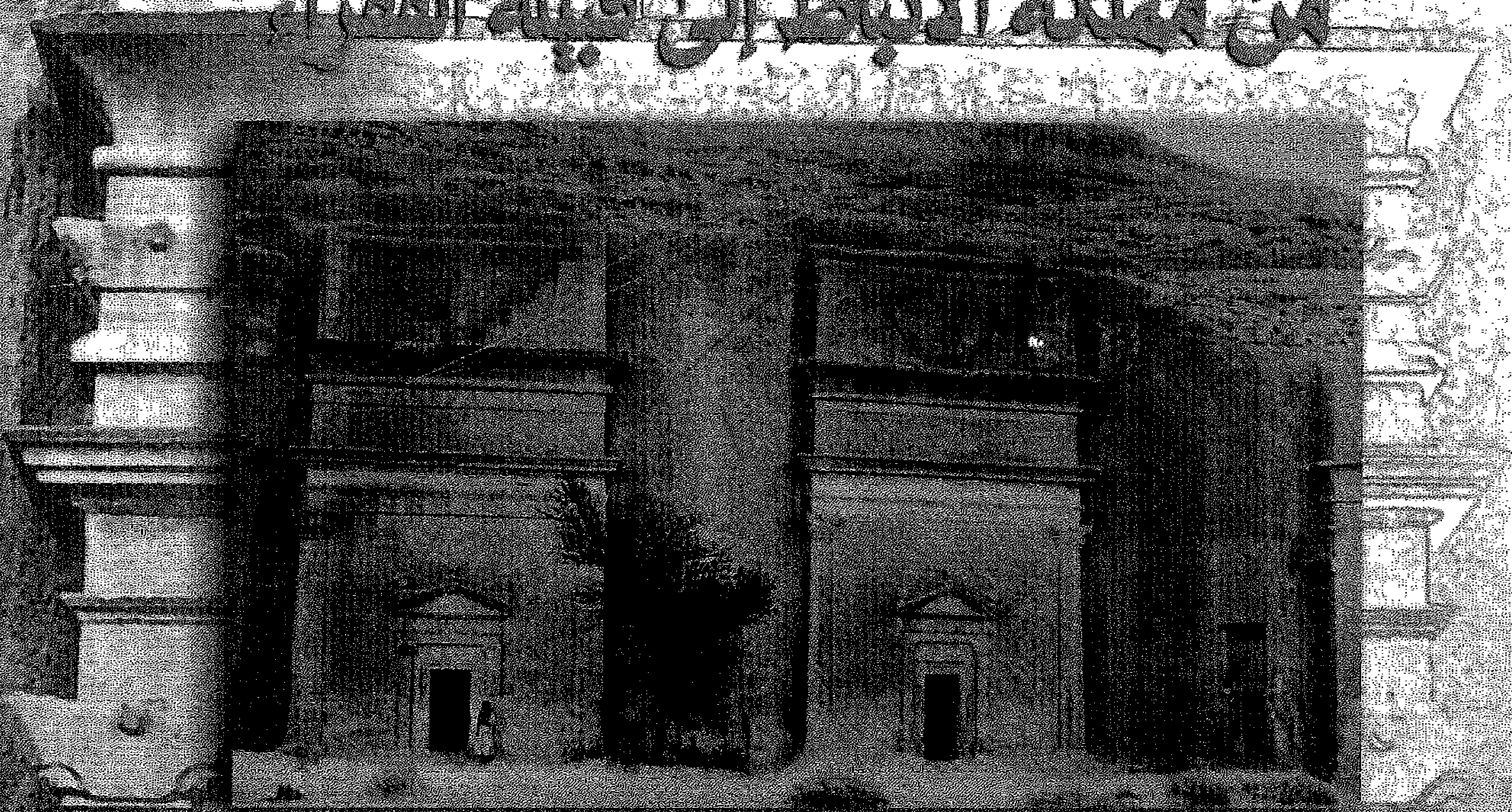
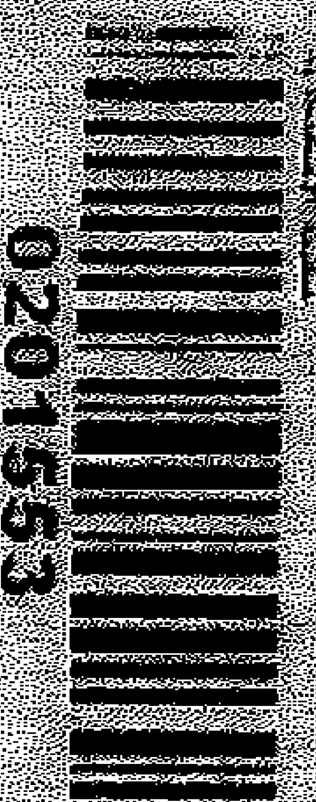
مدائن صالح

من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء



د. إبراهيم السايح

دار البستاني للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠



مدائن صالح

من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء

د. ابراهيم السايح



اسم الكتاب: مدائن صالح - من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء

تأليف: د. ابراهيم السايح

الناشر: © **دار البستانى للنشر والتوزيع**

٤ على توفيق شوشة ١١٣٧١ - مدينة نصر - القاهرة

٢٩ شارع الفجالة - ١١٢٧١ - القاهرة - مصر

هاتف: ٢٦٢٣٠٨٥ - ٥٩٠٨٠٢٥ - ٥٩١٥٣١٥

فاكس: ٢٦٢٣٠٨٥ - ٥٩٠٨٠٢٥

E-mail: bph @ ritsec3.com.eg

Web-site: www.boustanys.com

المطبعة: دار الياس العصرية

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٥٩٤٤

الترقيم الدولى: 977-5383-24-2

تمهيد

يمثل شمال شبه الجزيرة العربية أو جنوب بادية الشام واحداً من أهـم المواقـع الجغرافية والتاريخية في الحضارة العربية القديمة. فبينما تقتصر المناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية على تركيب سكاني وعنصري شبه ثابت طوال مراحل تاريخـها، فـإن منطقة الشمال هذه كانت تمثل إحدى أهم مناطق الجذب بالنسبة لعرب شبه الجزيرة بصفة عامة وعرب الجنوب على وجه الخصوص.[1] فقد خرجت هجرات ضخمة ومتعددة مـن داخل الجزيرة العربية وتوجهت إلى الشمال وإلى مناطق الـهلال الخصيـب ومـا بيـن النهرين. وتفاعلت هذه الهجرات مع أهل هذه المناطق وامتزجت بهم مما أدى إلى ظـهور حضارات جديدة استمرت لفترات طويلة منها حضارات بابل وآشور في بلاد مـا بيـن النهرين والحضارة الفينيقية في بلاد الشام.[2]

وترجع البدايات الأولى للهجرات العربية من شبه الجزيرة العربية إلى الشـمال للألف الرابعة قبل الميلاد. وتختص الموجات الأولى مـن هـذه الـهجرات بجماعـات الكنعانيين الذين استقروا في سورية وفلسطين.[3] وفي الألف الثالثة ق.م.، كـانت الـهجرة الثانية من شبه الجزيرة العربية. وفي هذه الموجة الثانية من الهجرات خرج العموريـون من داخل شبه الجزيرة إلى بلاد بابل وبلاد ما بين النهرين في الشـرق وإلـى سـورية وفلسطين في الغرب. كما خرج أيضاً في بداية الموجة الثانية من هذه الهجرات الأكاديون الذين استقروا في بلاد ما بين النهرين.

---

١ جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٦٩/١

٢ جواد علي: ٢ / ٣٠٣ ، فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: ١ / ٢٩ – ٨٥

٣ حتى: ١ / ٦٦ – ٦٧ ، نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم: ٣ / ١٨٣

واستمرت الهجرات على هذا النحو حتى الألف الأولى قبل الميلاد حيث كان خروج الجماعات العبرانية والآرامية الذين أصبحوا يمثلون العنصر الغالب على بلاد الشام منذ ذلك الحين وحتى ظهور الإسلام.[1]

هكذا كانت الهجرات الكبرى من داخل شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب خلال الأربعة آلاف عام قبل الميلاد تمثل ميلاد الحضارات القديمة التي شهدتها هذه المنطقة وهذه الهجرات لا تمثل هجرات عربية خالصة ولكنها هجرات لمجموعات بشرية ذات ثقافة وأصول سامية، ويجمع بين هذه المجموعات أنها كانت جميعاً من سكان شبه الجزيرة. أما وصف أو اسم العرب فإنه لم يكن معروفاً حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد.[2]

وتعد أهم الهجرات المعروفة في الألف الأول قبل الميلاد هي هجرة القبائل النبطية إلى شمال شبه الجزيرة العربية في القرن السابع قبل الميلاد، وكذلك هجرة قبائل معد بن عدنان في القرن الأول الميلادي إلى بلاد الهلال الخصيب، ثم هجرة القبائل اليمنية بعد انهيار سد مأرب في القرن الثالث الميلادي وازدياد الجفاف في بلاد اليمن.[3]

من هنا كانت العلاقات والصلات بين بلاد العرب وشمال شبه الجزيرة وبادية الشام علاقات قديمة جداً ومتصلة لم تنقطع في أية فترة من فترات التاريخ. حيث أن هجرات القبائل العربية إلى الشمال لم تتم في وقت واحد وإنما كان ذلك على مراحل زمنية متعددة استغرقت - كما رأينا - عدة قرون، واستمرت هذه الهجرات إلى ما قبل ظهور الإسلام.[4]

ويتمثل تاريخ شمال شبه الجزيرة العربية وبادية الشام قبل الإسلام في تاريخ الجماعات السياسية التي ظهرت الواحدة تلو الأخرى في هذه المنطقة التي تمتد من ساحل

---

١ حتى: ١ / ٦٦ - ٦٧ ، نجيب ميخائيل: ٣ / ١٨٣، جواد علي: ٢ / ٣١٩

٢ نجيب ميخائيل: ٣ / ١٨٠ ، محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام - القاهرة - ١٩٩٨ : ص ٢٨

٣ جواد علي: ٣ / ٦-١١ ، محمد عزب دسوقي: المرجع السابق - ٢٩

٤ محمد عزب دسوقي: المرجع السابق - ٢٩

البحر الأحمر إلى أطراف فلسطين وسوريا وبلاد الرافدين.[1] وهذه الجماعات السياسية لم تتمكن من إقامة دول كبرى، ولكنها أقامت دويلات صغيرة قصيرة العمر، حيث كانت هذه الدويلات لا تمثل سوى نتاجاً للاتصال بين منطقتي البدواة والحضارة، أي أنها لم تكن مناطق ذات طابع حضاري أو سياسي مستقل بقدر ما كانت ملتقى لموجات الهجرة القادمة من الصحراء وحاجزاً بين البدو والحضر.[2]

وقد كان للعوامل الاقتصادية دور هام في صنع تاريخ العرب في عصورهم القديمة. وقد لعبت الطرق التجارية القديمة الدور الرئيسي في هذا المجال. فمن خلال الطريقين الأساسيين اللذين كانا يحدان شبه الجزيرة العربية على حافة الصحراء وتنتقل بهما السلع من المحيط الهندي إلى موانى سورية وفلسطين قامت دويلات الحدود العربية، وكان مصير هذه الدويلات ووجودها يتوقف على الموقف السياسي والاقتصادي في الشرق الأدنى.[3]

ولم يكن للبدو في شبه الجزيرة العربية دور في التاريخ القديم إلا في الفترات التي كانوا يظهرون خلالها في هذه الدويلات الحدودية. وتعد هذه الدويلات سبباً رئيسياً في نقل الشعب العربي من غياهب الصحراء العربية القاحلة إلى وثائق وسجلات التاريخ المكتوب.[4] ذلك أن شبه الجزيرة العربية هي منطقة صحراوية تحيط بها المياه من جهاتها الثلاث والرمال من الجزء الرابع.[5] وقد فرض عليها هذا الوضع نوعاً من العزلة الجغرافية. كما أن شدة الحرارة والجفاف قد جعل منها بنية طاردة. ولهذا السبب لم يعرف تاريخ هذه المنطقة أية غزوات خارجية ناجحة. ولهذا السبب أيضاً ظل سكان الجزيرة العربية على حالهم طوال عصور التاريخ.[6] وتحولت هذه المنطقة منذ بداية تاريخها إلى

---

[1] جواد علي: ٦/٣

[2] محمد عزب دسوقي: المرجع السابق – ٣٠

[3] نفس المرجع

[4] محمد عزب دسوقي: المرجع السابق – ٣٠

[5] حتى: ٨/١

[6] حتى: ٩/١

إرغام سكانها على الخروج منها كلما تضخم عددهم وتجاوزت احتياجاتهم الطاقة الإنتاجية المحدودة لهذه البيئة. وأصبحت الهجرة هي البديل الوحيد للاقتتال الدموي حول إمكانيات هذه المنطقة بين سكانها.[1] وفي ظل هذه الأوضاع كانت الهجرات الكبرى التي أشرنا إليها. وخلال هذه الهجرات استمرت جماعات من السكان في داخل شبه الجزيرة واستقرت جماعات أخرى في مناطق الشمال أو سورية وفلسطين وبلاد الرافدين. وكان لجماعات المهاجرين الحظ الأوفر حيث استطاعوا تكوين الدويلات والتمتع بشيء من الرقي والرفاهية فضلاً عن إمكانية الاختلاط بأقوام وأجناس وبيئات وأفكار أخرى. وهو الأمر الذي حرم منه سائر العرب الآخرون.

ويمثل الأنباط أولى الدويلات المتحدة التي تمكنت من الظهور نتيجة الهجرة الموسمية من الصحراء العربية نحو المناطق الزراعية في الشمال. وهذه الدولة يرجع تاريخها إلى منتصف الألف الأولى ق.م. [2] وقد نجح الأنباط في إقامة دولتهم على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين ثم خضعت لهم بعد ذلك كل المناطق الواقعة شرق وجنوب فلسطين حتى مدينة "الحجر" التي تعرف الآن باسم "مدائن صالح". وتقع مدينة الحجر هذه بوادي القرى بين المدينة والشام، وكانت بها أيضاً منازل ثمود. وهذه المدينة تمثل الحدود الجنوبية لمملكة الأنباط القديمة.[3]

وتمثل منطقة "**الحجر**" أو "**مدائن صالح**" الحالية، مجالاً خصباً للدراسات التاريخية والحضارية المتعلقة بعرب شبه الجزيرة وهجراتهم ودويلاتهم القديمة والتطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها تاريخهم على مر عصوره. وترجع أهمية هذه المنطقة إلى أنها تجمع بين خصائص المجتمع البدوي والمجتمع الحضري معاً. فضلاً عن قربها من المناطق المقدسة في شبه الجزيرة العربية ونقصد بهما مكة المكرمة والمدينة المنورة بعد ظهور الإسلام، ومكة ويثرب في العصور الجاهلية. هذا إلى جانب تميز هذه المنطقة بوقوعها في طريق الحج من الشام إلى الحجاز من ناحية وتميزها بالوقوع تحت تأثير

---

[1] حتى: ١٣/١

[2] جواد علي: ١٣/٣

[3] ياقوت: معجم البلدان – ٢٢١/٢

العديد من الهجرات والدويلات التي أقيمت شمال شبه الجزيرة من ناحية أخرى. والدراسة التي أجرتها البعثة الأثرية الفرنسية [1] في هذه المنطقة تعد مؤشراً متميزاً للخصائص الحضارية والاجتماعية هناك. فمن خلال هذه الدراسة أصبح من المتاح لأي باحث أن يتعرف بشكل دقيق على ملامح التاريخ القديم والحديث لهذا الجزء من شمال شبه الجزيرة، فضلاً عن إمكانية دراسة التطور الاجتماعي والسياسي للسكان بين تاريخهم القديم والحديث.

وفي هذا السياق نقدم في هذا الكتاب دراسة للنقوش النبطية المنشورة في تقرير البعثة الفرنسية عن منطقة "مدائن صالح" – "الحجر" قديماً – . وهذه النقوش التي تتراوح بين شواهد القبور والنصب التذكارية والدينية، تؤكد مرور هذه المنطقة بعديد من العصور التاريخية ذات البنية السكانية والعنصرية المختلفة. وغلبة النقوش الآرامية على ما سواها من النقوش الأخرى يؤكد أن السيادة السياسية في هذه المنطقة كانت للأنباط دون غيرهم. بينما يؤكد وجود النقوش العربية والثمودية واليونانية أن هناك تأثيرات سياسية أخرى امتدت لهذه المنطقة.

وعلى الرغم من أن عادة الترحال وعدم الاستقرار في مكان واحد هي إحدى العادات التي كانت تلازم القبائل العربية في عصورها القديمة، فإن بوسعنا أن نقرر أن ثباتاً نسبياً للتركيب السكاني في منطقة "الحجر" كان قائماً إبان السيادة النبطية على هذه المنطقة وبشيء من التحديد في القرون الثلاثة الأولى ق.م. والقرن الأول الميلادي على الأقل. وهو الأمر الذي تؤكده النقوش النبطية الكثيرة التي نشرها الفرنسيون من منطقة المقابر الأثرية في "مدائن صالح". وقد قمت باستخدام هذه النقوش في التعرف على بعض ملامح الحياة في مملكة الأنباط في فترات ازدهارها وفترات بداية أفولها وتحولها إلى التبعية للرومان. ورأيت في هذا الصدد أن نبدأ بتقديم نماذج من النقوش المنشورة في تقرير البعثة الفرنسية مع ترجمتها للغة العربية، ثم نأتي بعد ذلك للجزء الثاني من الدراسة ويتضمن تحليلاً سياسياً واجتماعياً لمحتوى هذه النقوش وأهم الدلالات التي يمكن

---

[1] RR. PP. Jaussen et Savignac, Mission Archeologique en Arabie. Paris. Reedition, Le Caire, 1997. Institut Francais d'Archeologie Orientale.

استنتاجها منها. وفي النهاية نقدم تعليقاً على دراسة اثنولوجية قيمة قامت بها البعثة عـــن قبيلة "الفقراء" التي تسكن منطقة "مدائن صالح" في العصر الحديث.[1] وهذه الدراسة تكمـــن قيمتها التاريخية والاجتماعية في إمكانية تحديـــد وتحليـــل عنـــاصر التطـــور السياســـي والاجتماعي لسكان هذه المنطقة بين تاريخهم القديم والحديث وذلك اعتماداً على مقارنـــة المعطيات التاريخية والوثائقية الخاصة بشمال شبه الجزيرة العربية في عصور مـــا قبـــل الإسلام بنتائج وتفاصيل الدراسة الميدانية التي أجراها الفرنسيون لقبيلة الفقراء في بدايـــة القرن العشرين الميلادي.

وفيما يتعلق بمنهج هذه الدراسة فإنني قد رأيت أن اعتمد بصورة رئيسية علـــى الوثائق المتاحة والتي تتمثل في النقوش المنشورة في التقرير الفرنســـي بالإضافـــة إلـــى الدراسة الميدانية التي أوردت البعثة نتائجها وتفاصيلها في جزء مســـتقل مـــن التقريـــر. وأرجو أن يكون لهذا المنهج فائدة تتمثل في وجود مادة وثائقية باللغة العربيـــة تتضمـــن معلومات تفصيلية عن إحدى المناطق الهامة في تاريخ العرب القديم والحديث.

[1] ترجع الدراسة الميدانية التي قام بها الفرنسيون لهذه المنطقة إلى نهاية العقد الأول من القرن العشرين.

الجزء الأول

نماذج من النقوش الأثرية في "مدائن صالح"

نماذج من النقوش الأثرية في "مدائن صالح"

(١) نقش عربي يخص قلعة تبوك – اللون أحمر – المكان على بوابة القلعة – المحتوى:

- السطر الأول يشير إلى أن النقش يتناول تجديد وتعمير القلعة وليس إنشاءها.
- السطر الثاني يشير إلى صاحب الفضل والأمر في هذا التجديد والتغير وهو السلطان ابن السلطان السلطان محمد خان.
- السطر الثالث يشير إلى أنه ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان أحمد خان أي يستكمل نسب السلطان الذي جدد القلعة.
- السطر الرابع يتضمن المديح للسلطان والدعاء له بخلود الملك طوال الزمان.
- السطر الخامس يشير إلى القائم بخدمة القلعة ووصفه بالعبد الفقير إلى الله تعالى
- السطر السادس يشير إلى اسم المشرف على القلعة ونسبه إلى دمشق.
- السطر السابع يشير إلى تاريخ هجري ١٠٦٤ يوازي الميلادى ١٦٥٤ وهي السنة الخامسة من حكم السلطان محمد الذي حكم الإمبراطورية من ١٦٤٩ إلى ١٦٨٧ وكان الابن الأكبر لإبراهيم، وهو ابن أحمد والذي توفي ١٦١٧، وشقيق عثمان الذي حكم من ١٦١٨ إلى ١٦٢٢.
- وفقا لهذا النقش تكون هذه القلعة – قلعة تبوك – قد تم تجديدها فقط في القرن السابع عشر، أما بناؤها فلابد أن يكون قبل هذا التاريخ.

1. امر بتجديد وتعمير هذة القلعة المباركة
2. حضرة مولانا السلطان ابن السلطان
3. السلطان محمد خان ابن السلطان ابرهيم
4. خان ابن السلطان احـ...
5. ثمان خلد الله ملكه .. طول الزمان
6. وتشرف بمباشرة خدمتها العبد الفقير
7. الى الله تعالى محمد ابن النا... جى بدمشق
8. الشام غفر الله له فى سنة اربع وستين والف

(٢) نقش عربي على أحد الأحجار الموجودة في غرفة من غرفة قلعة تبوك. يتميز هذا النقش بالوضوح وجودة الخط والكتابة. ويتكون من ثلاثة سطور.

- السطر الأول يشير إلى أن المكان يمثل وقفاً.
- السطر الثاني يشير إلى أن هذا منزل مخصص للفقراء وأنه قد تم إنشاؤه في عام ١٠٦٤.
- السطر الثالث يشير إلى أن هذا المنزل موقوف لخدمة أبناء السبيل أو المارة الفقراء من هذا المكان.
- يرجع تاريخ هذا النقش إلى نفس تاريخ القلعة المذكور في النقش السابق، وهو ما يؤكد بناؤها من أجل خدمة واستضافة الغرباء والفقراء من الحجاج الذين يمرون من هذا الطريق أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم منها. وربما كانت هذه الاستضافة تتم خارج أو داخل القلعة، أو ربما كانت القلعة نفسها مخصصة لهذا الغرض.

وقف
هذا بيت الفقرا عمر فى سنه ١٠٦٤
لابناء السبيل

(٣) نقش عربي على أحد الأحواض الرئيسية التي تنتمي إلى تبوك، النقش مكتوب بعناية على جدران الحوض.

- السطر الأول يتضمن البسملة.
- السطر الثاني يشير إلى صفات السلطان وأنه ملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين.
- السطر الثالث يشير إلى اسم السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني.
- السطران الرابع والخامس يشيران إلى قيام السلطان بالأمر بتجديد وتعمير هذا الحوض.
- السطر السادس يشير إلى التاريخ وهو ١٣١٩ هجري الموافق ١٩٠١ ميلادي
- ويؤكد هذا النقش الهيمنة التركية على هذه المنطقة في هذه الفترة من التاريخ. ويؤكد أيضاً خضوع منطقة شبه الجزيرة للسلطة الاسمية للأتراك حيث يصف السلطان نفسه في هذا النقش بأنه خادم الحرمين.

1. بسم الله الرحمان الرحيم
2. ملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين
3. السلطان الغازى عبد الحميد خان ثانى
4. افندمز حضرتلرينك عهد همايون عمران
5. مشحو نلرنده اشبو بركوكر مجددا تعمير
6. ايد امشدر سنة ١٣١٩ ه

(٤) نقش عربي موجود على باب قلعة الأخضر، والنقش موضوع في داخل خرطوش مقياسه ١٫١٥ × ٠٫٥٣ م. والسطر الأخير من هذا النقش مكتوب خارج الخرطوش.

- السطر الأول يتضمن اسم صاحب الأمر في بناء القلعة وهو السلطان سليمان خان ابن سليم خان بن عثمان.
- السطر الثاني يتضمن الدعاء للسلطان بالعزة والنصر، ثم ذكر أمير الأمراء مصطفى باشا مملكة الشام والدعاء له بأن يعظم الله شأنه.
- السطر الثالث يشير إلى إشراف الأمير طرباي بن أقراجا أمير عرب حارته على هذا البناء، والدعاء له أيضاً.
- السطر الرابع يذكر أيضاً من قاموا بالإشراف والكتابة على بن أحمد ومحمد بن علي ويذكر كذلك رئيس طائفة القائمين بالبناء وهو المعلم أحمد ابن المكاكي.
- السطر الخامس يذكر تاريخ بدء البناء وهو العشرون من شوال سنة ٩٣٨ هـ ونهاية البناء في شهر ذي الحجة من نفس العام.
- الألقاب الواردة في هذا النقش مثل "مالك الملك" و "المظفر" ترجع إلى فترات حكم المماليك حيث أطلق لقب المظفر على الظاهر بيبرس سنة ٧٠٨ هـ حين تولى السلطنة.
- الاسم المذكور للمشرف على البناء يقترب من كلمة "الحارث" أو من "عرب حارتة" أو بنو الحارث الذين لعبوا دوراً هاماً في التاريخ العربي.

1. امر بعمارة هذا البرج المبارك مولانا السلطان المالك الملك المظفر سليمان خان ابن سليم خان بن عثمان
2. اعز الله نصره وصار ذلك بنظر امير الامراء الكريم مولانا مصطفى ابلاق باشا(ة) المملكة الشامية عظم الله شانه
3. وكان الواقف على عمارة ذلك الامير طرباى بن اقراجا امير عرب حارتة دام عزه والامير على العمارة المذكور العلانى
4. على ابن احمد بن طالو والكاتب بها محمد بن على عفا الله عنهما وكان رائس المعمارية بها المعلم احمد ابن المكاكى
5. وكان ابتدا العمارة فى عشرين من شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وتسعماية وانتهايها فى شهر الحجة الحرام سنة تاريخه

(٥) نقش عربي صغير موجود إلى جانب النقش المشار اليه، يتكون من أربعة سطور، والحروف منقوشة على الحجر المتضمن في بناء هذه القلعة.

- السطر الأول يتناول خبر حضور أحد الأشخاص إلى القلعة.
- السطر الثاني يقول أن هذا الزائر هو المنصور حسن صوباشي وفي صحبته مائة من الحراس والجنود.
- السطر الثالث يشير إلى تاريخ هذه الزيارة وأنها كانت في عام ٩٣٨ هـ.
- السطر الرابع يترحم على الزائر (يطلب له الرحمة من الله).
- تاريخ هذا النقش يتضمن نفس السنة المذكورة في النقش السابق على أنها سنة بناء هذه القلعة.
- يشير النقش إلى أن بناء القلعة كان يتم تحت حماية الجنود المسلحين الذين حضروا مع حسن صوباشي.
- يؤكد ذلك الوضع أن العرب كانوا دائماً على عداء مع جيرانهم في الشمال وهم سكان سورية وآسيا الصغرى.

1. حضر فى هذه القلعة المنصور
2. مصطفى صوباشى ومعه مية بكچرى
3. سنة ثمان وثلاثين وتسع ماية و بوتاريخ
4. أوقرينه أيدينه الله رحمت ايلية

(٦) نقش تركي محفور على واجهة حصن أو قلعة المعظم. وهو نقش كان من الصعب تصويره، وأمكن للبعثة العثور على نسخة منه. وأمكن أيضاً ترجمة هذه النسخة عن طريق أحد أصدقائهم في بيت المقدس. إلا أن هذا الأمر لم يمكنهم من مطابقة النسخة التي توصلوا إليها مع النقش الأصلي أو التيقن من صحة الترجمة.

يقول هذا النقش أن الرجاء في الله أن يتمم ويحقق رغبات سليمان أغا، والي دمشق، إركو سليمان الذي كان قد فكر في وضع أساس هذا البناء، و ساعده السلطان في ذلك، وكان هذا الوضع ضروريا بالنسبة له، وعسى الله أن يتغمده برحمته، والفاتحة على روحه. ويقول النقش أيضا أنه بحق الكعبة ومن منطلق الرحمة والكرم، كان السلطان عثمان، سلطان سلاطين العالم، وبهدف تجميل طريق الحج، قد قام بوضع قلعة المعظم هذه، وأقام

هذا الصرح الكبير لمملكة عثمان لعل الله يحمي ويصون هذه المملكة. وقد تم إنشاء هـذه القلعة سنة ١٠٣١ تحت إشراف السيد حسين أغا الرئيس أو الوالي وفي حضور ووجـود قوة عسكرية من الجنود. وعسى الله أن يحقق لهم ما يتطلعون إليه ويهدفون له في الداخل والخارج. وعسى الله أن يحفظ عثمان أغا، وهو الذي كلف كاتب هذه السطور يوسف الوالي، العبد التابع له، والخاضع لأوامره والذي يشرفه بأفضاله. ولعل الحجاج المؤمنـون الذين يمرون من هذا الطريق أن يقوموا بالدعاء له في الأرض والسماء. وقد تـم ذلـك بواسطة السيد علي بن يحيى من دمشق.

خذا اعنى يا بانا اولايو بيان — سليمان اغا ايدكور مراده
دخى شام حافظى ويركو سليمان — كه انكث دبى دير خير ايشه مايه
عنايت ايلسون انلاره سلطان — كركدر او ستلرينه صاله سايه
غريقى رحمت ايده انى يزدان — اوقيوب فاتحه دوره دعايه

(تاريخ باب القلعة)

بحق كعبه وحنان ومنان — شهنشا هى جهانه سلطان عثمان
نزبيا قلعة يا يدى راه حجده — معظم بركه سى مانند عثمان
الهى سلطنلره پرقرارايت — حبيبك حرمتى هم جار ياران
ولى فكر ايكر ايكى تاريخى — ديدى هاتف كمالى خير احسان

١٠٣١
سنة

مبارك قلعة در يا يلدى — حضر حسين اغادر اوستيه ناظر
بياله بريلوك سر معتماور — مرادينه ايره ياطه وطاهر
محافظ عثمان اغا شيخ رشيدى — الهى غل عكسرن ايله طاهر
كه كاتب يوسف ولى وقولكدر — اومارلر رحمتك امركه حاضر
بيره دروب دعا ايدن عزيزلر — كوجيه ايمان ايله دنيادن اخر

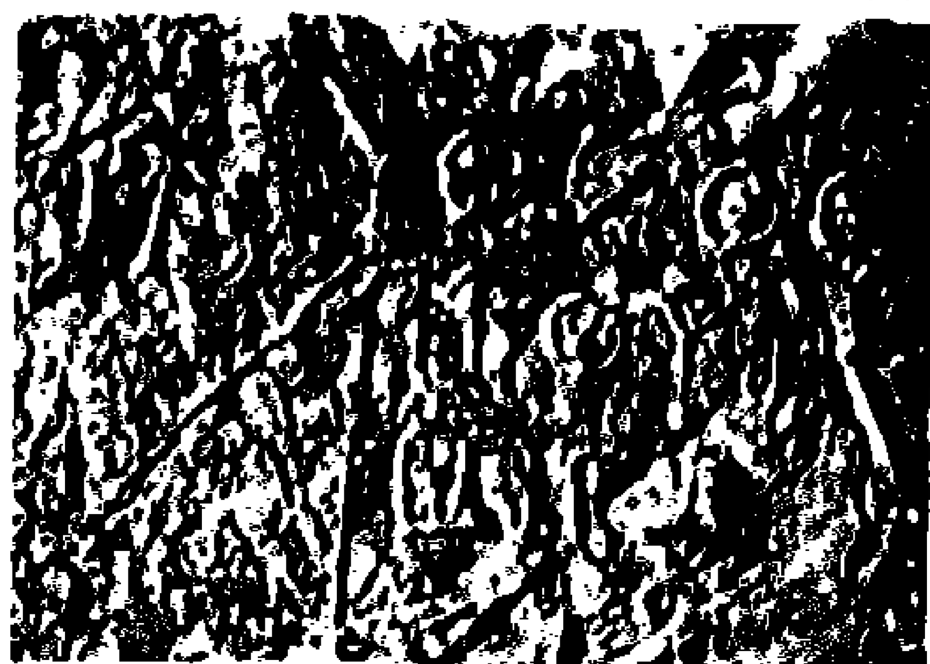
عمل المعلم على يه محمد المعمار باشى بدمشق الشام

(٧) نقش يوناني غير مكتمل موجود في منزل سليمان حدادين. وهذا النقش محفور فـي حجر أبيض شديد الصلابة، ويبلغ عرضة ٠،٤٣ م وطوله ٠،٤٤ م. والكتابة فـي هـذا النقش غير مكتملة في الاتجاهين. وتبدو هناك قطعة ناقصة من الاتجاه الأيمـن. ويمكـن

أيضاً أن نفترض أن القائم بنحت أو حفر الحروف في هذا النقش ربما يكون قد أساء توزيع الحروف والكتابة والكلمات في المساحة المتاحة أمامه. ومن خلال ما يمكن قراءته من كلمات هذا النقش نكتشف عدم وجود أسماء شخصية أو تاريخ. والكلمات المقروءة الأخرى في النقش تشير إلى احتمال أن يكون النقش بخصوص إهداء أحد المباني ذات الطابع الديني.



(٨) نقش يوناني آخر غير مكتمل أيضاً ويوجد في نفس الموقع الخاص بالنقش الأول السابق الإشارة اليه، وهو يحمل نفس ملامح ومحتوى وطابع النقش السابق أيضاً. وهناك ما يشير إلى أنه يتناول نفس الفقرة المتضمنة في النقش الأول، ذلك أن الحروف في هذا النقش أصغر قليلاً منها في النقش السابق. والنقشان على الأقل ينتميان إلى نفس الفترة ونفس التاريخ إن لم يكن لهما نفس الموضوع. ويشير الصليب إلى انتماء هذا النقش إلى ما يختص بالديانة المسيحية.





(٩) نقش على باب إحدى المقابر الكبرى. الكتابة في حالة جيدة وموجودة داخل خرطوش أبعاده ٧٧ر٠م × ٥٦ر٠ م، وطول الحروف في المتوسط ٠٣٧ر٠م.

- السطر الأول والثاني يشيران إلى اسم من قام بعمل هذه المقبرة، وإلى أنه من منطقة تيما، وأنه قد قام ببنائها لنفسه ولأبنائه ولأمه.
- السطر الثالث يضيف إلى ذلك شقيقاته وأبناءهم، وإلى أن المقبرة لها من القداسة ما يماثل كل المواقع والأشياء ذات الطبيعة المقدسة.
- السطران الرابع والخامس يؤكدان حظر استخدام هذه المقبرة لأي شخص خلاف المذكورين أعلاه في هذا النقش وفقاً لمشيئة صاحب المقبرة، وتضيف السطور التالية إمكانية إضافة أشخاص آخرين للانتفاع بالمقبرة وهم من يمكن دخولهم بالبيع أو الشراء أو الإيجار أو التصرفات الأخرى المشروعة في شأن المقبرة المذكورة.
- تشير السطور السابع والثامن إلى أن هذا النقش مكتوب للرب وبتكلفة قدرها ألف دراخمة، وهو موجه أيضاً إلى (سيده) الملك.
- والسطر التاسع يشير إلى تاريخ النقش في شهر شباط من السنة الثالثة عشرة من حكم الملك حارثيات (الحارث) الذي يحب شعبه (في السطر العاشر والأخير).
- يتضمن هذا النقش في السطر الأول ما يتشابه مع الكلمات التي تشير إلى الطقوس الجنائزية في النقوش النبطية الأخرى. وفي السطر الثالث تشير إحدى الكلمات إلى ما يتفق مع اللغة العربية في التعبير عن الوقت أو "الإيجار المؤقت" للمقبرة. ويتضمن نفس السطر ما يشير إلى جلب اللعنة على من قد يعتدي على حقوق ملكية هذه المقبرة.

1. דנה כפרא ובססא וגוכא די עבד חושבו בר
2. נפיו בר אלכוף תימניא לנפשה וילדה וחבו אמה
3. ורופו ואפתיו אחותה וילדהם חרם כחלקת חרם
4. נבטו ושלמו לעלם ולען דושרא כל מן די יקבר בכפרא דנה
5. עיר מן די עלא כתיב או יזבן או יזבן או ימשכן או
6. יוגר או יהב או יאנא זמן יעבד כעיר מה די עלא
7. כתיב פאיתי עמה לדושרא אלהא בחרמא די עלא
8. לדמי מגמר סלעין אלף חרתי ולמראנא חרתת מלכא כות
9. בירח שבט שנת עשר ותלת לחרתת מלך נבטו רחם
10. עמה

(١٠) نقش نبطي آخر على باب المقبرة من الداخل أي في الجزء الداخلي من مدخل أو باب المقبرة. ويقل هذا النقش عن النقش السابق له في درجة الجودة أو احتفاظه بالمعالم الأساسية، ويبلغ متوسط طول الحروف في النقش ٥٠ر٠م.

- يشير السطر الأول إلى تخصيص الغرفتين الصغيرتين (من غرف الدفن) ويشير السطر الثاني إلى ابن نافيو بوصفه صاحب إحداهما والسطر الثالث يشير إلى علجأ وحابو أبنائه استكمالاً لتخصيص المكانين، ويشير إلى أنهم بني سهم. والسطران الأخيران – كعادة هذا النوع من النقوش – مخصصان للعنة من يخالف هذه التخصيصات أو يعتدي على حرمة المقبرة. والتعبير المستخدم في السطر الرابع يشير إلى الإله النبطي وقدرته على التحكم المطلق في الليل والنهار أو الزمن بصفة عامة.
- استخدام السطر الرابع في هذا النقش بصفة "من يفصل الليل عن النهار" استخدام جديد في هذه النقوش وفي الأدبيات الجنائزية بصفة عامة لدى الأنباط. وهي تمثل هنا استخداماً للإشارة إلى الإله النبطي الذي يقصد بهذه العبارة.

1. אלה תרי גוחיא די
2. הישבו בר נפיו ועלגא
3. והבו בניהי בני שהם
4. פילגן פרש ליליא בין יממא
5. מן די ינפק יתהם לעלם

(١١) نقش نبطي آخر على واجهة إحدى المقابر الضخمة. والنقش مكتوب داخل خرطوش وبشكل غير منتظم وفي حالة غير جيدة. المقاييس الخاصة به ٧٠ر٠× ٦٧ر٠م وهناك سطر وكلمة خارج إطار الخرطوش. وهناك صعوبة في قراءة النقش ترجع إلى ما يعتوره من بعض الخدوش هنا وهناك. ارتفاع الحروف في المتوسط ٥٠ر٠م.

- السطر الأول من النقش يشير إلى أن هذه المقبرة قد قام ببنائها حوشايكو بن حومايدو لنفسه.
- السطر الثاني يضيف إلى أن حوشايكو هذا قد بناها أيضاً لأبنائه ولجوزايات وسالامو شقيقاته.
- السطر الثالث يضيف للمنتفعين بالمقبرة أبناء شقيقات حومايدو، ويحذر هذا السطر والسطر الرابع أي شخص من الكتابة على هذه المقبرة لآخر، ويضيف السطر التالي والذي يليه أنه لا يحق لأي شخص أجنبي أن يتعامل عليها دون حق قانوني في ذلك الأمر. ويستمر هذا التحذير حتى السطر الثامن، ويضاف في هذا السطر تاريخ شهر آيار من العام الأربعين للملك الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه (السطر التاسع) ثم يضاف في السطر العاشر اسم من قام بنحت هذه المقبرة أو هذا النقش.
- في السطر الأول من هذا النقش يقع الحرف الأخير من آخر الكلمات خارج الخرطوش ولكنه واضح تماما في القراءة.
- الاسمان الموجودان في السطر التاسع بوصفهما من قاما بعمل هذه المقبرة من الناحية الفنية موجودان أيضا في أعمال أخرى ترجع لنفس هذا التاريخ وهو السنة الأربعون من حكم الملك النبطي المشار له في النقش.



مدائن صالح – النقش رقم (١١) – مقبرة بسلم

(١٢) نقش نبطي على واجهة المقابر – وهو مكتوب أيضاً في داخل خرطـــوش ويبلــغ عرضه ٥٤ر٠م والارتفاع ٤٦ر٠م والسطر الأول من هذا النقش يبدو في حالـــة سـيئة. ومتوسط ارتفاع الحروف في السطر يبلغ ٠٤ر٠م.

- يتكون هذا النقش من ثمانية سطور، ويشير في البداية إلى أن هذه المقــبرة قــد قــام بإنشائها شوبايتو ابن عيلع اليهودي، وأنه قد خصصـــها لنفســه ولأبنائــه وزوجتــه عميرات، وأنه من غير المسموح باستخدامها لأي شخص من الغرباء وأن أية أوقـاف أو عطاء أو كتابة (حول) هذه المقبرة تكون بين أبناء شوبايتو المذكور أعلاه أو مــن يكون لهم الحق بالتبعية في هذا. وأن هذا البناء والكتابة كان في اليوم الأول من شهر آب وفي العام الثالث من حكم الملك ماليكو ملك الأنباط. ويضيف السطر الأخير اسـم صانع المقبرة وهو عن عبودات ابن وهب الله.
- الاسم الشخصي الموجود في السطر الأول غير واضح بسبب تدمير هذا السطر فـــي النقش الأصلي، ولكنه موجود بصورة سليمة في السطر الخامس.
- إضافة صفة أو ديانة اليهودي في السطر الثاني من النقش إلى اسم صاحب المقبرة لا تمثل مشكلة في تفسير النقش تاريخياً، حيث تشير المصادر (ياقوت – ٤ – ٨١) إلى وجود اليهود في هذه المنطقة. بالإضافة إلى أنه من المتفق عليه تاريخيـــاً أن هنـــاك مستعمرات عديدة لليهود في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ولعل أهمها وأوضحها ما كان موجوداً في يثرب وخيبر والتي تقع في الجنوب الشرقي من مداين صالح.



مدائن صالح – النقش رقم (١٢) – مقبرة بسلم

(١٣) نقش موجود على واجهة المباني الجنزية الضخمة في مداين صالح، ويرتفع بمقدار عشرة أمتار عن سطح الأرض. ويوجد هذا النقش في داخل خرطوش كبير ٦٧ر٠م × ٦٨ر٠ م. ويبلغ متوسط طول الحروف في هذا النقش ٠٤ر٠م، وهي مكتوبة ومنقوشة بشكل جيد ومحفوظة أيضاً بشكل جيد فيما عدا بعض الحروف والكلمات في السطور الرابعة والخامسة والسادسة.

- يشير النقش إلى أن القائم ببناء هذه المقبرة (صاحبها) هو هانيو بن تافصا وأنه يخصصها لنفسه ولأبنائه وبناته ولكل من ينتمي لهم في المستقبل، وأنه غير مسموح بدخولها أو التصرف حيالها للغرباء ولا يحق أيضاً التصرف فيها بالبيع أو التنازل أو المنحة لأي شخص لم يقم بكتابته صاحب المقبرة، وأن من يخالف هذه التعليمات سوف يتعين عليه أن يكون عرضة لغرامة ١٠٠٠ دراخمة. وتاريخ المقبرة كما هو موضح في السطرين التاسع والعاشر من هذا النقش يرجع إلى شهر نيسان في العام الأربعين من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه، ثم يذكر السطر الحادي عشر والأخير اسم صانع المقبرة.

1. דנה כפרא די עבד הנאו בר תפצא
2. לה ולילדה בנוהי ובנתה ולמן די ינפק
3. בידה תקף מן יד הנאו דנה די יתקבר
4. בכפרא (דנה ו)די לא יתקבר בכפרא" דנה
5. אנו(ש עדינא (?) א)ו יזתבן או תתרהב בה
6. מוהבא או אוגרו או תקף כלה להן הן
7. יכתב הנאו דנה או יקבר מן די יצבא הנאו
8. דנה או אצדקה מן באתרה ומן יעבד כעיר דנה
9. פאיתי עמה למראנא סלעין אלף חרתי בירה
10. ניסן שנת ארבעין לחרתת מלך נבטו רחם עמה
11. הורו פסלא בר אהיו עבד

(١٤) نقش نبطي على واجهة أحد أجمل المقابر المحفورة داخل الجبل والتي تصل إليها عن طريق ممر منبسط يرتفع لثلاثة أمتار عن سطح الأرض. ويتكون هذا النقش من ١٢ سطراً، الأول منهم هو الوحيد الذي يمكن قراءته بسهولة، والسطور الأخرى تعرضت للتدمير بفعل الرياح والأمطار وعوامل التعرية. يصل ارتفاع الحروف في النقش إلى ٠٣٥ر٠م.

- والسطر الواضح والمقروء في هذا النقش يشير إلى أن صاحب هذه المقبرة هو شـولا ابن عايدو ابن عبيدو. والكلمات الواضحة المقروءة في السطور الأخرى تتضمن اسم الملك ماليكو ملك الأنباط. ويشير السطر الأول أيضاً إلى طبيعة العمل العسـكري أو الوظيفة العسكرية لصاحب المقبرة. وسوف نجد ذكر نفس هذا الاسم في نقش آخـر سوف نتناوله فيما بعد.

1. דנה כפרא די עבד שלו אסרתגא בר עידו
2. הפרכא בר ע. . . . . דה
3-10. . . . .
11. . . . .(מלכו מל)כא .
12. מלך (נבטו) . . . .

(١٥) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الجميلة أيضاً والنقش داخل شريطوش عرضه ٧٧ر٠م وارتفاعه ٥٣،٠م وهو في حالة جيدة للغاية والحروف منقوشة بعناية ووضـوح. ويتميز هذا النقش بالحروف الصغيرة في السطور الثلاثة الأولى والسطور الأخيرة أيضـاً بحيث تبدو أصغر حجماً من حروف السطور الوسطى. وتبلغ ارتفاع السـطور الأولـى والأخيرة ٠٣ر٠م بينما تبلغ في السطور الوسطى ٠٤٥ر٠م.

- تقول سطور النقش أن القائم ببناء هذه المقبرة – صاحبها – هو آروس ابن فـروان، وقد قام بإنشائها لنفسه ولأبيه وزوجته وبناته وأولاد بناته ولكل من يصبح صـاحب حق في هذه المقبرة بالتبعية من جانب آروس أو من جانب شقيقاته بنات فاروان "وأن يكون ذلك الوضع خاضعاً لحقوق الملكية التي يتعين على كل طرف الالـتزام بـها. وهذه المقبرة وهذا النقش يرجع تاريخها إلى شهر نيسان في العام السادس والثلاثيـن من حكم الحارث ملك الأنباط "الذي يحب شعبه" . والقائمون بهذا العمل (النحـاتون) هم أفتاح بن عبد عبودات ووهبو بن أفسا وهورو بن عشية.

- الجديد بالملاحظة في هذا النقش أنه على الرغم من قيـام ثلاثـة أشـخاص بعملـه وعنايتهم بإتمامه على صورة طيبة فإن هناك ثلاثة حروف محذوفـة مـن سـطور ٤/٧/٩.

1. דנה קברא די עבד ארוס בר פרון לנפשה ולפרון אבוהי
2. הפרכא ולקינו אנתתה ולחטבת ולהמלת בנתהם ווילד חטבת
3. והמלת אלה ולכל בן די ינפק בידה תקף מן ארוס דנה אי
4. חטבת והמלת אח(י)תה בנת פרון הפרכא
5. די יתקבר בקברא דנה או יקבר מן די יצבא
6. בתקפא די בידה כדי בכתבא הו או אצדק באצדק
7. ביק(ר)ה ניכן שנת תלתין ושת לחרתת מלך נבטו רחם עמה
8. אפתח בר עבדעבדת ווהבו בר אפצא והורו בר אחיו פסליא
9. עב(ד)ו



مدائن صالح – النقش رقم (١٥) – مقبرتان بسلم

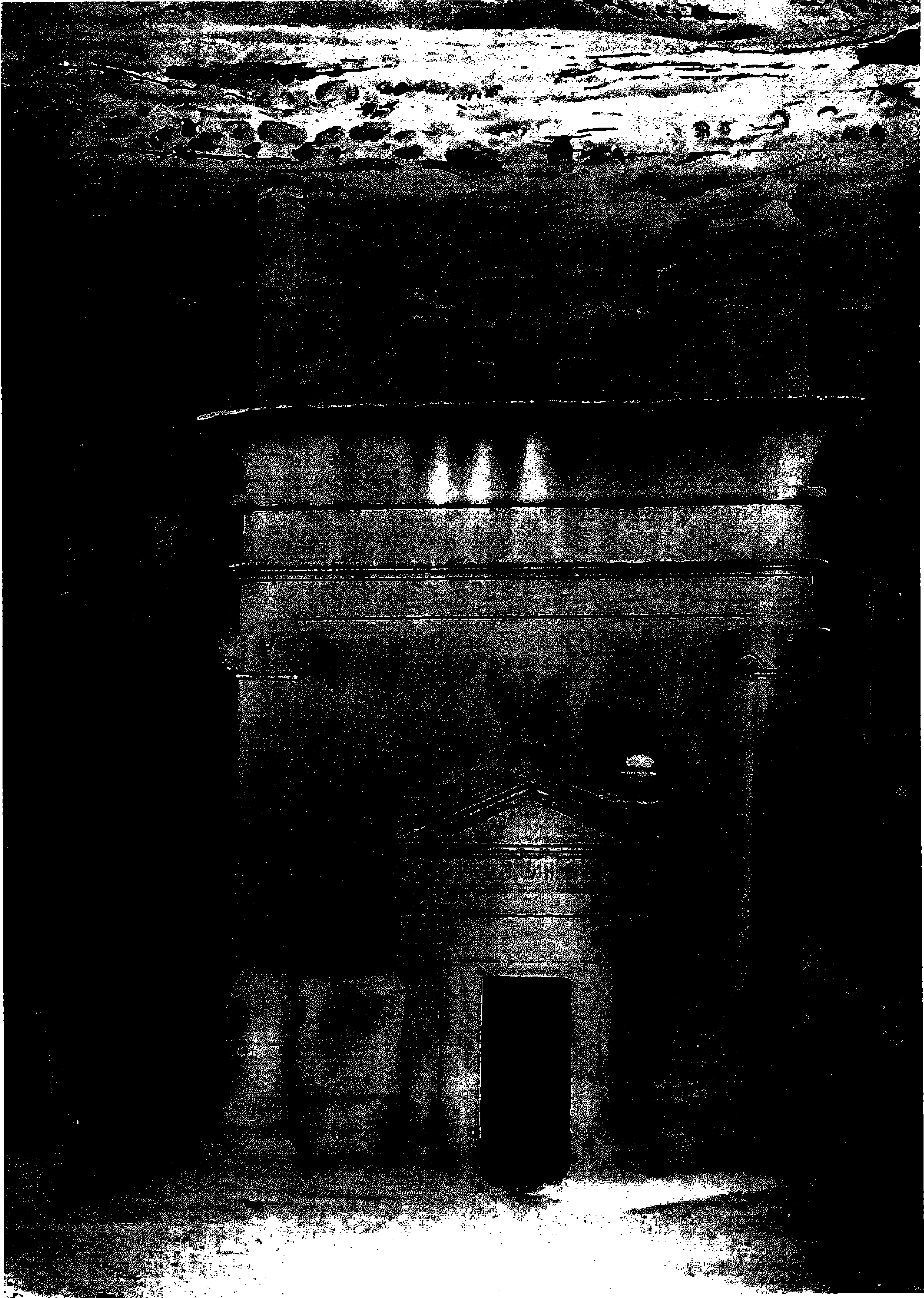
(١٦) نقش نبطي على واجهة مقبرة ضخمة، والنقش مكتوب في داخل خرطـــوش تبلــغ مساحته ٦٤ر٠م × ٤٧ر٠م. والحروف في حالة جيدة ومكتوبة بعناية ونظـــام. وهنـــاك مسافات بين كل حرف والذي يليه تبلغ ٠٥ر٠م، وارتفاع الحروف يبلغ ٠٤ر٠م.

- يشير النقش إلى أن صاحب هذه المقبرة هو عايدو بن كوهايلو بن إلكاسي، وأنه قد أنشأها لنفسه ولأبنائه ولمن يأتي بعدهم ولكل من يكون له الحق فيما بعد في هذه المقبرة بمقتضى صك أو حق قانوني - يرجع إلى عايدو نفسه وأثناء حياته. وأن تاريخ المقبرة يرجع إلى شهر نيسان من العام التاسع من حكم الحارث ملك الأنباط "الذي يحب شعبه". ويضيف النقش بعد ذلك أن لعنة الإله دوشرا ومانوتو وكايشا سوف تحل بكل من يتصرف في هذه المقبرة بالبيع أو الشراء أو الهبة أو الإيجار أو يضع فوقها أية نقوش أو يسمح بدخول أي شخص إليها باستثناء هؤلاء المذكورون عاليه. وهذه المقبرة والنقوش الخاصة بها تعد من الأشياء المقدسة وفقاً لقداسة الأشياء لدى الأنباط عبر أجيالهم.

1. דנה קברא די עבד עידו בר כהילו בר
2. אלכסי לנפשה וילדה ואחרה ולמן די ינפק בידה
3. כתב תקף מן יד עידו קים לה ולמן די ינתן ויקבר בה
4. עידו בחיוהי בירח ניסן שנת תשע לחרתת מלך
5. נבטו רחם עמה ולענו דושרא ומנותו וקישה
6. כל מן די יזבן כפרא דנה או יזבן או ירהן או ינתן או
7. יוגר או יתאלף עלוהי כתב כלה או יקבר בה אנוש
8. להן למן די עלא כתיב וכפרא וכתבה דנה חרם
9. כחליקת חרם נבטו ושלמו לעלם עלמין

(١٧) نقش نبطي داخل خرطوش يبلغ حجمه ٦٢٥ر م × ٥٤ر م على واجهة جميلة لإحدى المقابر. الحروف المكتوب بها النقش صغيرة وغير منتظمة نسبياً، ومتوسط ارتفاع الحرف في الكلمات يصل إلى ٠٣٢ر م، وتصل أبعاد السطر الرابع والخامس إلى مسافات أطول من السطور الأخرى في اتجاه اليسار وهو ما اقتضى تعديل وضع الخرطوش حتى لا يقطع هذه السطور. وهذا النقش واضح وفي حالة جيدة.

- يشير النقش إلى أن صاحب المقبرة هو عبد عبودات ابن أريبابس وأنه قد قام بتخصيصها لنفسه ولإبنته ولأبناء هذه الابنة وبناتها وأبناؤهن، ولا يكون لهن الحق في بيع أو إهداء أو تأجير هذه المقبرة وكذلك الكتابة عليها، ويكون عليهن فقط السماح لحورو شقيق صاحب المقبرة بأن يدفن فيها وحده عند وفاته فى هذه المنطقة ولا يكون لأى شخص الحق فى إخراجه منها، ولا يحق لأي شخص تعديل أى بند من البنود الواردة فى هذا النقش وإلا تعرض لغرامة قدرها ٢٠٠٠ دراخمة. ويرجع تاريخ النقش والمقبرة إلى شهر طوبة من العام الرابع والأربعين لحاكم الحارث ملك الأنباط الذى يحب شعبه. وهذه المقبرة قام بنحتها أفتاح بن عبد عبودات النحات.



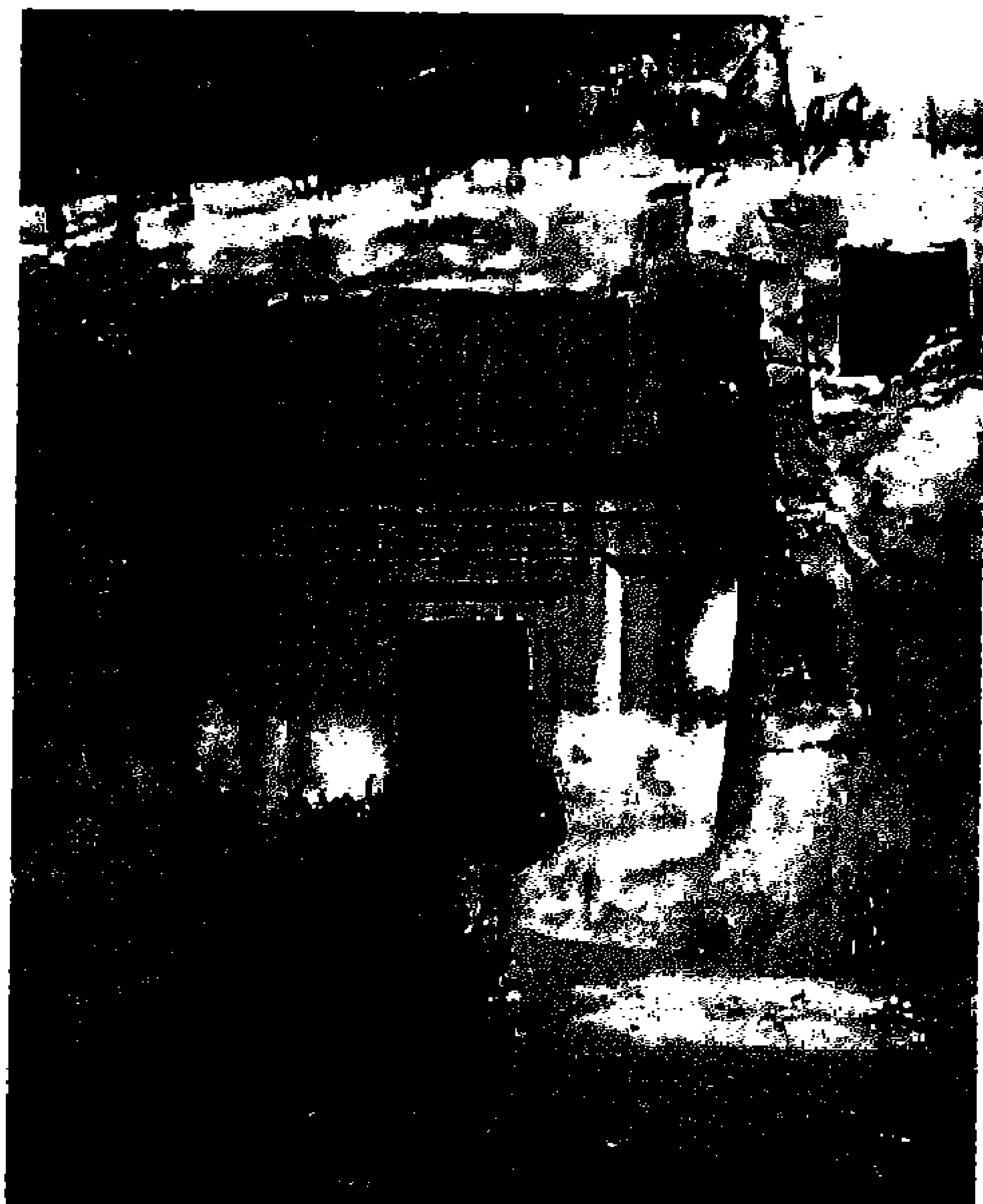
مدائن صالح - النقش رقم (١٧) - مقبرة بسلم

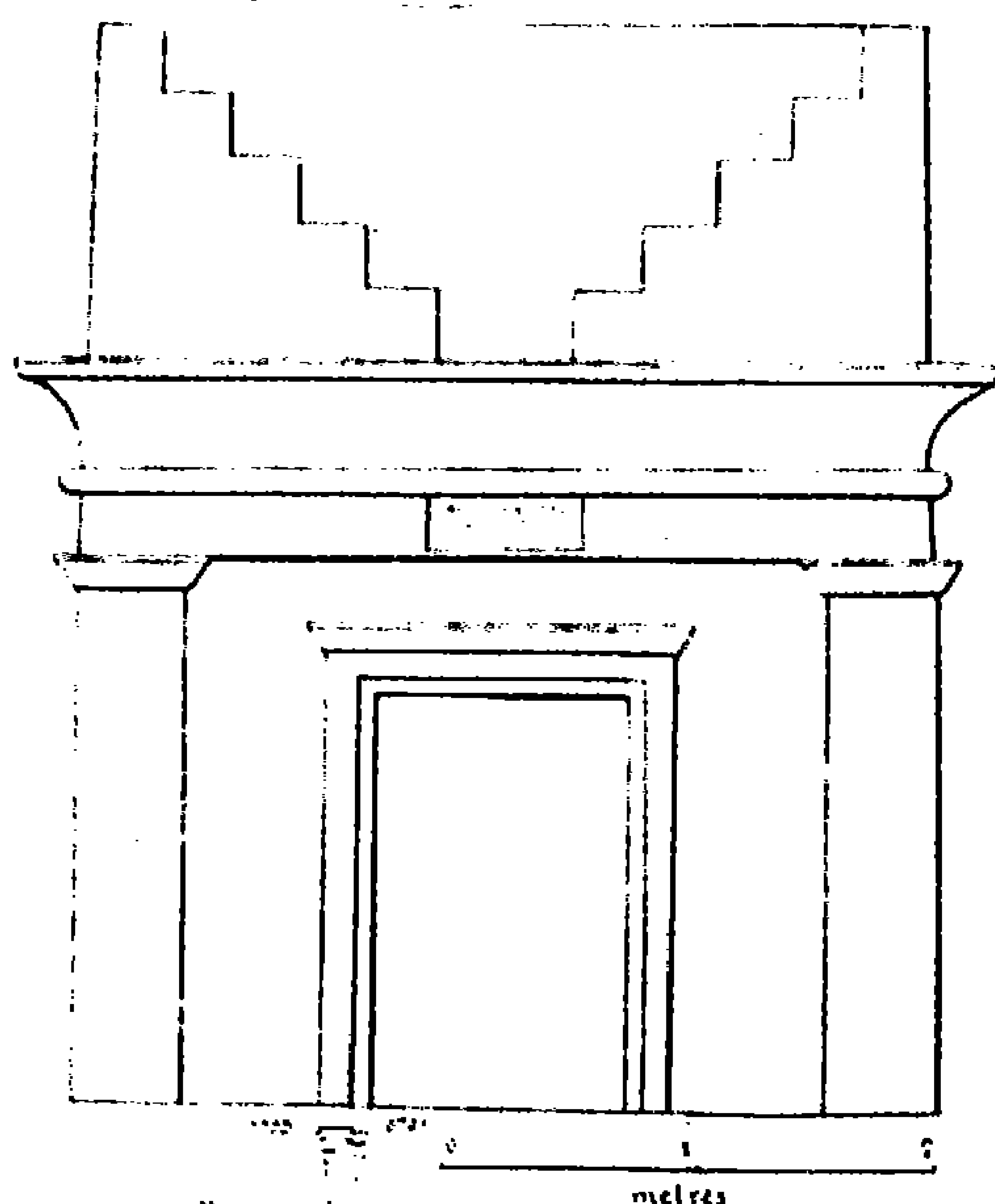
1. דנה כפרא די עבד עבדעבדת בר אריבס לנפשה
2. ולואלת ברתה ולבני ואלת דא ובנתה וילדהם די יתקברון בקברא הו
3. ולא רשין ואלת ובניה די יזבנון או ימשכנון או יוגרון כפרא דנה או
4. יכתבון בכפרא הו כתב כלה לכל אנוש לעלם להן די יהוא כפרא הו לואלת ולבניה
5. ובנתה ולילדהם קים לעלם וקם ואלת ובניה די הן יהוא חורו אח עבדעבדת
6. דנה בחגרא ויהוא בה חלף מות די יתקברון יתה בקברא דנה לחודוהי
7. ולא ינפק יתה אנוש זמן די יעיר ולא יעבד כדי עלא כתיב
8. פאיתי עמה למראנא כסף סלעין אלפין תרין הרתי בירח
9. טבת שנת ארבעין וארבע לחרתת מלך נבטו רחם עמה
10. אפתח בר עבדעבדת פסלא עבד

(١٨) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الصغيرة، وهي تتميز بالبســـاطة ولكنــها لا تخلو من الجمال، والنقش في داخل خرطـــوش حجمـــه ٥٤ر × ٢٥ر م. ويلـــغ ارتفـــاع الحروف في المتوسط ٠٣ر٠م.

- يقول النقش بأن صاحب هذه المقبرة هو باعانو بن ســـوعايدو وقـــد أنشـــأها لنفســـه ولأطفاله ولمن يعقبهم ويكون لهم الحق فيها. ولا يحق لأي شخص التصـــرف فيـــها بالبيع أو الإيجار. وتاريخ المقبرة كما هو مدون بالنقش يرجع إلى العام التاسع مـــن حكم الملك ماليكو، ملك الأنباط. والنحات الذي قام بهذا العمل هو هاينو بن عبيدات.

1. דנה כפרא די לבענו בר שעידו לנפשה וולדה ואחרה
2. ואצדקה ולא יכל אנוש די יזבן או יוגר כפרא דנה
3. לעלם בשנת תשע למלכו מלכא מלך נבטו הנאו בר
4. עבידת פסלא





مدائن صالح ـ صورة ورسم للنقش رقم (١٨)

(١٩) نقش نبطي يرجع لنفس هذا الأثر: مقبرة صغيرة ذات واجهة بسيطة. ويوجد هـــذا النقش خارج الغرفة الصغيرة "المخصصة للدفن" إلى اليسار وإلى أعلـــى وهـــو محفـــور بطريقة يكتنفها الإهمال النسبي وعلى جدار ذي إعداد سيئ. والحروف في النقش نفســـه ليست في حالة جيدة حيث أن بها بعض الخدوش والكسور ويبلغ حجـــم الحـــروف فيـــها ٠٣ر٠م (في الارتفاع).

- يدور هذا النقش حول أن صاحبة هذه الغرفة هي ابنة باجرات وأنها قـــد خصصتـــها لنفسها في داخل المقبرة التي تخصها هي وبناتها. ويقول النقش أيضاً أن مـــن يقـــوم بفتح هذه الغرفة أو إخراج صاحبتها منها سيكون معرضاً للمسائلة من جانب الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه، وسيكون عليه غرامة قدرها ألف دراخمة، كما ســيكون ملعوناً من الآلة. ويرجع تاريخ المقبرة وفقاً للنقش إلى العاشر من شهر آب في العـــام الثالث والأربعين من حكم الملك الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه.

(٢٠) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر، على ارتفاع ٣ أمتار عن الأرض، والنقـــش في داخل خرطوش مساحته ٥٨ر × ٥٥رم، وفي داخـــل الخرطـــوش مســـافة صغـــيرة (٥٥٠ر٠م) متروكة بدون كتابة. ويتضمن السطر الأخير توقيع القائم بالكتابـــة وخـــارج إطار الخرطوش. وحالة هذا النقش سيئة للغاية، ويبلغ طول الحـــروف (ارتفاعـــها) فـــي الكلمات ٠٤ر٠.

- يتضمن هذا النقش أن هذه المقبرة تخص ابنة باجرات وبناتـــها، وهـــن مـــن تيمـــا، والمقبرة مخصصة لكل واحدة منهن وكذلك لعميرات وعسرانات والعانات الشـــقيقات وبنات صاحبة المقبرة والتابعين لهن. وأن صاحبة المقبرة وبناتها وكل من يتبعهن من

النساء والرجال لا يحق لهم التصرف في المقبرة بالبيع أو الإيجار أو إحـــداث أيـــة تعديلات بشأن ما تقرر من صاحبتها وإلا يكون على المخالف أن يؤدي غرامة إلـــى تاداي مبلغ مقدارها ١٠٠ دراخمة إلى سيدنا الملك. ويرجع تاريخ هذه المقـــبرة إلـــى شهر أيار في العام الثالث والأربعين من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شـــعبه. ويذكر السطر الثاني عشر والأخير أن النحات القائم بهذا العمل هو خلف الله (خلـــف اللاهي).

- هذا النقش يتميز عن النقوش السابقة في ذكر حق الانتفاع بالمقبرة للتابعين لصاحبتـــها أو بناتها، وهو ما يقع في إطار أصحاب حق الجوار – أو الاستجارة – وفقاً لأعراف بدو شبه الجزيرة العربية.
- من الأسماء اللافتة للنظر أيضاً في هذا النقش وقوع صاحبات المقبرة تحـــت حمايـــة (تاداي) أو (تارا) وهي إحدى الإلهات المحليات في موطن صاحبة المقبرة في تيمـــا، ولهذا السبب تضع السيدة مالكة المقبرة نفسها بعد الموت في حماية هذه الإلهة التـــي تخص منطقتها.

0.m 58

(٢١) نقش نبطي يقع في داخل إحـــدى المقابر الصغيرة في أعلى إحدى غــرف الدفن. والنقش في حالة جيدة ومنتظم في الكتابة ويبلغ ارتفاع الحروف في داخلــه ٠،٠٤م.

- يقول النقش أن هذا المدفن يخــص هاجارو وأنها قـــد أقامتـــه مـــن أجـــل موسليمو شقيقته وكذلك محمية خالتـــه. وأن هذه الغرفة لا ينبغي أن تفتح عليهما إلى الأبد.
- الاسم المذكور فـــي هـــذا النقـــش والخاص بصاحبة المدفن يوازي الاســـم العربي هاجر والدة إسماعيل عليه السلام (ياقوت ١- ٢٦٠، ٢- ٩٤١)

(٢٢) نقش نبطي ينتمي إلى نفس الأثـــر المذكور في النقش السابق. وهو محفـــور على واجهة مقبرة صغيرة إلى اليســـار، ومكتوب بدون خرطـــوش. والســـطور الأخيرة من هذا النقش في حالة ســـيئة. ارتفاع السطور في النقش يبلـــغ ٠٫٠٤م والحروف منتظمة في الكلمات والســطر بصفة عامة.



- يقول النقش أن هذه المقبرة تخص هاجارو ابنة حوباي ومحمية ابنته وايلات وانهما قد أنشأتا هذه المقبرة لهما ولأبنائهما ومن يعقبهم. والحق في هذه المقبرة يقع مناصفـــة بين الشقيقتين. وتاريخ المقبرة يرجع إلى العام الثامن عشر من حكم الملك ماليكو ملك الأنباط.
- الاسم المذكور في هذا النقش هو نفسه الاسم المذكور في النقـش الســابق لصاحبــة المقبرة أو غرفة الدفن.

0,m55

0,m94

مدائن صالح – نقوش نبطية

(٢٣) نقش نبطي محفور على واجهة صغيرة وجميلــة لإحــدى المقــابر ذات عنــاصر زخرفية من الطراز الآشوري، وهذا النقش لا يظهر منه سوى بعض العلامات التـــي لا توحي بأية معاني واضحة مكتملة.

(٢٤) نقش نبطي يتميز بالجمال الشديد وفي حالة جيدة، ويقع على واجهة جميلة أيضـــاً. والنقش مكتوب داخل خرطوش، مقاييسه الداخلية ٣٨ر م × ٥٧ر م. والتوقيع فـــي هـــذا النقش يقع خارج الخرطوش بالكامل، الحروف منتظمة ومحفورة بشكل جيد، وطول الكلمة في السطر يبلغ ٠٣٥ر٠م.

- يبدأ النقش بذكر صاحبة المقبرة وهي كامكام ابنة وايلات ابنة حارامو، وكولايابـــات ابنتها، وأنهما قد أقامتا هذه المقبرة لنفسيهما ولنسلهما، وذلك في شهر طوبة من العـلم

التاسع من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه، ويمضي النقش بعد ذلك فيدعو باللعنة من الآلهة على كل من يبيع هذه المقبرة أو يشتريها أو يمنحها على سبيل الهبة أو يخرج منها جثة أو عظاماً أو يسمح بأن يدفن فيها من لا يحق له ذلك. وأن من يفعل ذلك يتعين عليه أن يؤدي إلى دوشرا وهبل ومانوتو ٥ (شامدين) بالإضافة إلى ألف دراخمة للحارث ويستثنى من ذلك من يملك الحق من يد صاحبتي المقبرة، ويكون هذا النقش معمولاً به من تاريخه. وفي النهاية يذكر النقش القائم بهذا العمل (النحات) وهو وهب اللاه ابن عبد عبودات.

- يذكر هذا النقش مبلغاً من المال يتم دفعه من جانب مخالفي الوصية بديلاً عن لعنة الآلة، وهذا المبلغ المذكور في النقش هو ٥ (شامادين). وهذه الكلمة لا تمثل اسماً لأي نوع من العملات المعروفة أو المتداولة في هذه المناطق. والأرجح في هذه الحالة أن تكون هذه الكلمة ذات معنى موازي لمعنى الدية أو (حق الدم) المعروف لدى العرب، وأن يكون المقصود من ذكرها هنا هو أن من يعتدي على حقوق هذه المقبرة يكون مطالباً بدفع خمسة أضعاف الدية أو (الجزاء) المقرر لمثل هذه المخالفات. ومن الممكن في هذه الحالة أن يكون هناك عرف مماثل لدى الأنباط وسيتبع ذلك قدراً معروفاً من الغرامة هو المقصود بكلمة (شامادين) هذه. ويكون على المخالف في أمر هذه المقبرة أن يدفع خمسة أضعاف هذه الغرامة المقررة. وإلى جانب ذلك هناك أيضاً الغرامة المعتادة – ألف دراخمة – والمقرر دفعها إلى الملك.

1. דנה כפרא די עבדו כמכם ברת ואלת ברת חרמו
2. וכליבת ברתה לנפשהם ואחרהם בירח טבת שנת
3. תשע לחרתת מלך נבטו רחם עמה וילען דושרא
4. ומותבה ואלת מן עמנד ומנותו וקישה מן יזבן
5. כפרא דנה או מן יזבן או ירהן או ינתן יתה או ינפק
6. מנה גת או שלו או מן יקבר בה עיר כמכם וברתה
7. ואחרהם ומן די לא יעבד כדי עלא כתיב פאיתי עמה
8. לדושרא והבלו ולמנותו שמדין 5 ולאפכלא קנס
9. סלעין אלף חרתי בלעד מן די ינפק בידה כתב מן יד
10. כמכם או כליבת ברתה בכפרא הו פקים כתבא הו
11. והבאלהי בר עבדעבדת
12. עבד

(٢٥) نقش نبطي محفور على جدار صخري غير ممهد أو مصقول، وبارتفاع قدره ٥ إلى ٦ أمتار من سطح الأرض، ويقع الجدار بين مقبرتين من (قصر النبت) ولكن دون أية علاقة بين المقبرتين. ويصل عرض الجدار إلى ٧٠ر١م، والحروف غير منتظمة ويبلغ طولها في المتوسط ٠٨ر٠م والسطور ذات خصائص ثمودية حيث تبدو منحرفة أو مائلة من أعلى لأسفل.

- يذكر النقش أن صاحب المقبرة هو كاعابو ابن الحارث وقد أقامها لراكوس ابنة عبد ماناتو أمه، وإنها قد توفيت في الحجر في عام ١٦٢ في شهر تموز، وأن اللعنة تقع من سيد الكون على أي شخص يقوم بأي تعديل في هذه المقبرة أو يقوم بفتحها، وذلك باستثناء نسل صاحبتها، واللعنة كذلك على من يعدل ما هو مكتوب فوقها.
- الأسماء المذكورة في هذا النقش تؤكد التأثير العربي في لغة هذا النقش، حيث أن اسم صاحب المقبرة يوازي اسماً متكرراً وشائعاً في اللغة العربية وخاصة بين القبائل وهو اسم (كعب). والتاريخ المذكور في النقش يوازي في التاريخ الميلادي شهر يوليو سنة ٢٦٧.
- تعبير "سيد الكون" أو "سيد العالم" يعتبر شيئاً جديداً في النقوش النبطية في هذه المرحلة، وهو يوازي استخدام تعبير "رب العالمين" في القرآن الكريم.
- هذا النقش يقدم اسماً جديداً لأحد الشهور النبطية، ويقدم أيضاً إضافة جديدة حول تاريخ هذه اللغة وكتابتها. وهو يمثل مرحلة انتقال تتشابك فيها وتندمج العناصر النبطية (في اللغة) مع العربية، ويبدو ذلك من خلال ما تتخذه لغة الأنباط من كلمات وقواعد ذات خصائص عربية. والفترة التي يفترض أن يكون هذا التفاعل والاندماج قد تم خلالها هي النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

1. דנה קברו צנעה כעבו בר
2. חרתת לרקוש ברת
3. עבדמנותו אמה והי
4. הלכת פי אלחגרו
5. שנת מאה ושתין
6. ותרין בירח תמוז ולען
7. מרי עלמא מן ישנא אל־קברו
8. דא ומן יפתחה חשי ו
9. ולדה ולען מן יגיר דא עלי מנה

(٢٦) نقش نبطي على واجهة كبيرة لإحدى المقابر، ويوجد في خرطوش مقياسه ٨٧ر٠م × ٤٥ر٠م، الحروف منتظمة ومحفورة بعناية، ويبلغ طولها ٠٣٢ر٠م والنقش في حالة جيدة.

- يذكر النقش أن صاحب المقبرة هو "كاهيلان" ويعمل طبيباً، وهو ابن ولان، وقد شيد المقبرة لنفسه ولأولاده ونسلهم وذلك عن طريق التوريث إلى الأبد وهذه المقبرة مقدسة مثل سائر المقدسات المنسوبة إلى دوشرا إله الأنباط ولكل من تئول إليه وراثتها أن يمتنع عن البيع أو الإيجار أو أي تصرف مخالف بشأن المقبرة عن وصية صاحبها وكذلك عن إضافة أية كتابة أخرى عليها، وكل من يخلف ذلك المذكور أعلاه سوف يتعين عليه أن يدفع لدوشرا ثلاثة آلاف دراخمة وللملك الحارث، وتكون لعنة دوشرا ومانوتو على أي شخص يخالف وصية صاحب المقبرة، وتاريخ المقبرة يرجع إلى شهر آيار من العام الخامس والثلاثين من حكم الملك الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه. ويذكر السطر العاشر والأخير من النقش أسماء النحاتين الذين قاموا بعمل المقبرة والنقش وهم عبد عبودات وخلف اللاهي ابن حيمالجو.

1. דנה קברא די עבד כהלן אסיא בר ואלן לנפשה וילדה ואחרה
2. אצדק באצדק עד עלם ואיתי קברא דנה חרם כחליקת חרמא די
3. מחרם לדושרא בנבטו ושלמו על כל אנוש אצדק וירת די לא
4. יזבן קברא דנה ולא ימשכן ולא יוגר ולא ישאל ולא יכתב
5. בקברא דנה כתב כלה עד עלם וכל אנוש די ינפק בידה כתב מן כהלן
6. פקים הו כדי בה וכל אנוש די יכתב בקברא דנה כתב מן כל די עלא
7. פאיתי עמה לדושרא כסף סלעין אלפין תלתה חרתי ולמראנא
8. חרתת מלכא כות וילען דושרא ומנותו כל מן די יעיר מן כל
9. די עלא בירח איר שנת תלתין וחמש לחרתת מלך נבטו רחם עמה
10. אפתח בר עבדעבדת וחלפאלהי בר חמלגו פסליא עבדו

(٢٧) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر، ويتسم هذا النقش بالطابع الجمالي الواضح، والحروف محفورة في داخل خرطوش عريض مساحته ٦٩ر٠ × ٥٥ر٠م. وهو في حالة جيدة تماماً.

- يشير النقش في البداية إلى صاحب المقبرة، عايدو ابن عوبايدو الذي انشأ هذه المقبرة لنفسه ولأولاده ونسلهم، كما يشير إلى أحقية الدفن في هذه المقبرة لأفيتو أم عايدو

وابنة حابيبو، وناتيات زوجته، وابنة سوللاي، وكذلك لكل من يملك صكاً في يده من صاحب المقبرة بأحقيته في أن يدفن فيها، وهذه المقبرة تم إنشاؤها في شهر آذار في العام الحادي عشر من حكم الملك ماليكو ملك الأنباط، وقام ببنائها عبد عبودات ابن وهب اللاهي وهاينو ابن عبيدات، وأفصا ابن حوتو.

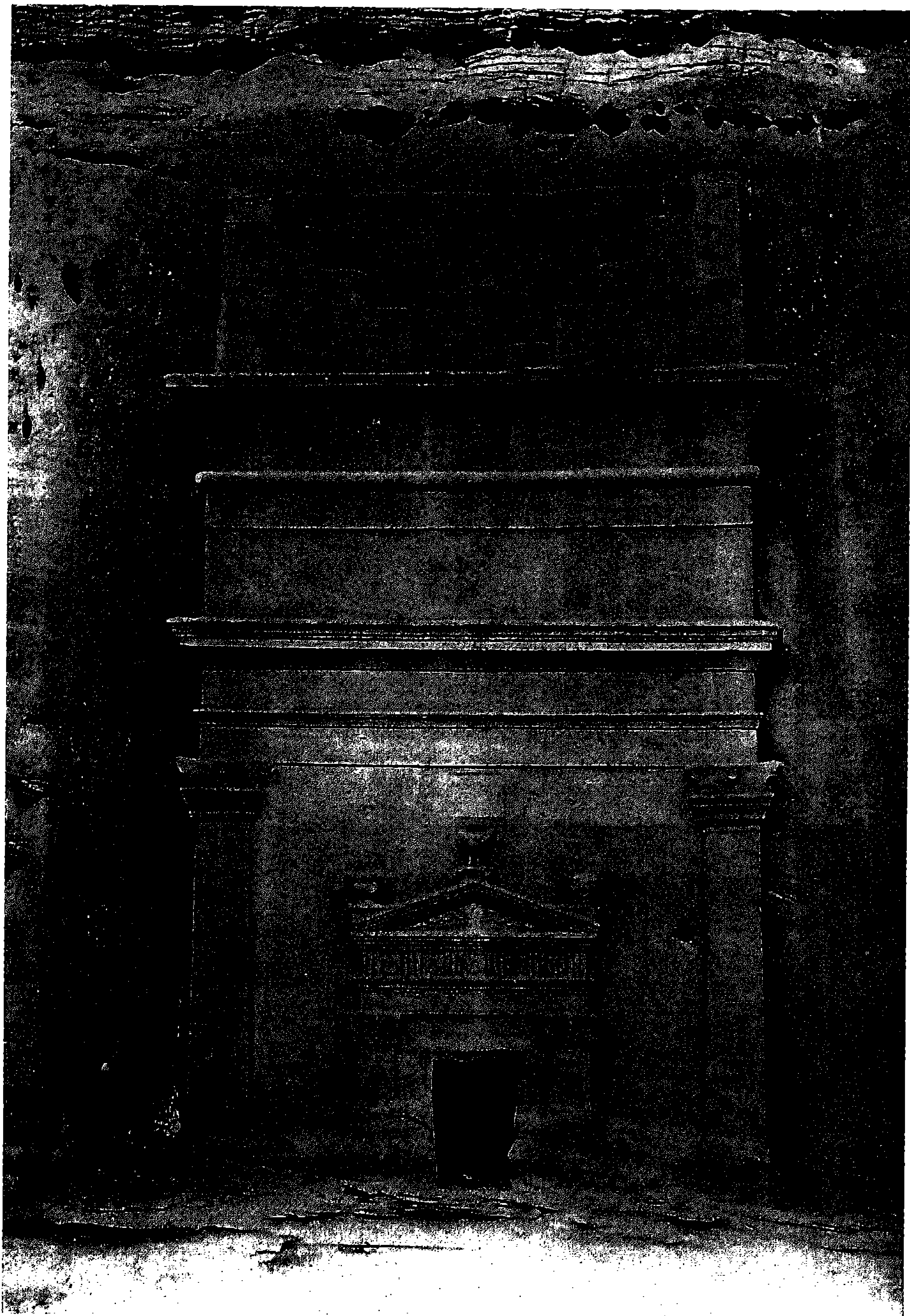
- يلاحظ في هذا النقش خروج حرف من الكلمة الأخيرة خارج الخرطوش. كما نلاحظ أيضاً أن اسم صاحب هذه المقبرة قد ورد في نقش سابق، وإن كان هو نفس الشخص فربما يكون قد توفي قبل إتمام هذه المقبرة ودفن مع أسرته في المقبرة الأخرى.

1. דנה כפרא די עבד עידו הפרכא בר עבידו
2. לה ולילדה ולאחרה ודי יתקברון בכפרא
3. דנה אפתיו אם עידו דנה ברת חביבו
4. ונאתת אנתתה ברת שלי ומן די ינפק
5. בידה שטר מן יד עידו דנה ובפרא דנה
6. עביד בירח אדר שנת עשר וחדה למלכו
7. מלכא מלך נבטו עבדעבדת בר והבאלהי
8. והנאו בר עבידת ואפצא בר חותו פסליא עבדו

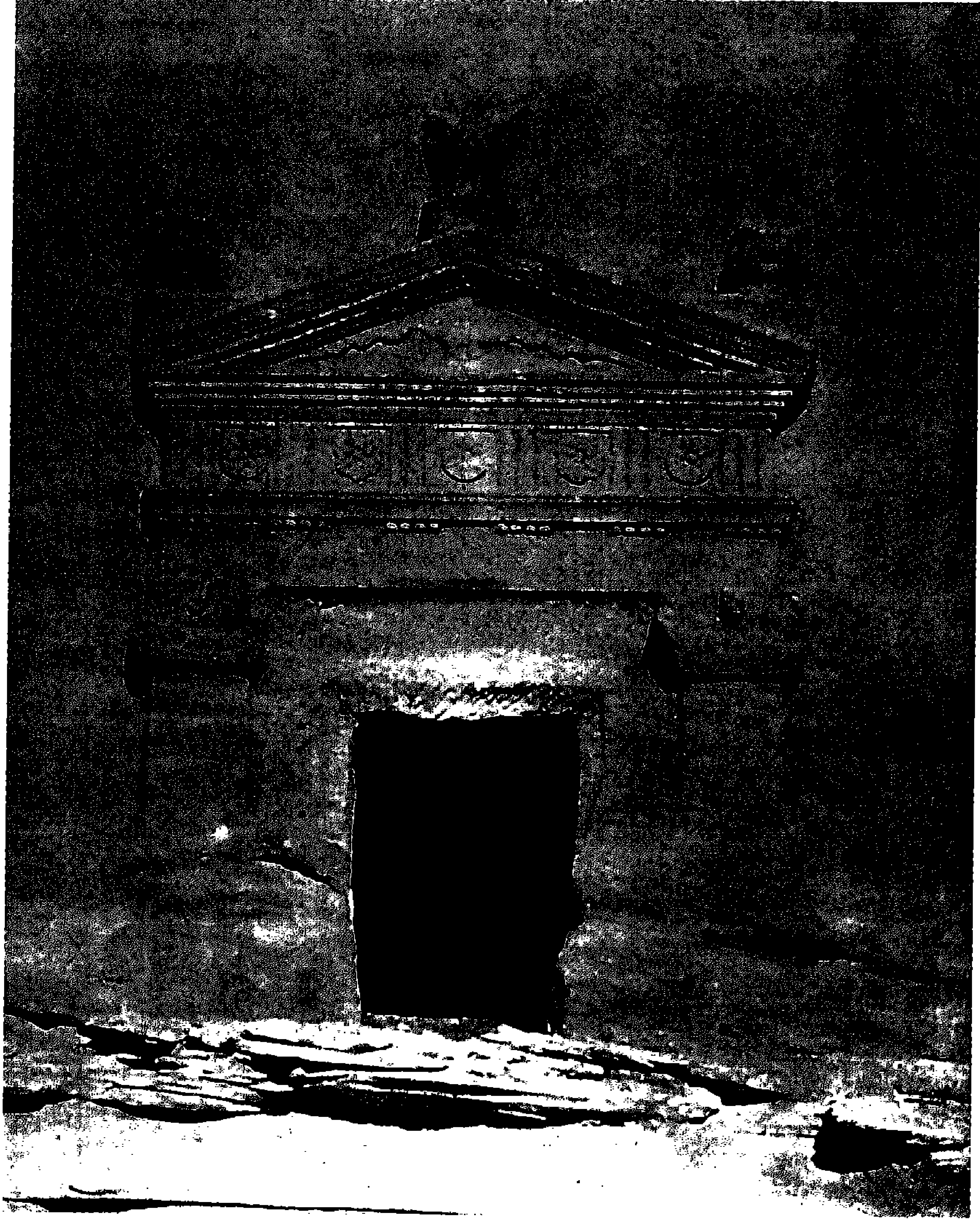
(٢٨) نقش نبطي على واحدة من الواجهات الضخمة لمقابر مداين صالح، ويقع هذا الأثر في الطرف الجنوبي الشرقي من الحجرا، ويحمل النقش اسم بيت الشيخ. والنقش مكتوب بحروف كبيرة ويحتوي على سطر واحد في أعلى الخرطوش ونقرأ في هذا السطر الجملة التالية "من أجل حيان ابن كوزا وذريته"

- يلاحظ في حالة هذا النقش عدم وجود أية آثار لدفن أي أشخاص في هذا المكان، والأرجح هنا أن تكون هذه المقبرة لم يتم استخدامها على الإطلاق. وربما يرجع ذلك إلى أنها كانت مخصصة لشخص توفي قبل استكمالها فدفن في موقع آخر وربما أيضاً تكون المقبرة نفسها لم تستكمل وبالتالي لم تستخدم من جانب صاحبها أو من ذريته.

לחין בר כוזא אחרה



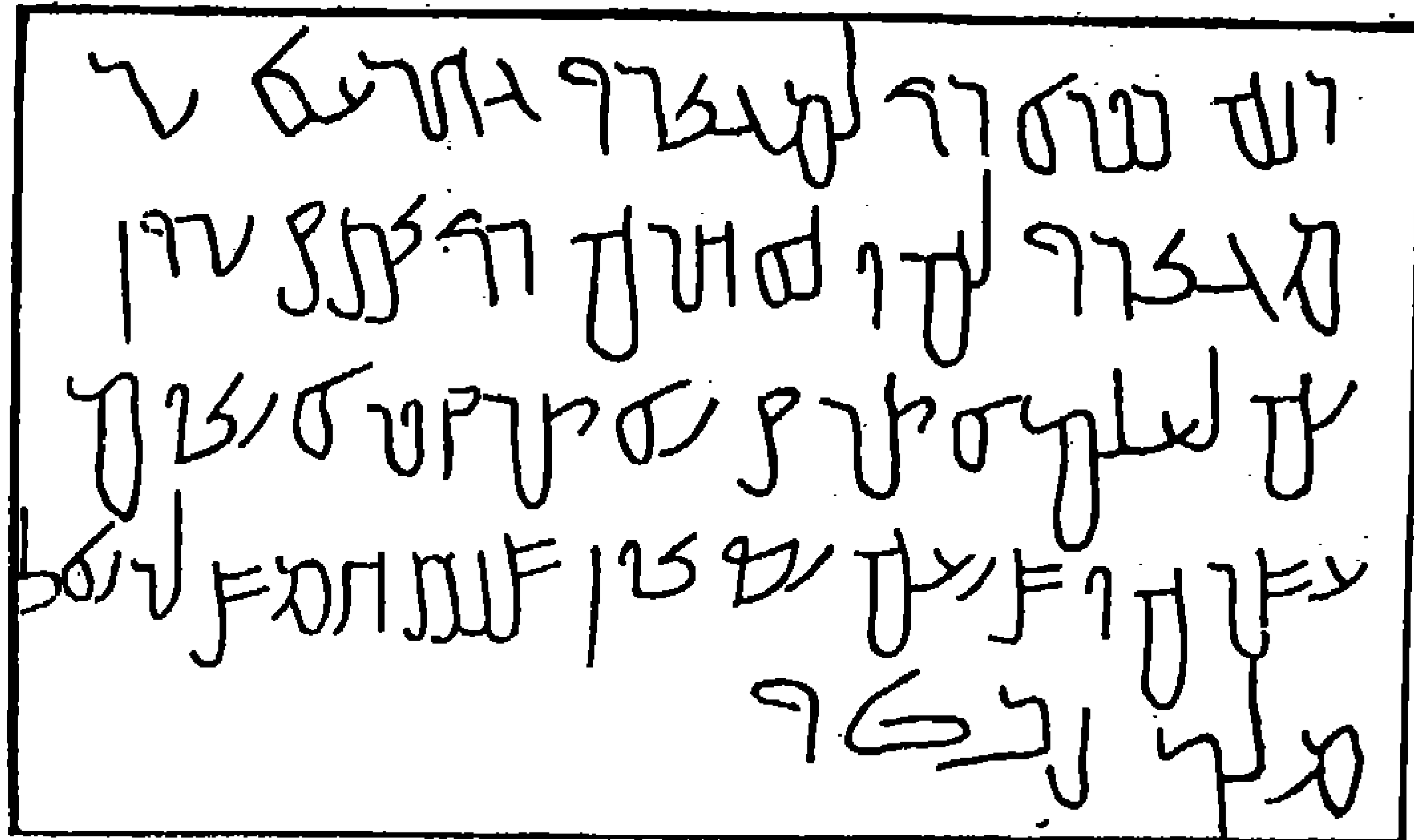
مدائن صالح - النقش رقم (٢٧) - مقبرة بسلم



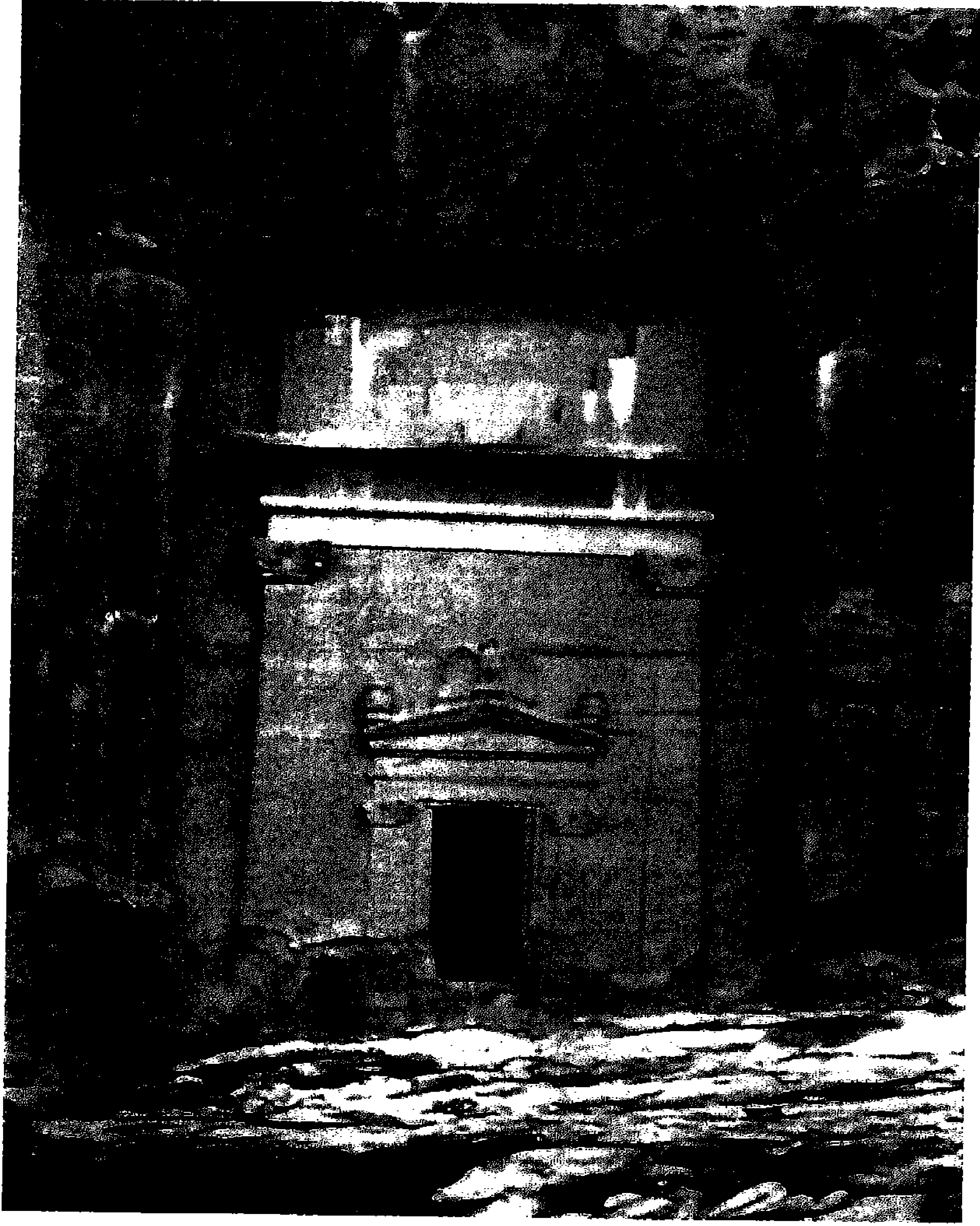
مدائن صالح – النقش رقم (٢٧) – صورة توضح باب المقبرة

(٢٩) نقش نبطى على واجهة إحدى المقابر المنحوتة فى الجدار الجنوبى لأول التلال إلى ناحية الغرب من الفريد. وهذا الأثر يبدو منفصلاً ومنعزلاً وربما كان ذلك يرجع إلى مكتشفيه الأوائل. والنقش هنا فى داخل خرطوش تبلغ مساحته ٦٩ر × ٤٤ر م. والحروف منقوشة بشكل سيئ وإن كانت منتظمة، ويبلغ طول الحروف ٠٥ر م.

- يقول النقش أن صاحب هذه المقبرة هو موجيرو ابن موجيرو، وقد أنشأها لنفسه ولذريته، وبغرض أن يتم دفنهم جميعاً فيها وفقاً لمقتضى الوراثة. وأن إنشاءها قد تم في اليوم السابع عشر من شهر سيوان، في العام الخامس من حكم رابيل ملك الأنباط.
- يلاحظ في هذا النقش وجود اسم جديد يذكر لأول مرة في هذه النقوش وهو يوازي الاسم العربي (مجير)، ويمكن أن يوازي أيضاً الاسم العربي (مجيد) وهو اسم أحد القبائل العربية (ياقوت ٣ - ٨٧٤)
- اسم الشهر المذكور في هذا النقش هو أيضاً من الأسماء التي لم تذكر من قبل في أية نقوش أخرى من الأنباط، وهو معروف من أحد النقوش اليونانية الخاصة بالبتراء.
- اسم الملك المذكور في هذا النقش هو رابيل الثاني الذي اعتلى عرش مملكة الأنباط في عام ٧١ م وهو يمثل آخر الملوك المعروفين من هذه المملكة أو قبل الأخير.



مدائن صالح – نقوش نبطية – النقش رقم (٢٩)



مدائن صالح – النقش رقم (٢٩) – مقبرة بسلم

(٣٠) نقش نبطي على واجهة صغيرة لإحدى المقابر يحتوي على سطر واحد وثلاث كلمات كلها في أعلى الخرطوش. وهي تعطي معنى مكتملاً على الرغم من أن الاحتمال الأكبر أنها تمثل مقدمة لسطور أخرى غير موجودة. والحروف في هذا النقش منتظمة ومتوسط طولها ٠،٠٣٢م.

- وترجمة النقش أو الكلمات الموجودة منه تشير إلى أن هذه المقبرة تخص شـــوكاينات ابنة مورات، من قبيلة مازن، وقد أقامتها لأبنائها وبناتها وكذلك لأبنائهم وإلى الأبد.
- وعلى الرغم من عدم وجود تاريخ لهذا النقش وبالتالي المقبرة، فإن تاريخها يمكــن أن يكون هو نفس تاريخ المقبرة المجاورة لها والتي تحمل نفس الطراز المعماري. وهي ترجع للعام الخامس والعشرين من حكم الملك الحارث ملك الأنباط.

1. דנה כפרא די שכינת ברת מרת מזניתא ולבניה.ולבנתה
2. ווילדהם עד עלם



مدائن صالح – صورة للنقش رقم (٣٠)

(٣١) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر العادية ذات الأبعاد المتوسطة. والنقش محفور داخل خرطوش عريض مساحته ٦٢ر ×٥٠ر م وبعمق يبلـــغ ٠٨ر م وهــذه الخاصيـــة الأخيرة توحي بوجود عدة نقوش متتابعة في نفس المكان. الحروف منتظمة في هذا النقش وهي في حالة جيدة، ويبلغ طولها ٠٣٥ر م.

- يتكون النقش من تسعة سطور ويبدأ بذكر صاحب المقبرة وهو عانامو ابن جوزايـــات وأراسكا ابنة تايمو، وقد أقامها من أجل روماء وكلباء شقيقيهما، وكذلك يخص عانامو ثلث المقبرة وهذه الغرفة، ويخص أراسكا الثلثان من المقـــبرة والغرفـــة، والجـــزء الخاص بها من غرفة الدفن هو الشرقي والغرف الأخرى من هذا الجانب، أما عانامو فيخصه الغرف من الجنوب الشرقي والغرف الأخرى مخصصة لـــلأولاد والورثـــة الشرعيين. وقد تم إنشاء المقبرة في شهر طيبت من عام ٤٥ في حكم الحارث ملـــك الأنباط الذي يحب شعبه. ويذكر السطر الأخير اسم النحات وهو أفتـــاح ابـــن عبـــد عبودات.
- يلاحظ في هذا النقش لأول مرة التقسيم الثلاثي للمقبرة. ووجود الفواصل بين الغـــرف المخصصة للدفن، ويلاحظ أيضاً أن النحات قد نسى أن يكتـــب اســـم الأب – أو أن الاسم محذوف من النقش – وهناك حروف أخرى محذوفة من بعض الكلمات وهـــي عادة نجدها لدى النحاتين في هذه المنطقة.

1. דנה כפרא די עבדו ענמו בר גזיאת וארסכסה
2. ברת תימו אסרתגא על רומא וכלבא
3. אחיה פלענמו תלת כפרא וצריחא דנה
4. ולארסכסה תלתין תרין מן כפרא וצריחא
5. וחלקה מן גוחיא מדנחא וגוחיא
6. ולענמו חלקה מן גוחיא מד(נ)ח ומינא
7. וגוחיא די בה להם ולילדהם אצדק באצדק
8. בי(ר)ח טבת שנת 45 לחרתת מלך נבטו
9. רחם עמה אפתח בר (עבדעבדת) פסלא עבד

(٣٢) نقش نبطي على واجهة مقبرة عادية الجزء الداخلي منها تعرض للتدمـــير الكـــامل حتى أعلى غرفة الدفن. والنقش موجود في داخل خرطوش صغير يبلغ ارتفاعــــه ٣٠ر م

وعرضه ٣٨ر م. الحروف مكتوبة في إهمال نسبي وان كانت في حالة جيدة. ويبلغ طولها في السطر ٣٠ر م.

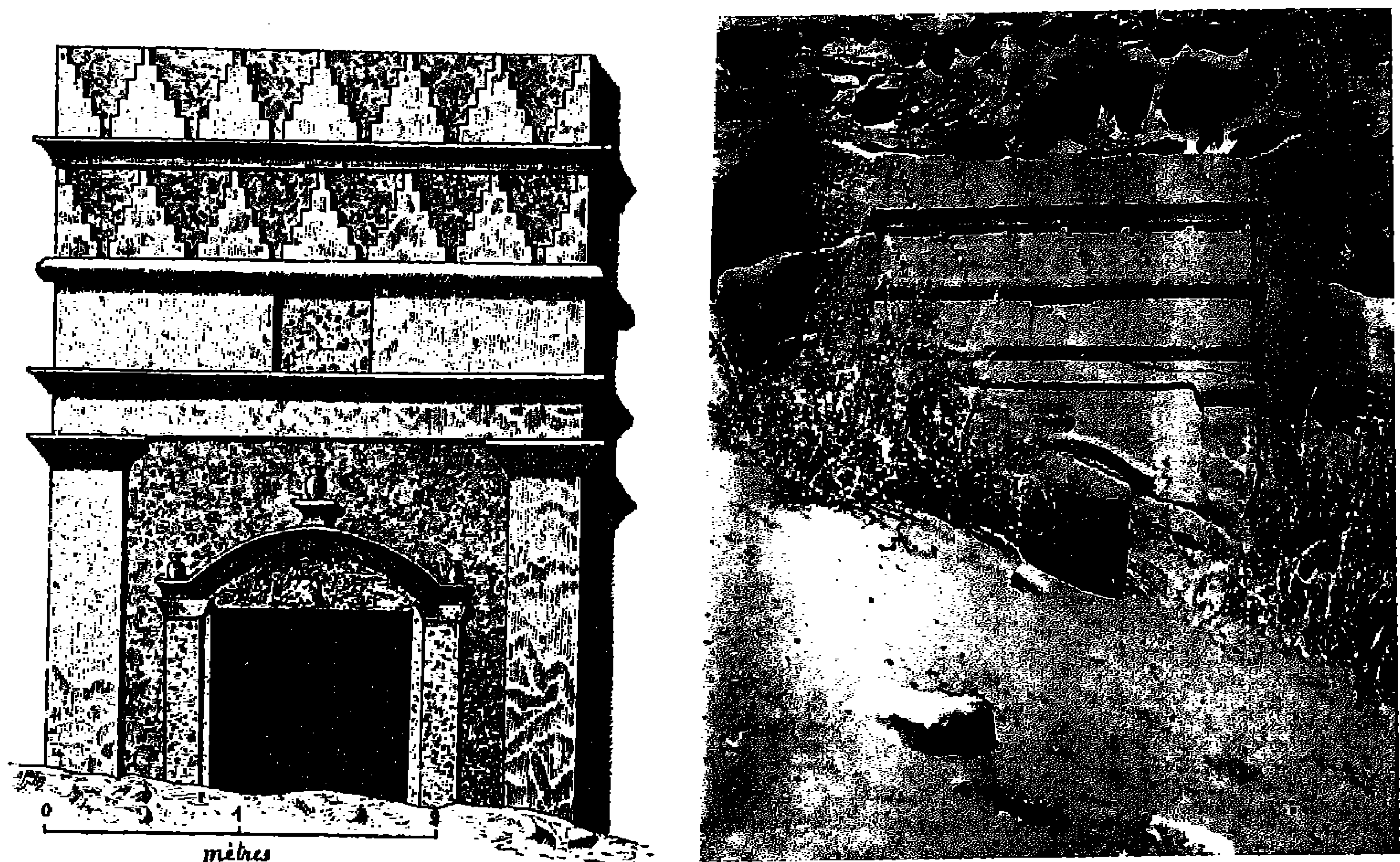
- ينسب النقش المقبرة إلى مونعات ابن أوبيان ويقول بأنه قد أقامها لنفسه ولأبنائه وبناته وذريتهم، وذلك في العام الرابع والعشرين من حكم الملك الحارث ملك الأنباط الـذي يحب شعبه.
- يتشابه الاسم المذكور في هذا النقش لوالد صاحب المقبرة مع الاسم العربي أبى، وهذا الاسم متكرر في العديد من النقوش الأخرى والعلاقة الاشتقاقية بين الاسـم النبطـي والعربي واضحة.

1. דנה כפרא ואונא די
2. עבד מנעת בר אבין לנפשה
3. ובנוהי ובנתה וולדהם בשנת
4. עשרין וארבע לחרתת מלך
5. נבטו רחם עמה

(٣٣) نقش نبطي على واجهة جميلة لإحدى المقابر الصغيرة. والنقش محاط بخرطـوش تبلغ مساحته ٤٥ر × ٣٢ر م، الحروف تبدو في صورة تحمل بعض الإهمـال النسـبي، ويختلف السطران الأول والثاني عن باقي سطور النقش في طريقة حفر الحروف في هـذا النقش.

- ينسب النقش هذه المقبرة إلى هنيات ابنة وهبو، وإنها قد أقامتها لنفسـها ولأولادهـا وذريتهم إلى الأبد. وأنه من غير المسموح لأي شخص بالتصرف في هـذه المقـبرة بالبيع أو بكتابة أية بيانات خلاف البيانات الخاصة بصاحبتها. وأن من يخالف ذلـك يفقد الجزء الخاص به لوريثه الشرعي. ويرجع النقش تاريخ المقبرة إلى العام الحادي والعشرين من حكم الملك ماليكو، ملك الأنباط.
- يتضمن النقش بنداً جديداً لم يرد في النقوش السابقة، وهو ما يقضي بأن أي شخص له الحق في هذه المقبرة وحدثت من جانبه مخالفات أو مخالفة واحدة بخصوص قواعـد استخدامها فإنه يفقد مقابل ذلك حقه في المقبرة وبالتالي التسلسل الوراثي منـه إلـى الورثة الشرعيين التابعين له.

1. דנה כפרא די עבדת הונת ברת והבו לנפשה
2. ולולדה ואחרה עד עלם ולא רשי אנוש די יז(בן)
3. או ומשכן או יכתב אוגרו בכפרא דנה ומ(ן)
4. די יעבד כעיר דנה די יתוב חלקה לאצדקה
5. בשנת עשרין וחדה למלכו מלכא מלך נבטו



مدائن صالح – صورة ورسم للنقش رقم (٣٣)

(٣٤) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الصغيرة المجاورة للمقبرة السابقة والمشابهة لها في الطراز فيما عدا الباب. والنقش موجود في داخل خرطوش تبلغ مساحته ٥٧ر × ٣٨ر م. الحروف منتظمة وفي حالة جيدة، ويبلغ ارتفاعها في داخل السطور ٠٣٥ر م.

- ينسب النقش المقبرة إلى تيما للاهي ابن حاملات، وأنه قد أقامها لنفسه ومنحها لزوجته آماه ابنة جولهومو، وبحيث يكون من حقها طوال فترة هذه المنحة أن تقوم بكل ما ترغب فيه إزاء المقبرة. وتاريخ هذا النقش يرجع إلى ٢٦ آب من العام الخامس والعشرين من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه.
- يحمل هذا النقش تفويضاً من الزوج للزوجة بالتصرف في شأن المقبرة في الفترة التي يكون فيها منحه حق الملكية لها سارياً. وهو شرط يرد في مثل هذه النقوش للمرة الأولى.

1. דנה כפרא די עבד תימאלהי בר
2. חמלת לנפשה ויהב כפרא דנה לאמה
3. אנתתה ברת גלהמו מן זמן שטר
4. מוהבתא די בידה די תעבד בה כל די תצבא
5. מן 26 באב שנת 25 לחרתת מלך נבטו
6. רחם עמה

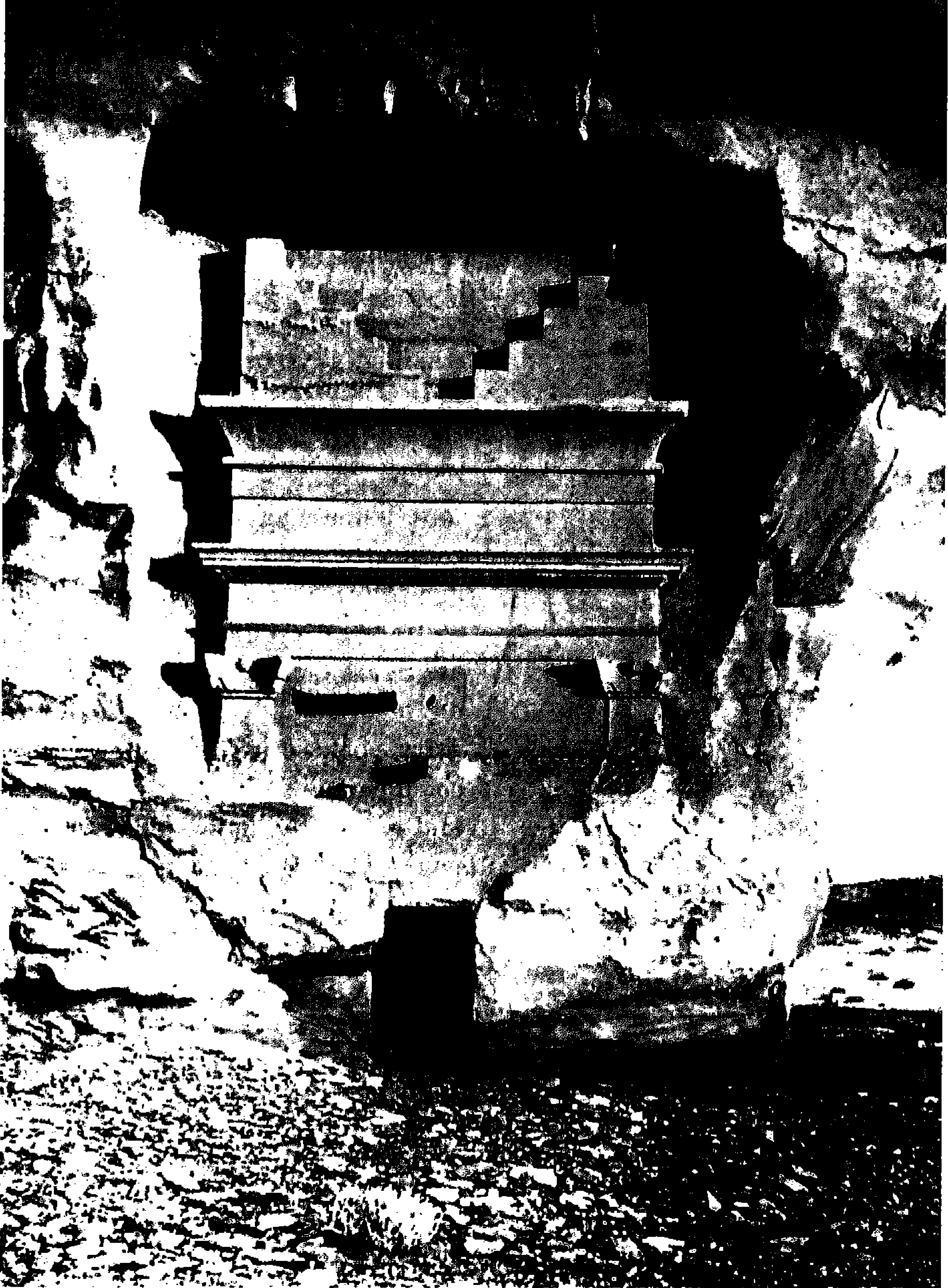
(٣٥) نقش نبطي على واجهة غير مكتملة لإحدى المقابر الجميلة. وهذه المقـــبرة تبــدو منعزلة تماماً في الركن الغربي الأقصى لأحد التلال. ويقع هذا التل على مســـافة ٥٠٠ م من ناحية الجنوب الغربي للمجموعة التالية له. والنقش موجود داخـــل خرطـــوش تبلـــغ مساحته ٥٤ر×٥٠رم. الحروف منتظمة ومحفورة بشكل جيد وفـــي حالـــة جيـــدة وقـــت اكتشافها، والعيب الوحيد في هذا النقش هو ما أصاب إحدى زواياه مـــن الدمـــار بســـبب محاولات اقتحام المقبرة من جانب المكتشفين أو اللصوص. وارتفاع الحروف في الســـطر ٤٠رم.

- ينسب النقش هذه المقبرة إلى شولاي ابن رضواء، وأنه قد قام بتشييدها لنفسه ولأبنائه وذريتهم بالتعاقب الوراثي، وأنه لا يحق لأي شخص دخول هذه المقبرة أو الدفن فيها ما لم يكن من الورثة الشرعيين، ولا يحق لأحد أن يتصرف فيها بالبيع أو العطـــــاء، ومن يخالف ذلك يكون ملزماً بدفع ١٠٠٠ دراخمة مقابل لعنة من الإلـــــه الدوشــــرا. وتاريخ المقبرة يرجع لشهر نيسان في العام ٢٠ من حكم الملك الحارث ملك الأنبـــاط الذي يحب شعبه. وهذا العمل قام به النحات أفتاح.

1. דנה כפרא די עבד שלי בר רצוא
2. לנפשה וולדה ואחרה אצדק באצדק
3. ודי לא יתקבר בכפרא דנה להן אצדק
4. באצדק ודי לא יתזבן ולא יתרהן כפרא
5. דנה ומן די יעבד כעיר די עלא פאיתי
6. עמה לדושרא אלה כראנ(א כסף כלעין אלף)
7. חרתי בירח ניסן שנת 20 .. 4
8. לחרתת מלך נבטו רחם עמה אפתח
9. פסלא עבד

(٣٦) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الضخمة المنعزلة والتي تقع إلى الجنوب مـــن أطلال إحدى المدن القديمة. والنقش في داخل خرطوش مســـاحته ٦٤ر × ٤٢رم. وفـــي حالة جيدة للغاية. الحروف محفورة بعناية فائقة على الرغم من التفـــــاوت البســـيط فـــي أحجامها، ويبلغ متوسط ارتفاع السطر ٤٠ر٠م.

- ينسب النقش هذه المقبرة إلى مالكيون بيتوراء إلى أعلى حونـــــاينو والـــده، ولنفســـه ولأولاده ولذريته بالوراثة. وذلك في شهر نيسان من العام السابع عشر من حكم الملك



مدائن صالح – صورة للمقبرة – النقش رقم (٣٥)

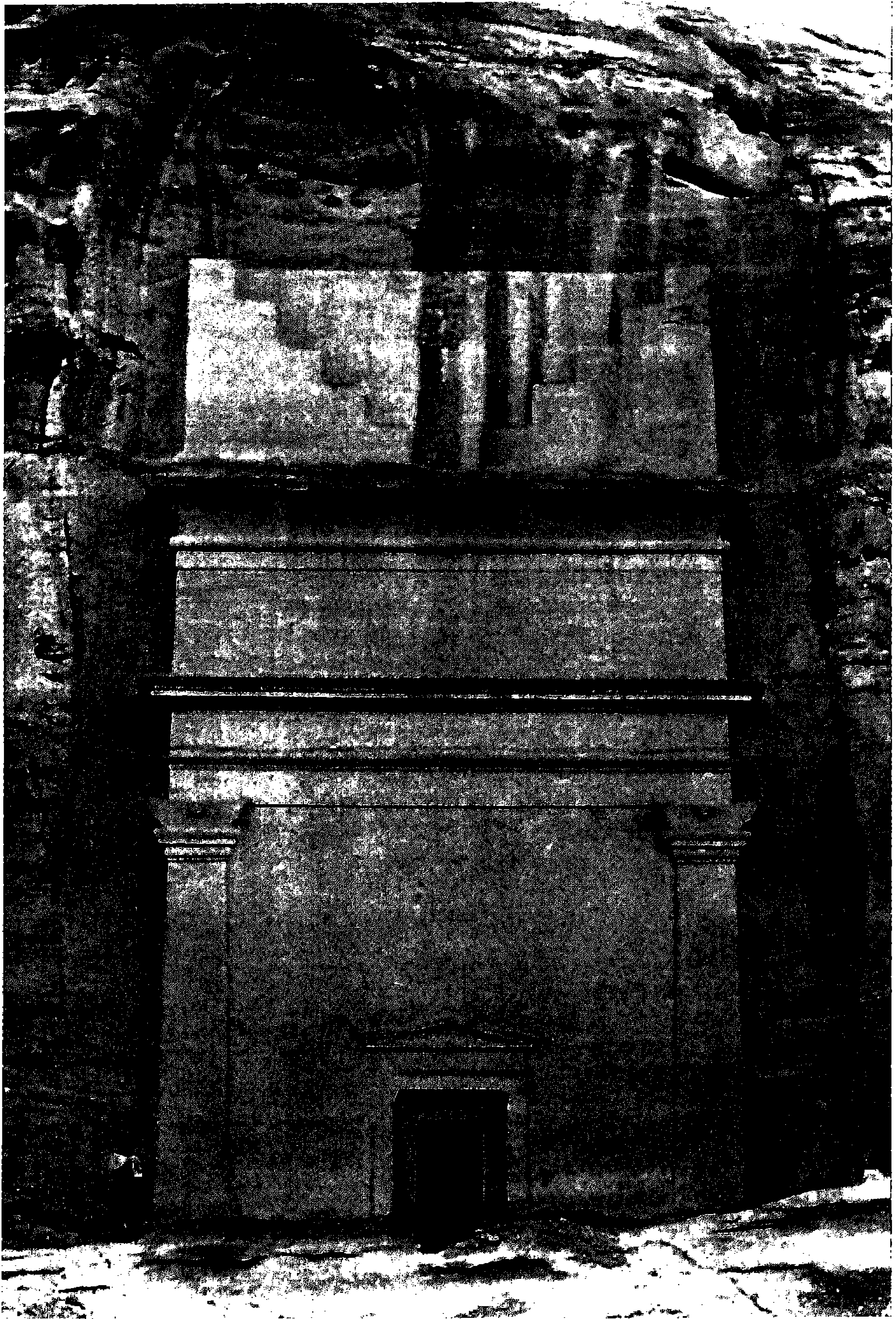
الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه. والنحات القائم بهذا العمل هو عبد الحارث ابن عبد عبودات.

- كلمة (بيتوراء) الموجودة في نهاية السطر الأول يمكن أن تكون لقباً أو اسماً أخـيراً مضافاً لاسم صاحب المقبرة على خلاف المعتاد في مثل هذا النوع من النقوش.
- الكلمة الأولى في السطر الثاني والتي تعني (فوق) يمكن تفسيرها بأن الأب كان قـد توفي من قبل ووضع في هذا الاتجاه ثم جاء مالكيون بعد ذلك واستكمل المكان الـذي كان موجوداً من قبل.

1. דנה כפרא די עבד מלכיון פתורא
2. על חנינו הפסתיון מליכא אבוהי
3. ולנפשה וילדה ואחרה אצדק באצדק בירה ניכן
4. שנת עשר ושבע למראנא חרתת מלך
5. נבטו רחם עמה עבדחרתת פסלא
6. בר עבדעבדת עבד

(٣٧) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الصغيرة التي تبدو في حالة سيئة للغاية. ويقع النقش على ارتفاع ٥٠ر٢م من سطح الأرض ويبدو عليه التأثر بعوامل التعرية، ونـهايات السطور تعرضت للتدمير بصورة واضحة، وكانت في الأصل محفورة بعناية وفي داخـل خرطوش مساحته ٥٧ر × ٣٩٥ر٠م والحروف منتظمة بوضوح ويصـل طولـها إلـى ٠٢٥ر م وبينها مسافات متوازية تبلغ كل منها ٠٣٨ر م.

- السطران الأول والثاني من النقش مكتملان ويشيران إلى أن صاحبي المقـبرة همـا مونعات وهاجيرو، أبناء أميرات، ابن واهابو، وقـد أقاماهـا لنفسـيهما ولأبنائـهما وذريتهم. والسطور الأخرى الناقصة تتحدث عن نصيب كل منهما في المقبرة وكذلك ما يخص ذريتهم، وعن اللعنة التي يصاب بها من يخالف الوصية، والغرامـة التـي يتعين عليه دفعها للملك، ثم يأتي بعد ذلك ذكر العام السادس عشر من حكـم الملـك الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه.



مدائن صالح – صورة للمقبرة – النقش رقم (٣٦)

- على الرغم من عدم اكتمال معظم سطور هذا النقش، فإنه لا يخرج عن الصيغة المعتادة للنقوش المماثلة وإن كان يختلف قليلاً من ناحية تقسيم المقبرة بين طرفيها، والسطر الذي يتضمن التاريخ يبدو مكتملاً فيما يتعلق بالتاريخ فقط ولكنه يخلو من ذكر اسم النحات كما جرت عليه العادة.
- من السطور غير المكتملة التي تحمل معلومات هامة السطور أرقام ٩،٨،٧ حيث أن الغرامة المقررة هنا يبدو أنها تمثل ثلاثة أضعاف الغرامة المعتادة وهي هنا من الحالات الفريدة غير المتكررة في النقوش المماثلة.

1. דנה כפרא די עבדו מנעת והגרו בני עמירת
2. בר יהבו לנפשהם וילדהם ואחרהם ודי הי
3. יהוא באחר מנעת דנה עויה . . . . משכן (?)
4. חלקה מן כפרא הו פאיתי חלקה . . ע . . אחרי (?) . . . . .
5. דא(?) והן יהוא באחר הגרו דא . . . . פאיתי הלקה
6. הג(?) לאחר מנעת דנה ואיתי עמה(?) למן (?) . . . . דושרא (?)
7. אלהא כסף סלעין אלף חרתי . . . .
8. בית כסף סלעין אלף הרתי . . . .
9. סלעין חמש מאה ל. . . . .
10. עשר ושת לחרתת מ(לך) נבטו (רחם עמה) . . . .

(٣٨) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر ذات الحجم المتوسط. والنقش في داخل خرطوش تبلغ مساحته ٦٣ر × ٥٨رم. وارتفاع الكلمات في السطر يصل إلى ٠٣٢رم وهي محفورة بعمق وعناية. والسطور من الثاني إلى السادس بهما كلمات ضائعة. بينما باقي السطور مكتملة.

- تشير الكلمات الباقية من النقش إلى أن صاحب المقبرة شعد اللاهي ابن زابداء وأنه قد قام بتشييدها لحنّا.. ولأبنائهم ولمن يرغب في الدفن فيها ولأبناء حاناه ولماكتان ابن حورو... وأن أحداً لن يكون من حقه منح المقبرة أو تأجيرها. وأن من يخالف ذلك عليه أن يدفع مرتين ثمن ذلك الأثر بالكامل وكذلك ثمن لعنة الآلهة دوشرا ومانوتو، ثم يذكر النقش بعد ذلك التاريخ ناقصاً السنة، وهو في فترة حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه، ثم يعود في السطور العاشر والحادي عشر إلى التحذير من كتابة

أي شيء فوق المقبرة بالمخالفة لمحتوى هذا النقش وإلا كانت لعنة دوشرا وغرامـــة الألف دراخمة. ثم يذكر بعد ذلك اسم النحات وهو أفتاح.

- بالرغم من عدم ذكر – عدم وجود – تاريخ لهذه المقبرة من خلال الكلمات الباقية من النقش، فإن حالة المقبرة وطريقة بنائها وبقايا الحروف والأرقام في هذا النقش تجعـل الاحتمال الأقوى هو أن تكون هذه المقبرة راجعة إلـــى النصـــف الأول مـــن حكـــم الحارث.

1. דנה כפרא די עבד שעדאלהי קנטרינא בר זבדא
2. להנה (?) . . . .(ו)לדהם ולמן יאתא
3. מן . . . .(ית)קבר בה ולילד הנה
4. ולבנתן בר הרו ה. . . . . . רשי אנוש כלה
5. . . . . .לא די ירהן יתה ולא
6. די יזבן יתה זמן (ד)י יעבד כעיר די עלא
7. כתיב באיתי עלוהי בכפל דמי אתרא דנה
8. כלה ולענת דושרא ומנותו בירח ניסן
9. שנת . . להרתת מלך נבטו רחם עמה
10. וכל מן די יתאלף בכפרא דנה או יעיר מן כל די עלא
11. באיתי עמה לדושרא סלעין אלף חרתי אפתח
12. עבד

(٣٩) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الضخمة لا تبعد كثيراً عن المقـــبرة الســـابقة الإشارة إليها في النقش (٣٨)، والنقش فـــي داخـــل خرطـــوش مســـاحته ٩١ر×٥٢رم. والحروف محفورة بشكل جيد ويصل متوسط طولها في السطور الأربعـــة الأولـــى إلـــى ٠٥٥رم ويتناقص هذا الطول في السطور التالية وحتى نهاية النقش حيـــث تصـــل إلـــى ٠٣٥رم.

- يقول النقش أن صاحب المقبرة هو ماطيو ابن يوفرونيوس، وقد أقامها لنفسه وأبنائـــه ولوائيلو زوجته ولأبنائهم وذريتهم. وأن ذلك في شهر نيســـان مـــن العـــام الثـــامن والأربعين من حكم الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه. وأنه لا يحق لأي شـــخص أن يتصرف في هذه المقبرة بالبيع أو الإيجار، وأن القائم ببنائها هو أفتاح ابـــن عبـــد عبودات.

- الاسم الموجود في بداية النقش يتفق مع الإسم العربى (مطىّ) واسم الأب المضاف له يمثل اسماً يونانياً (يوفرونيوس).والأوضاع فى هذه المنطقة لاتجعلـــه أمـــراً مثـــيراً للدهشة أن يكون للإبن اسم عربى والأب اسم يونانى أو متأغرق.
- يبدو من النقش أن ماطيو هذا كان له أبناء من زواج آخر خلاف زواجه من وائيلـــو المذكورة في النقش، وربما كان أبناء ماطيو المذكورون في بداية النقش هم أبناؤه من الزوجة الأخرى والأولى والتي ربما تكون قد توفيت أو قام هو بتطليقـــها حيـــث أن النقش لا يشير إليها.

1. דנה כפרא די עבד מטיו אפרתגא
2. בר אופרנס הפרכא לנפשה וילדה ויאלו
3. אנתתה ובניהם בירח ניסן שנת ארבעין
4. ותמונא לחרתת מלך נבטו רחם
5. עמה ולא רשי אנוש די יזבן או ירהן או יוגר
6. כפרא דנה
7. לעלם (אפתה) בר עבדעבדת עבד

(٤٠) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر ذات الحجم المتوسط، ويصل ارتفاع النقـــش إلى ٧٥ر٣م عن سطح الأرض، ويوجد النقش في داخل خرطـــوش مســـاحته ٥٤٥،ر× ٣٨ر م وهو في حالة سيئة للغاية، والحروف محفورة بطريقة سيئة وبدون عناية أو عمق، ويصل ارتفاعها إلى ٠٣٥رم.

- الكلمات الباقية من النقش نفهم منها أن المقبرة تخص شاباي ابن موكيمو ونوبابيكـــات ابنة شخص غير موجود اسمه، وانهما خصصاها لأبنائهما والورثة الشرعيين ولكـــل من يصير له الحق فيها من جانب صاحبيها وبمقتضى صك مكتوب وشـــرعي، وأن المقبرة أيضاً من حق تيلم ابنة مالىء وحارسها (الوصي عليها) ســـابائي، وأن لـــها النصف، والنصف الآخر لنوبياكات، ويخص شاباي غرفة الدفن، وتاريخ النقش يرجع للعام الثامن والأربعين من حكم الملك الحارث ملك الأنباط الذي يحب شعبه.
- من خلال الكلمات المتاحة في هذا النقش نفهم أن المقبرة كانت تنقسم إلـــى جزئيـــن أساسين، أحدهما يخص شاباي والآخر يخص نوبايكات. ونفهم أيضاً أن تاريخ المقبرة يقع في العام الثامن والأربعين من حكم الحارث.

1. דנה קברא די לשבי בר מקימו ולנביקת ברת
2. . . . . . .(ולי)לדהם ואצדקהם וכל מן ינפק בידה מן
3. שבי ונביקת כתב תקף . . . .
4. יתקבר בה ודי תתקבר תלם בנת מלא ויחפן שבי
5. פלגא(?) ולנב(י)קת פלגא אחרנא לשבי די עלא גוחא די(?)
6. בה בלחוד(?) בשנת ארבעין ותמנא לחרתת מלך נבטו
7. רחם עמה

(٤١) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الصغيرة ويقع إلى أعلى الباب. ولا يوجد لـه خرطوش ولكنه مكتوب على قطعة صخرية يبدو أنها كانت مخصصة لكتابته. ومساحتها ٥٢ر × ٤٢رم. والحروف يصل طولها إلى ٢٢ ٠رم فقط ومعظمها مكتوب بصورة سيئة وبعضها تعرض للتدمير.

- يقول النقش أن هذه المقبرة تخص هنيات ابنة عبد عبودات وإنها خصصتها لنفسها ولأبنائها وذريتهم، ولكل من بيده حق في المقبرة منحته هي له بيدها للدفن في هذه المقبرة، حيث أن هذه المقبرة كانت خاصة بأبيها عبد عبودات والمذكور أعلاه، وخلال فترة حياته كتب هينات هذه وعبد عبودات ابن ماليكات شقيقة معنواه، أم عبد عبودات، والرهينات شقيق راسي وماليكو، ابن رابيبل، ووريث الشرعي في هذه المقبرة وفقاً لمنحة عبد عبودات. وأنه لا يحق لأي شخص أن يتصرف في المقبرة بالبيع أو التأجير أو إضافة أية بيانات مكتوبة خلاف هذا النقش، وأن من يفعل هذا يتعرض للعنة دوشرا ومانوتو ويدفع الغرامة المقررة من ألف دراخمة للحارث ولسيدنا رابيل ملك الأنباط. وتاريخ النقش يرجع إلى شهر آيار في العام الثاني من حكم رابيل ملك الأنباط.

- تشابك الأسماء في هذا النقش يرجع إلى أن المقبرة كانت في الأصل تخص والد صاحبة النقش، وأضافت الابنة بعد ذلك العديد ممن لهم الحق في المقبرة في الوصية التي وضعتها في هذا النقش.

1. דנה כפרא די לקינת ברת עבדעבדת לנפשה
2. וילדה ואחרה ולמן די ינפק בידה מן יד הינת
3. דא כתב או תקף די יתקבר בכפרא הו די
4. כפרא דנה הוה לעבדעבדת אבוהי (ע)לא כתיב
5. על יומוהי(?) כתב בקברת הינת דא ועבדעבדת בר
6. מליכת אחת מענוה אם עבדעבדת אב הינת דא
7. אח רסי(?) ומלכו אסיתגא בר רביבאל אסרתגא
8. ואצדקה נתרא(?) בכפרא דנה בצדקת עבדעבדת א. . .
9. ולא יהוה אנוש רשי די יזבן כפרא דנה או יאגר
10. יתה או יתאלף בכפרא דנה כתב כלה ומן יעבד
11. כעיר די עלא די איתי עלוהי חטיאה
12. לדושרא ומנותו כסף סלעין אלף הד חיתי
13. ולמראנא רבאל מלך נבטו כות בירח איר שנת
14. תרתין לרבאל מלך נבטו

(٤٢) نقش نبطي على واجهة صغيرة جداً لإحدى المقابر التي لم يكتمل الجزء الداخلي منها بأكمله. ويحتل النقش النصف الأول فقط من خرطوش مساحته ٣٧ر×٣١رم وربما تكون المساحة الباقية تخص قطعة مفترضة اكثر طولاً من هذا النقش. والحروف في النقش منتظمة وفي حالة جيدة نسبياً ويصل طولها إلى ٠٣٧رم.

- يتضمن هذا النقش ثلاثة سطور تقول أن هذه المقبرة تخص عامات ابنة كامولات وقد خصصتها لنفسها ولأبنائها وذريتهم، ويرجع تاريخها إلى العام الرابع من حكم رابيل ملك الأنباط.

1. דנה כפרא די לעמת ברת כמולת
2. לנפשה ולולדה ואחרה בשנת
3. ארבע לרבאל מלך נבטו

(٤٣) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الجميلة، وهي واحدة من اكبر المقابر حجماً وأفضلها بناءً، والباب الخاص بهذه المقبرة به زخرفة على شكل مثلث في قمته النسر وعلى الطرفين آنية (فازه). ويرتفع النقش عن مستوى الأرض بمقدار ٥ إلى ٦ أمتار، ويوجد في داخل خرطوش مساحته ٥٣ر × ٤٩ر ٠م، وينقسم إلى خطوط أو سطور من ٠٤٥ر٠م إلى ٠٥ر٠م. وهو مكتوب بشكل جيد وحالته معقولة باستثناء بعض الكلمات.

- يقول النقش أن هذه المقبرة تخص حلفو ابن كوسناتان، وأنه أقامها لنفسه ولشـــاعيدو ابنه ولأخوته ولمن سوف يولد لخالافو هذا من الأبناء الذكور ولأبنائهم وذريتهم عــن طريق الوراثة. وأن من يدفن في هذه المقبرة سيتلون شاعيدو ومانوعات وصانـــامو وريبامات وأوميات وشاليمات بنات خالافو. وأنه لا يسمح لأي شخص مـــن هــؤلاء وغيرهم ببيع هذه المقبرة أو كتابة ما يفيد إهداءها أو أي تصرف آخر بشـــأنها، ولا يسمح أيضاً لأي شخص من المذكورين أن يكتبها لامرأته أو بناته أو حميـــه. ومـــن يتصرف على نحو مخالف سيكون عرضة للعنة دوشرا وتكون عليـــه غرامـــة ٥٠٠ دراخمة وأن تاريخ النقش في شهر نيسان من العام الأربعين لحكـــم الحـــارث ملـــك الأنباط الذي يحب شعبه. وقد أتم هذا العمل من النحاتين كـــل مـــن رومـــاء وعبـــد عبودات.
- يرجع قصر الحق في المقبرة على الذكور في هذا النقش إلى كثرة عدد بنات خـالافو، وهو يسمح فقط بأن تدفن البنات الخمس في المقبرة أما ذريتهن فإنها لابد أن تكـــون كثيرة العدد بحيث لا تسعهم المقبرة بالإضافة إلى عدم رغبة خـــالافو فـــي إدخـــال عناصر أجنبية عنه – بصلة الدم – في هذه المقبرة.

1. דנה כפרא די עבד חלפו בר קסנתן לנפשה ולשעידו ברה
2. ואחוהי מה די יתילד לחלפו דנה מן דכרין ולבניהם ואחרהם
3. אצדק באצדק עד עלם ודי יתקברון בכפרא דנה ילדירה(?) שעידו דנה
4. ומנועת וצנעמו(?) ורובמת ואמית ושלימת בנת חלפו דנה ולא רשו
5. אנוש כלה מן שעידו ואחוהי דכרין ובניהם ואחרהם די יזבן כפרא דנה
6. או יכתב מוהבה או עירה לאנוש כלה בלעד הן יכתב חד מנהם לאנתתה
7. או לבנתה או לנשיב או לחתן כתב למקבר בלחד ומן יעבד כעיר דנה פאיתי
8. עמה קנם לדושרא אלה מראנא כסף סלעין חמש מאה חרתי
9. ולמראנא כזת כנסחת דנה יהיב (ב)בית קישה בירח ניסן שנת ארבעין
10. לחרתת מלך נבטו רחם עמה רומא ועבדעבדת פסלוא

(٤٤) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الصغيرة. ويوجد في داخل خرطوش مساحته ٤٥ر٠×٣٢ر٠م. الحروف محفورة بشكل جيد ولكنها غير منتظمة نسبياً. الارتفاع المتوسط للحروف ٣٧ر٠م والنقش في حالة جيدة ماعدا السطر الأخير.

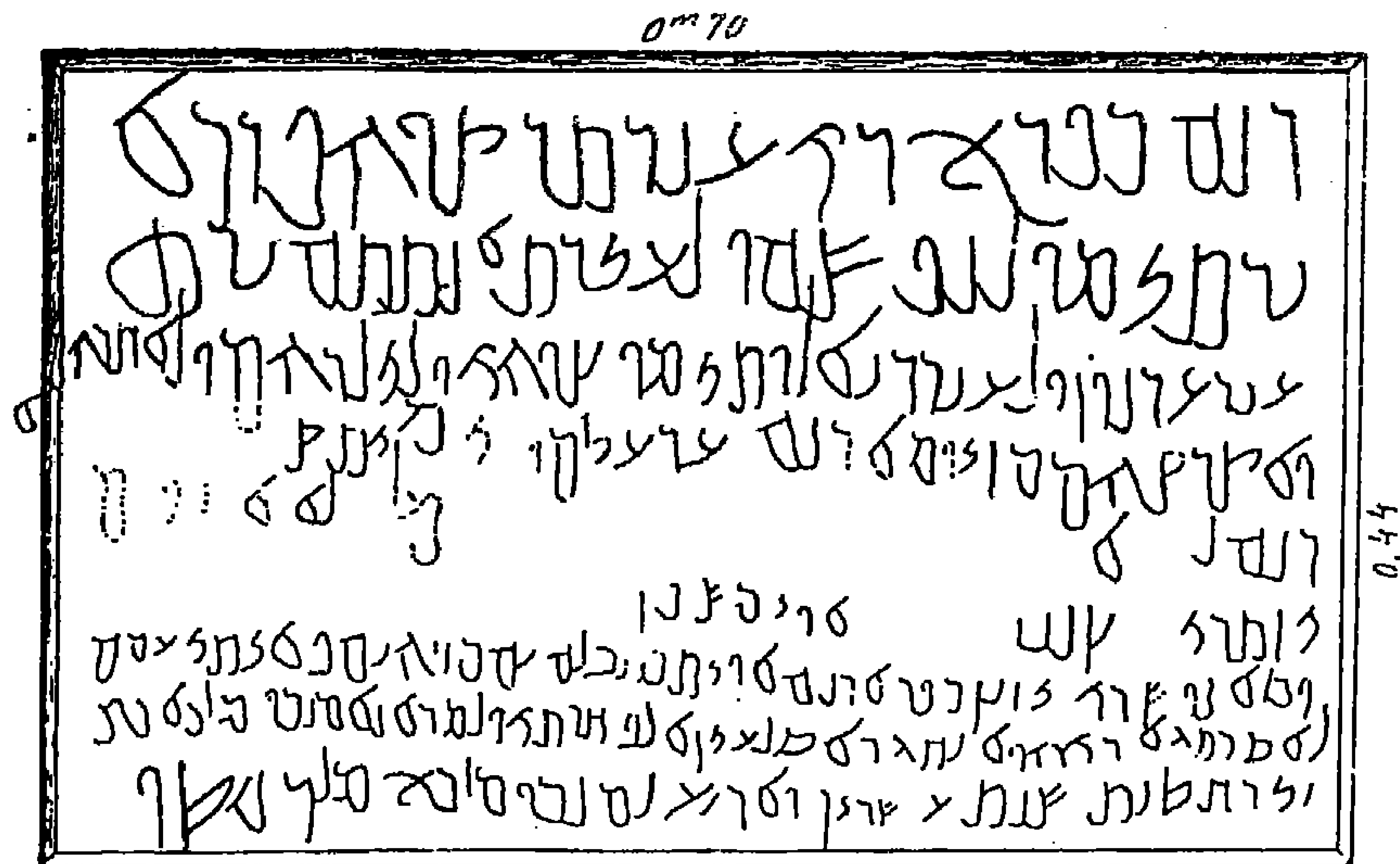
- يتكون النقش من خمسة أسطر، ويقول بأن هذه المقبرة تخص كلاً من عبداء وعليئل وجادو أبناء عفتو، وأنها تخص أيضاً آهاكلي الأم، ابنة حيميان، وتخص إلى جانب ذلك كل من يكون بيده صك مكتوب للدفن فيها، لهم ولذريتهم وتاريخها العام السابع عشر من حكم ماليكو.

1. דנה כפרא די לעבדא ועליאל וגדו
2. בני עפתו ולאהכלי אמהם
3. ברת חמין ולמן ינפק בידה
4. כתב תקף די יתקבר
5. להם ולאחרהם בשנת 17 למלכו

(٤٥) نقش نبطي على واجهة إحدى المقابر الضخمة ذات المدخل الذي يزدان بأشكال أبي الهول. والنقش محفور على ارتفاع ٧ أمتار من مستوى السطح (الأرض) ويوجد في داخل خرطوش مساحته ٧٠ر٠ × ٤٤ر٠ م. السطور الأول ذات حروف كبيرة يقل حجمها تدريجياً حتى النهاية. السطران الخامس والسادس لا توجد بهما سوى ثلاث كلمات، وهناك كلمات ناقصة في بعض السطور الأخرى.

- من خلال السطور السليمة في هذا النقش نعرف أن هذه المقبرة قام بإنشائها تارصو ابن تايمو وخصصها لنفسه ولزوجته عايدات ابنة عبد عدنون، ولعبد رابيل وتايمو، وأبنائه، ولأبنائهم وذريتهم وللورثة الشرعيين من الآن وإلى الأبد ... وأن من يقوم بمخالفة شروط المقبرة أو بيعها أو كتابة أي شيء مخالف عليها تكون عليه غرامة الألف دراخمة للسيد الملك ماليكو. وأن تاريخ هذا النقش هو شهر طبت (طوبة) في العام الرابع والعشرين من حكم الملك ماليكو ملك الأنباط.
- الاسم الموجود في هذا النقش يمثل اسماً جديداً لم يرد في النقوش الأخرى، والاسم النسائي (عايدات) يرتبط بالاسم العربي عايدة (كتاب الأغاني / ٤ – ١٦٨) واسم

عدنون أيضاً يرتبط باسم عدنان الجد الأول للقبائل العربية المعروفة في الجنوب، واسم عبد رابيل يمكن تفسيره أيضاً بوجود هذا الشخص المشار إليه في خدمة شخص منحه هذا اللقب.



مدائن صالح – نقوش نبطية – النقش رقم (٤٥)

(٤٦) في مضيق الديوان وفي مواجهة هذا الأثر، على جدار صخري من ناحية اليسار عند مدخل جبل أيثاب توجد أربعة أسطر محفورة في حروف صغيرة وبعناية فائقة، وارتفاع الحرف يبلغ ٠،٣٢رم وهي محفورة إلى أعلى منتصف الصخرة حيث توجد على لوحة صخرية من التي تستخدم في الأغراض التذكارية.

- والسطور الأربعة من هذه اللوحة تقول أن من قام بعملها هو شاكوحو بن توراء وذلك من أجل أعراء والذي في (إلى) بوصرا، رب رابائيل، وذلك في شهر نيسان في العام الأول من حكم الملك ماليكو.
- هذا النصب التذكاري يمثل أثرا دينيا له العديد من الطرز المختلفة. والاسم الوارد في هذا النقش بوصفه والد المهدى (توراء) يعادل الاسم العربي "ثور"، وهو اسم شائع مثلما كان شائعا في هذه المناطق تسمية الأشخاص بأسماء الحيوانات وخاصة الحيوانات التي ترمز للقوة والشجاعة، وكان ذلك الوضع شائعا لدى البدو في حوران ومواب.

- الإله المذكور في النقش والمهدى إليه يمثل أحد الآلهة المحلية في هذه المنطقة بالذات.
- اسم "أعراء" موجود في نص يوناني بنفس هذا النطق وهو ما يؤكد صحة نقل الاسم عن لغة النقش النبطي.
- الملك المذكور في النقش يفترض أنه الملك ماليكو الثالث الذي خلف رابيل الثاني.

1. דנה מסגדא די עבד
2. שכיחו בר תירא לאערא
3. די בבצרא אלה רבאל בירח
4. ניסן שנת חדה לרבאל מלכא

(٤٧) نقش نبطي على قطعة صخرية محفورة في شكل زاوية تجاه الجنوب من أولى مقابر سلسلة قصر النبت. ويتكون النقش من حروف كبيرة واضحة ومقروءة ويتضمن المعنى التالي: تذكار لمعاويو.

דכיר מעייו

(٤٨) نقش نبطي إلى اليمين قليلاً وإلى أسفل النقش السابق، وإن كان لا يبدو أن هناك ارتباطاً بينهما. الحروف أصغر من النقش السابق ويبدو عليها الإهمال. ولا يتضمن النقش أية كلمات مقروءة سوى تكرار الاسم السابق ذكره في النقش السابق.

מעייו ב(?)ר..

(٤٩) نقش نبطي على جدار صخري في الجبل، إلى أعلى صخرة ونحو الجنوب من النقش السابق. الحروف كبيرة ومقروءة بسهولة. ويقول النقش أن رابيباء قد صار مالكاً لهذه الناحية، من أجل القائد العسكري.

- المنطقة الموجود بها النقش لا توحي بأهمية الملكية ولا تضفي عليها قداسة من أي نوع فهي منطقة مقابر. والتفسير المنطقي لهذا النقش أن يكون الشخص المذكور قد حصل على قطعة الأرض المشار إليها من جانب القائد العسكري حتى يبني لنفسه فيها إحدى المقابر.

1. רביבא לאסרתגא אחד אתרא
2. דנה

(٥٠) نقش نبطي على تل قصر النبت، على جدار صخري يحمل سطراً واحداً: الكلمة الأولى في النقش تمثل في لغة الأنباط ما يوازي أداة التعجب وأداة الإيجاب في اللغة العربية (بلى) والكلمة الثانية تمثل التحية بمعنى (سلاماً) والكلمة الثالثة تمثل اسم شخص هو حنظالان.

בלי שלם חנטלן

(٥١) نقش نبطي مجاور للنقش السابق، ويحمل أيضاً سطراً واحداً. الكلمة الأولى في النقش حرف جر واسم شخص ويمكن ترجمتها (إلى راميل). الكلمة الثانية والثالثة (ابن حيوّ) والكلمة الأخيرة تحية (سلاماً!).

לרמאל בר חיו שלם

(٥٢) نقش نبطي في نفس اتجاه النقش السابق ويحمل كلمة واحدة هي نفس الاسم للشخص المذكور في النقش السابق وفي نفس حالة الإعراب.

לחנטלן

(٥٣) نقش نبطي إلى جانب النقش السابق. يتكون أيضاً من سطر واحد. التحية هي نفس الموجودة في النقش (٥١) والاسم مختلف (راميل).

רמאל שלם

(٥٤) نقش نبطي إلى يمين المقبرة فوق الصخرة، حروفه كبيرة ويتكون من سطر واحد. ولا يتضمن هذا السطر سوى اسم شخص هو سالم ابن عاودام. ويبدو هذا النقش ناقصاً في بدايته ونهايته، ففي البداية يفترض وجود كلمة تقديم للنقش مثل (من) أو (إلى)، وفي النهاية يفترض وجود الكلمة التقليدية للتحية في مثل هذه النقوش (سلاماً).

שלם בר עודם נותי (؟)

(٥٥) نقش نبطي آخر إلى الجنوب، ويقع على جدار او لوحة صخرية من التل، ولا يتضمن سوى كلمتين، إحداهما التحية والثانية اسم شخص: "باخشوشو".

שלם בחשושו

(٥٦) نقش نبطي يقع إلى جوار النقش السابق، ويتضمن النقش سطراً واحداً.

- يبدأ هذا السطر بالكلمة التي تفيد الإيجاب وعلامة التعجب (بلى – نعم)، ثم يقـــول بأن هذا يمثل تذكاراً "لحورو" ابن "أوسو"، ثم كلمة أخرى تفيـــد الـــوداع الطيـــب أو الذكرى الطيبة.
- الأسماء في هذا النقش وردت من قبل في النقوش النبطية المماثلة في مناطق مدايـــن صالح.

בלי דכיר חורו בר אושו בטב

(٥٧) نقش نبطي يقع إلى جوار النقش السابق، يتضمن النقش سطراً واحداً وهـــو مثـــل النقوش السابقة حيث يبدأ بالقول بأن هذا تذكار "لحيو" ابن "شعد اللاهي". والاسم الأخـــير من الأسماء الشائعة في مثل هذه النقوش.

דכיר חיו בר שעדאלהי

(٥٨) نقش نبطي يقع إلى جوار النقش السابق، ولا يتضمن أيضاً سوى سطراً واحداً. وهو يبدأ بالتحية (سلاماً) ثم يذكر اسم " تايمو" خادم " خالفو" والكلمة التي تعني (خادم) في هذا النقش توازى فى اللغة العربية كلمة (عبد) أو كلمة (غلام) ويوجد مثيل لها فـــى نقـــوش "بالميرا" فى صيغة المؤنث.

שלם תימו עלים חלפו

(٥٩) نقش نبطي يقع إلى الشمال من المقبرة الأخيرة من هذه المجموعة، وعلـــى نفـــس اللوحة أو الجدار الصخرى من الجبل، وهو ضمن عدة نقوش أخرى فى نفس هذا المكان. ويقول هذا النقش فى سطر واحد أن "شاعدو" ابن "تاشبو" قد آلت إليه ملكية هذا المكان.

- وهذا النقش الذي يمثل ما يمكن وصفه "بصك الملكية المعلن" سبق أن ورد في مثـــل هذه المناطق وبهذه الصورة في مداين صالح. والاسم الشخصي هنا يـــوازي الاســـم العربي (سعد)، والاسم الثاني جديد على هذه النقوش.

שעדו בר תשבו (א)חד אתרא דנה

(٦٠) نقش نبطي يتكون من سطر واحد، وهو في حالة سيئة للغاية. ويتضمن في البداية التحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر اسم "كافيرو" ابن .... والاسم المذكور في هذا النقش جديد أيضاً في هذا السياق، وربما يتفق مع اسم آخر من أحد الأفعال العربية (كفر) أو من أصل عبري بمعنى (شبل).

שלם כפירו בר ...

(٦١) نقش نبطي يقع إلى جوار النقش السابق، ويتكون أيضاً من سطر واحد. ويقول هذا السطر أن "عبد عبودات" ابن "أربياس" قد آلت له ملكية هذا المكان. الاسم الوارد في هذا النقش ورد في نقوش سابقة لذات هذه المنطقة. وربما يكون هذا النقش يفيد ملكية نفس الشخص لهذه القطعة بالإضافة لأخرى لم يكن قد أقام فيها مقبرته بعد.

עבדעבדת בר אריבס אחד אתרא דנה

(٦٢) نقش نبطي عند مضيق جبل إيكيب في مواجهة تل قصر النبت على أحد المرتفعات الصعبة إلى جانب الديوان. والنقش محفور على جدار صخري شرقي الجبل، يرتفع عن سطح الأرض ٥ إلى ٦ أمتار. السطور الأولى من النقش أكبر في الحجم من التالية لها.

- يبدأ النقش بكلمة الإيجاب (نعم – بلى) ثم دعوة لتذكر تذكار "عبد عبودات" و "عايدو" و "يوديموس" والآخرين ممن يستحقون، في أيام "ماليكو" وباعفات الضباط أو القادة العسكريين، الذين منحوا هذا المكان لسيد المنزل.. (كما) قال سيد المنزل (نعم).
- الاسم الأول في هذا النقش من الأسماء المعروفة والمتكررة في النقوش المماثلة، و"عايدو" يبدو أنه كان من المعروفين في هذه المدينة. والاسم الثالث اسم غريب عن الأنباط ويبدو اسما يونانيا. والصفة التي تصاحبهم في هذا النقش توازي في اللغة العربية (أفضل – خير – خيرة الرجال).
- الاسمان الآخران يبدو أنهما كانا من القادة العسكريين اللذين يتولون الأمور بالمشاركة والاسم الثاني منهما قريب من العربي (بعيث). وأن يتولى شخصان القيادة العسكرية هو أمر جديد على تاريخ هذه المنطقة ولم يرد له ذكر من قبل. ويبدو من السياق أن تاريخ هذا النقش يرجع للحكم العسكري وليس لحكم الملوك.

- كلمة "سيد المنزل" جديدة وغريبة وتبدو في نوع من القداسة والتفسير الديني الذي يجعل منها وصفاً لأحد الآلهة أو لمعبد خاص بالإله، وإن كان من الصعب هنا تحديد المعبد أو الإله المقصود من سياق هذا النقش.

1. לא דכירין עבדעבדת ועידו ואודיכם ושארית היריהם על ימי
2. מלכי ובעפת אסרתגיא די חדתו אתרא דנה למרא ביתא
3. אמר (?). . .   אמר מרא ביתא לא

(٦٣) نقش نبطي آخر يقع على بعد ثلاثين ياردة (خطوة) إلى الجنوب الغربي من النقش السابق، وعلى جدار (لوحة) صخري آخر من نفس المضيق، وعلى ارتفاع ضئيل. ويتكون النقش من سطر واحد يقول أن هذا يخص سيد المنزل وقد قام بصناعته وهب اللاهي، الصائغ.

- الفعل المذكور في هذا النقش يوازي أفعال التكريم أو التشريف أو التبجيل. والصعوبة في هذا السياق تأتي من عدم وجود ما يشير إلى أية آلة قد تكون المقصودة بالتكريم والوصف المذكور في هذا النقش – شأن النقش السابق له – والصفة المذكورة في نهاية النقش توازي باللغة العربية "صانع المجوهرات" أو "الصائغ".

מנצף מרא ביתא די עבד והב(א)להי צועא

(٦٤) نقش نبطي على لوحة صخرية مواجهة للنقش السابق من ناحية الشرق ويتكون النقش من سطر واحد يؤكد (أنه) قد منح الملكية (شولاي) لسيد المنزل (الإلهات).

- هذا النقش يحدد للمرة الأولى المقصود بسيد المنزل، وهي توازي في اللغة العربية كلمة "الإله" أو "الإلاهة".

אחד שלי למר ביתא אלהת

(٦٥) نقش نبطي يقع إلى الغرب بقليل من النقش رقم ٥٧ ويتكون أيضاً من سطر واحد يقول بأن هذا تذكار "لزايدو" ابن "كالبو". ويصف النقش "زايدو" هذا بأنه "حامل العلم أو الراية".

דכיר זידו סמיפרא בר כלב:

(٦٦) نقش نبطي في مضيق الديوان يتكون من سطرين، الأول منهما يبدأ بكلمة الإيجاب وعلامة التعجب (نعم – بلى)، ثم يذكر أن هذه اللوحة هي تذكار "للوكيوس" القائد العسكري. والسطر الثاني يقول أن لوكيوس هذا هو ابن عادرو، ثم يذكر ما يفيد تحية "الوداع الطيب". والاسم المذكور في السطر الأول يبدو غريباً عن الأسماء النبطية، بينما اسم الأب يبدو مشتقاً أو متشابهاً مع كلمات عربية مثل الفعل (عذر).

1. בלי דכיר לוקים א...
2. עדרו בטב

(٦٧) نقش نبطي إلى أسفل النقش السابق، يتكون من سطر واحد به كلمتان وبحروف كبيرة. الكلمة الأولى هي اسم شخص (حاليكات) والكلمة الثانية تحية (سلاماً).

- والاسم المذكور في هذا النقش يوازي كلمة سيريانية وأخرى عربية، وهو قريب في العربية من الفعل (خلق).

חלקת שלם

(٦٨) نقش نبطي يقع بجوار النقش السابق، ويتكون أيضاً من سطر واحد به كلمتان.

- الكلمة الأولى فعل بمعنى (عمل – قام ب)، والكلمة الثانية هي اسم شخص هو (تامالاهي).

עבד תמלהי

(٦٩) نقش نبطي في مواجهة الديوان، ومماثل تماماً للنقش السابق في كل شيء فيما عدا اسم الشخص، فهو هنا (حاملافو).

עבד חמלפו

(٧٠) نقش نبطي في مضيق الديوان، بالقرب من اللوحة التذكارية للإله أعـــــراء. وهــو يتكون من سطر واحد يؤكد أنه تذكار لشخص اسمه وابراه. والاسم المذكـــور فـــي هـــذا النقش يوازي الاسم العربي "وبرة" – "أبو وبر".

דכיר וברה

(٧١) نقش نبطي يتكون من سطرين ويقع في نفس المنطقة. السطر الأول يحمل التحيـــــة (سلاماً) ثم يوجهها إلى شخص اسمه (حارس) ثم يذكر اسماً آخر هو زاييـــو ابـــن عبـــد عبودات (في السطر الثاني)، ويقول أنه النحات.

- الاسم الأول هنا يبدو قريباً من اسم الإله اليوناني آريس.
- الاسم الثاني يقترب من الاسم العربي (ذئب)، وهو اسم مستخدم في اللغـــــة العربيـــة كإسم شخصي حتى الآن (ديب).

1. שלם להרס זיבו (בר)
2. עבדעבדת פסלא

(٧٢) نقش نبطي يقع في مواجهة الديوان ويتكون من سطر واحد بدايته غير موجودة فـــي النقش حالياً، ثم يذكر بعد ذلك اسم شخص هو "عافنام" ابن (هابجات) ابن (أنكو).

אפנם בר הבגת בר ענכו ב...(?)

(٧٣) نقش نبطي يقع إلى اليسار من النقش السابق ويتكون من ســـطرين. الســـطر الأول منهما يبدأ بالتحية (سلاماً) ثم يذكر بعد ذلك اسم شخص هو (عبدو) ابن (عقبـــو). وفـــي السطر الثاني يضيف أسماء ابن أفتاح، ثم ينتهي السطر بكلمات "الوداع الطيب".

- الاسم الثاني في هذا النقش يوازي الاسم العربي الشهير (عقبة)
- والاسم الأول يوازي أيضا الاسم العربي (عبده) وإن كان هذا الاسم غير شائع فـــــي هذه المناطق.

1. שלם עבדו בר עקבו
2. ...תח בטב

(٧٤) نقش نبطي يقع في نفس الناحية ويتكون أيضاً من سطر واحد يبدأ بإسم شخصي هو "عادرو" ابن "ناتشي"، ثم ينتهي بجملة أو كلمة (في سلام).

- اسم الأب المذكور في هذا النقش له اشتقاق عربي من الفعل (نتش). وهـــذا الاســم موجود في نقوش أخرى تم العثور عليها في هذه المنطقة.

עדרו בר נתשי (?) בשלם

(٧٥) نقش نبطي في نفس المنطقة ونفس الاتجاه، يتكون من سطرين إحداهما يبدأ بالتحية (سلاماً) ثم يذكر اسم "زابدو" ابن "آشادو" (في السطر الثاني).

1. שלם זבדו בר
2. אשדו

(٧٦) نقش نبطي يقع في نفس هذا الإقليم ويتكون من سطر واحد. يبـــدأ النقـش باســم شخصي هو (قانيو) ثم يذكر أنه ابن "شاسو" ثم ينتهي بالتحية المعتادة (سلاماً).

- الاسم الثاني المذكور في هذا النقش يمثل اشتقاقاً عربياً واضحاً، حيث يوازي في اللغة العربية أسماءً شخصية عديدة منها: شمس – شماس – شميس . وهي أسماء شـــائعة عند العرب.
- والاسم الأول يوازي في اللغة العربية أيضاً اسم (قين).

קינו בר שמש(ו) שלם

(٧٧) نقش نبطي من نفس الإقليم في اتجاه الجنوب - يتكون النقش من سطر واحد ويبــدأ بكلمة الإيجاب وعلامة التعجب (نعم – بلى) ثم يذكر اسم شخصي هـــو "ســالمان ابــن أودنيات". ثم يذكر اسم "جادّو"، ثم ينتهي بالتحية الخاصة بـــالوداع الطيـــب أو النصيـــب الطيب.

- الاسم الوارد أولاً في هذا النقش يمثل ما يوازي الاسم العربي الشائع في مداين صالح – وغيرها – "سلمان". والاسم الثاني يوازي أيضاً الاســم المعــروف شــمال شــبه الجزيرة العربية خاصة في "تدمر" – "أذنية".

בלי שלם שלמן בר אד(י)נת — גדו בטב

(٧٨) نقش نبطي يقع على نفس الصخرة، إلى أسفل النقش السابق بقليل.

- يتضمن النقش سطراً واحداً، ويبدأ باسم شخصي هو "معناء" ثم يذكر التحية المعتادة (سلاماً)، ثم ينتهي باسم شخصي آخر هو "معنا اللاهي".
- الاسم الأول المذكور في هذا النقش يوازي الكلمة العربية (معن) وله اشتقاقات أخرى سيريانية وبالميرية.

מענא שלם מענאלהי

(٧٩) نقش نبطي يقع في نفس الاتجاه ونفس المنطقة. يتكون هذا النقش من سطر واحد. يبدأ بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر كلمة ابن (عذار).

- الكلمة الأولى من هذا النقش يمكن أن تقرأ قراءة أخرى خلاف التحية حيث أن بعض الباحثين يقرأونها اسماً شخصياً هو (سالم).
- يرجع هذا التفسير وهذه القراءة إلى عدم وجود اسم الشخص المفترض أن يكون النقش منسوباً – أو مهدي – له ، أي ابن (عذار). وتكون الترجمة المفترضة هنا هي: سالم بن عذار – ثم تكون التحية مفهومة أو مقدّرة.

שלם בר עדר

(٨٠) نقش نبطي في نفس هذا الاتجاه. يتكون النقش من سطر واحد ويبدأ بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر اسم شخصي هو (ماجوس) ثم يذكر أنه ابن (تايمو).

- الاسم المذكور في هذا النقش اسم يوناني الأصل وهو اسم عربي ذكره ايسخيلوس من قبل في مسرحية (الفرس).

שלם מגס בר תי(מו)

(٨١) نقش نبطي يقع بجوار النقش السابق. يتكون النقش من سطرين.

- السطر الأول منهما يبدأ بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر إسماً شخصياً هو "مارابئيل" ابن "باتنو" (السطر الثاني) ثم يذكر بعد ذلك التحية أو الأمنية أو الوداع (في مكان طيب).

1. שלם מרבאל בר
2. בתנו בטב

(٨٢) نقش نبطي يقع في نفس الاتجاه ويتكون أيضا من سطر واحد. يبدأ النقـش بكلمـة الإيجاب وعلامة التعجب (نعم – بلى)، ثم يذكر التحية (سـلاما) ثـم الاسـم الشـخصي (عوتيل) الاسم المذكور في هذا النقش يوازي الاسم العربي (غوثالة). ولكنه موجود فـي هذا النقش في صيغة أخرى.

בלי שלם עותאל

(٨٣) نقش نبطي يقع على مقربة من سابقه في اتجاه الجنوب وإلى أعلى قليلا وإلى اليمين من تجويف وحجر مقدس (ممسوح). ويتكون النقش من ثلاثة سطور. يبدأ بالتحية المعتادة (سلاما) ثم يذكر الاسم الشخصي وهو "جوشام" ابن "تيقوماكوس.

- الاسم المذكور أولا في هذا النقش يقترب من الاسم العربي (جشم). والاسـم الثـاني يبدو إسما ذا أصول يونانية.

1. שלם גשם ?
2. בר טיקמ
3. כס

(٨٤) نقش نبطي في نفس الاتجاه يتكون من سطر واحد.

- يبدأ النقش بالتحية المعتادة (سلاما) ثم يذكر اسم الشخص وهو "تيتوس" ابن "عبـدو". وفي أول النقش تظهر كلمة الإيجاب والتعجب (نعم – بلى).
- الاسم الموجود في هذا النقش نجد له أصولا يونانية ولاتينية مـن خـلال الكلمتيـن ويرجعه بعض الباحثين إلى الأسماء اليونانية.

בלי שלם תטוס בר עבדו

(٨٥) نقش نبطي من نفس المنطقة. يتكون من ثلاثة سطور. يبدأ النقش بكلمة الإيجـاب والتعجب (نعم – بلى) ثم يتلوها بعد ذلك بالتحية المعتادة (سلاما) ثم يذكر بعد ذلك الاسـم الشخصي وهو "عاوتل ابن تايمو" ثم يقول أنه نزل إلى (تنازل إلى) الشرا (الشرى) مقابل ١٥ دراخمة وأنه قد (اهلك – استهلك) جملا مقابل ١٠٠ دراخمة من (عملة) الحارث.

- الاسم المذكور في النقش سبق ذكره في نقوش سابقة وهو يتشابه مع اشتقاق أحد الأسماء العربية.
- سياق النقش بعد ذلك محل خلاف، حيث أن الكلمة المذكورة بعد الفعل في السطر الثاني لها احتمالات عديدة. فهي توازي اسم إقليم عربي في شبه الجزيرة. وتوازي أيضاً اسماً لإحدى الطرق ومناطق بني سليم. وهي في النهاية تتفق مع الشراة التي استمد منها الأنباط إسم إلههم الرئيسى (دوشرا).

1. לא שלם עותאל בר תימו
2. די נחת לשרא לס(ל)ען (?) 15
3. ואבד גמל בסלען ... 100 (?) חרתי (?)

(٨٦) نقش نبطي في نفس المنطقة. يتكون من شطر واحد.

- يبدأ النقش بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر الاسم الشخصي وهو هنا "خيّو ابن جومبايلو"
- الاسم الثاني في هذا النقش – اسم الأب – يوازي في اللغة العربية كلمة "جبل". ويوازي في الأسماء العربية الشائعة في هذه المناطق اسم "جبلة".

שלם חיו בר גבילו (?)

(٨٧) نقش نبطي في نفس اتجاه النقش السابق. يتكون من سطر واحد.

- يبدأ النقش بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يذكر الاسم الشخصي وهو "ابسانون ابن بانون"
- الاسم الأول في هذا النقش يوازي الإسم العربي "سنان".
- الاسم الثاني يوازي الاسم العربي "بنانة"، وهو اسم إحدى القبائل العربية.

שלם אבסנון בר בנ(נ)ן (?)

(٨٨) نقش نبطي يقع ضمن مجموعة أخرى من صخور جبل اثليب، وذلك إلى الشرق من المجموعة السابقة.

- يتكون هذا النقش من سطر واحد.

• يبدأ بالتحية المعتادة (سلاماً) ثم يتطرق بعد ذلك إلى ذكر الاسم الشخصي وهو في هذه الجملة "هيراكليوس ابن تايمو".

• الاسم المذكور في هذا النقش لا يمثل اسماً من الأسماء الأصلية في هذه المنطقة ولكن يبدو أنه من الأسماء ذات الأصول اليونانية.

ד
שלם רקלים בר תימו

(٨٩) في إحدى المناطق الجبلية في اتجاه الشرق، وحيث تخترق منطقة مداين صالح من المنتصف وتقسمها إلى جزئين، يوجد عدد كبير من اللوحات التذكارية. أحدهـا اللوحة التالية التي تمثل نقشاً نبطياً يتكون من سطر واحد. يقول النقش أنه يمثل تذكاراً لشخص اسمه "ميناركو".

• الاسم المذكور في النقش يمثل اسماً يونانياً.

דכיר מנרכו

(٩٠) في نفس هذا الاتجاه نقش نبطي آخر يتكون من سطرين.

• السطر الأول يذكر اسم الشخص وهو "حابيبا"، ثم يذكر بعد ذلك (صديقه) "زاكيو" (في السطر التالي).

• الاسم الأول في هذا النقش يوازي الاسم العربي (حبيب)

• الاسم الثاني في النقش يوازي الاسم العربي أيضاً (زكي). وهو اسم يستخدم في اللغة العربية حتى الآن. وكان إسماً لأحد ضباط منطقة "مداين صالح"، وأصله من دمشق.

חביבה
זכיו

(٩١) في نفس هذا الاتجاه، نقش نبطي آخر يتكون مثل النقش الأول من سطر يذكر فيه أنه تذكار لأحد الأشخاص، ثم يذكر في السطر الثاني اسم الشخص وهو "آتامو"، ثم يذكر في السطر الثالث انه ابن "ماليكو".

1. דכיר
2. אתמו
3. בר מלכיו

(٩٢) نقش نبطي من نفس المنطقة ونفس الاتجاه. يتكون النقش من سطر واحد.

- يبدأ بذكر اسم الشخص "لخمو" ثم يذكر بعد ذلك إنه ابن "عقـــرب". ولا يذكـــر شـــيئاً خلاف ذلك.
- الاسم الأول المذكور في هذا النقش اسم ذو أصل عربي واضح (لخم).
- الاسم الثاني أيضاً يمثل اسماً عربياً هو (عقرب) وقد سبق أن أشرنا إلى أن العـــرب اعتادوا إطلاق أسماء الحيوانات ذات الصفات المستحبة لديهم على الأشخاص. ويمكن إلحاق هذا الاسم بهذه الحالة.

לחמו בר עקרב

(٩٣) نقش نبطي يقع في نفس المنطقة وفي نفس الاتجاه. يتكون النقش من سطر واحد.

- يبدأ بذكر الغرض منه وهو أن يكون تذكاراً لشخص اسمه "حيّا" من "جاميش". ويتمنى له النقش بعد ذلك مكانة أو نصيباً أو وداعاً طيباً.
- الاسم المذكور هنا "جاميش" يمثل اسماً ذا أصل عربي هو (جمش) أو (الجمش).

דכיר חיא גמישא בטב

(٩٤) نقش نبطي في نفس الاتجاه وفي نفس المنطقة. يتكون النقش من سطر واحد.

- يبدأ مثل النقش السابق بذكر الغرض منه وهو أن يكـــون تذكـــاراً لشـــخص اســـمه "واكيلا". ثم يمنحه التحية المعتادة (سلاما).
- الاسم المذكور في النقش ذو أصل عربي أيضاً (وكيل).

דכיר וכילא שלם

(٩٥) نقش نبطي من نفس المنطقة ومن نفس الاتجاه يتكون النقش أيضاً من سطر واحـــد على غرار معظم النقوش المماثلة.

- يبدأ باسم شخصي هو "موسليمو"، ثم يقول أنه من "حجرا"، ثم يقرؤه السلام.
- الاسم المذكور في النقش يمثل اسماً وصفة عربية. حيث كلمة "مسلم" تعني في الأصل من ينتمي إلى الديانة الإسلامية.

מושלמו חגריא. שלם

(٩٦) نقش نبطي من نفس المنطقة ومن نفس الاتجاه. يتكون النقش من سطر واحد مثـــل النقش السابق. يبدأ النقش بذكر الغرض منه وهو أن يكون تذكاراً لشخص اسمه "عما" ابن " باعتي".

- الإسم الأول في هذا النقش اسم عربي واضح حيث يأتي من الفعل العربـــي "عمـــم"، ومن الإسم العربي "عم" سواء كان بمعنى صلة القرابة أو صفة التبعية في عمـــل أو خلافه.
- الاسم الثاني في هذا النقش هو أيضاً ذو أصل عربي شائع الاستخدام وهو "بعيـــث"، وهناك أيضا من الأسماء الشائعة في هذه المنطقة اسم "بغث" وهو من أسماء الأمـــاكن القريبة من خيبر (وادي بالقرب من خيبر).

דכיר עמא בר בעתי

(٩٧) نقش نبطي من نفس المنطقة ونفس الاتجاه.

- يتكون من سطر واحد مثل النقوش السابقة.
- يبدأ بذكر الغرض منه وهو أن يكون تذكاراً لشخص اسمه "راقامو" ثم يتمنى له بعـــد ذلك النصيب الطيب.
- الاسم المذكور في هذا النقش يمثل اسماً ذا جذور عربية أيضاً حيث يأتي من كلمـــــة (رقم) التي تعني (عدد) وكلمة (الرقيم) وكلمة (الأرقم).

דכיר רקמו בטב

(٩٨) نقش نبطي من نفس المنطقة ونفس الاتجاه يتكون من سطر واحد ويقول بأنه تذكـار لشخص اسمه "زاريق" ويتمنى له النصيب الطيب.

- الاسم المذكور في النقش هو أيضاً ذو أصل عربي – زريق – ولـــه أيضـــاً جـــذور سريانية بمعنى (صدق – عدل).

דכיר זרק בטב

(٩٩) نقش نبطي من نفس المنطقة ونفس الاتجاه – يتكون من سطرين – يبدأ بكلمة الإيجاب والتعجب (نعم – بلى) ثم يقول بأنه تذكار لشخص اسمه "لاطيفو" الابن الأصغر (الحفيد) "لتايمو"، من "موأب".

- الاسم الأول يأتي من الكلمة العربية (لطف) ومنها الاسم المؤنث (لطيفة) والمذكر (لطيف).

1. בלי דכיר לטפו בר
2. בר תימו מזביא

(١٠٠) نقش نبطي موجود في المناطق الداخلية من الجبل – إلى الشمال من التل السابق له.

- يتكون النقش من ثلاثة سطور.
- السطر الأول لا يحمل سوى التحية المعتادة (سلاماً) والسطر الثاني يذكر اسم الشخص (شاريعات) ، والسطر الثالث يتمنى له النصيب الطيب أو حسن الوداع.
- الاسم المذكور في النقش – شاريعات – يعادل في اللغة العربية كلمة (شريعة)، وإن كانت لا تستخدم هكذا في أسماء الأشخاص.

1. שלם
2. שריעת בר
3. ... בטב

الجزء الثاني

قراءة سياسية واجتماعية للنقوش النبطية

قراءة سياسية واجتماعية للنقوش النبطية

١ – الأنباط

الأنباط هم شعب من العرب الذين استوطنوا شمال الجزيرة العربية أو على وجه الدقة بادية الشام وجنوب سورية حوالي القرن الثاني ق.م [١]. والأنباط في الأصل يمثلون إحدى الهجرات الآرامية التي جاءت من داخل شبه الجزيرة العربية وتوجهت إلى الشمال حيث كان استيطانهم في نهاية الأمر في بادية الشام [٢]. ويرجع ترجيح الأصل الآرامي للأنباط إلى اتخاذهم اللغة الآرامية لغة للكتابة [٣]. ويبدو أن الأنباط قبل أو خلال هجرتهم هذه كانوا قد اختلطوا بعرب الحجاز أو أنهم قد توصلوا إلى نوع من أنواع السيطرة على هؤلاء العرب. [٤] ويبدو من النقوش الآرامية المنسوبة لهم أنهم كانوا يتحدثون لهجة قريبة من اللغة العربية رغم الكتابات الآرامية.[٥] ولا نعرف على وجه التحديد سبب تسميتهم بهذا الاسم – الأنباط أو النبط – وإن كان البعض يرجعون سبب التسمية إلى أن هذا الشعب كان من الشعوب المستقرة التي تعمل بالزراعة أو "استنباط" ما يخرج من الأرض.[٦]

وفيما يتعلق بالمملكة التي نجح الأنباط في إقامتها ببادية الشام بعد هجرتهم من داخل شبه الجزيرة العربية، فإنها كانت تمتد من غزة إلى شاطئ بحر القلزم حيث " أيلة".

---

١ Pliny, NH, 12 : 37

O'Leary, Arabia, p. 82

عن: عبد المنعم ماجد – التاريخ السياسي للدولة العربية – القاهرة – ١٩٧٥ – ص ٨٤.

٢ عبد المنعم ماجد – نفسه.

٣ جواد على ٣ / ٦.

٤ عبد المنعم ماجد – نفسه.

٥ انظر نقوش الجزء الأول من هذا الكتاب

٦ ياقوت – معجم البلدان – ٦ – ١٣٨

وقد نجحوا في توسيع هذه المملكة استغلالاً للنزاع بين خلفاء الاسكندر المقدوني.[1] وكانت هذه المملكة تمتد في أرض صخرية وعرة جعلت اليونانيين يطلقون اسم "البـتراء" علـى عاصمتها، [2] بينما أطلق العرب على هذه العاصمة اسم "سلع" [3] لنفس هذا السبب، حيث أن كلا الاسمين يعني المنطقة الجبلية أو الصخرية.

والتاريخ السياسي لمملكة الأنباط - بوجه عام - يؤكد أنها كانت مملكـة قويـة مرهوبة الجانب خاصة من يهود الشام. وقد تمكن الملك النبطي "الحارث الثالث" من شـن الحرب على اليهود وتمكن أيضاً من هزيمة القائد الروماني بومبي ٦٤ ق.م. حين حـاول التوسع في فلسطين على حساب الأنباط. [4] وحين نجح الرومان في بسط سيطرتهم علـى الشرق ظل الأنباط محتفظين بمملكتهم وتحولوا إلى حلفاء للرومان وشاركوا معـهم فـي حملتهم لغزو اليمن ٢٤ ق.م .[5] وللأنباط - خلاف هذه الحملة صلات مؤكدة باليمن، حيث أن النقوش النبطية قد تم العثور عليها هناك.[6] وقد انتهى التـاريخ السياسـي للأنبـاط - بمملكة مستقلة - في حوالي سنة ١٠٥م حين خشى الإمبراطور الروماني "تراجان" ازدياد نفوذهم وقام بضمهم إلى الإمبراطورية الرومانية تحت اسم "المقاطعة العربية"[7].

ولا يذكر التاريخ عن مملكة الأنباط خلاف ذلك سوى أنها كانت مركزاً لطـرق القوافل، وكانت تمثل سوقاً تجارية هامة.[8] كما أنها قد اشتهرت بالنواحي المعمارية التي لا زالت أثارها باقية حتى الآن وأهمها المسرح المقام على الطرز اليونانية.[9] وعرف الأنباط

---

[1] ياقوت - معجم البلدان - ١- ٣٩١

[2] Pliny , NH . 6: 82; 142 - 145

[3] ياقوت - معجم البلدان - ٥ / ١٠٧

[4] جواد علي ٣ / ٢٦

[5] Strabo , 2 : 5 ; 12

[6] يحيى نامي - نقوش سامية قديمة - ١١٨ / ١١٩ - نقش رقم (٩٠)
عن: عبد المنعم ماجد - المرجع السابق - ٨٥ - هامش (٨)

[7] جواد علي ٣ / ٤٧

[8] عبد المنعم ماجد - المرجع السابق - ٨٦

[9] نفس المرجع

أيضاً سك العملة حيث تم العثور على عملة خاصة بهم ذات نقوش ورسوم تمثل الملك والملكة.[1]

والحياة الدينية للأنباط لا تختلف عن الأوضاع في شبه الجزيرة العربية. فقد كان الأنباط يعبدون نفس معبودات عرب الحجاز مثل اللات ومناة والعزى وهبل، وإن كانت هذه العبادات قد تأثرت بالعقيدة اليونانية التي فرضت نفسها على هذه المناطق في أعقاب ظهور الاسكندر المقدوني.[2]

هذه المعلومات تمثل إيجازاً للحقائق التاريخية التي تذكرها المصادر المختلفة عن مملكة الأنباط. وسوف نحاول في هذا الجزء من الكتاب أن نستخدم النقوش النبطية التي نشرتها البعثة الفرنسية في اكتشاف المزيد من الحقائق عن تاريخ هذه المملكة أو على الأقل قد نجد في هذه النقوش تأكيداً للمعلومات التاريخية عن هذه المملكة وتوثيقاً لتاريخها السياسي والاجتماعي والديني.

---

[1] عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٨٦

[2] نفس المرجع

٢ – قراءة سياسية للنقوش النبطية

القراءة الأولى للنقوش النبطية التي اكتشفها الفرنسيون وقاموا بترجمتها تؤكد أن الأنباط كانوا بالفعل أحد الشعوب التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية واستقرت في بادية الشام. ذلك أن كل الإشارات ذات الدلالات السياسية في هذه النقوش تشير إلى أن الأنباط كانوا يمثلون نظاماً سياسياً لا يخرج في مجمله أو تفاصيله عن النظم السياسية المعروفة عن العرب في شتى مراحل تاريخهم، وإن كنا – تحرياً للدقة – لا نتناول الآن سوى أوجه التشابه بين النظام السياسي للأنباط والنظم العربية في ذات الفترة التاريخية. وفيما يلي أهم ما يمكن أن نستنتجه في هذا السياق:

أ – أسماء الملوك الواردة في هذه النقوش تؤكد أن الأنباط – شأنهم في ذلك شأن سائر العرب – كانوا يتمتعون بخاصية استقرار الحاكم في موقعه مدى الحياة. ذلك أن الغالبية الساحقة من النقوش لا تذكر سوى اسم الملك الحارث، وتذكر من سنوات حكمه ما يزيد عن الأربعين عاماً.[١] والحارث هذا – من خلال النقوش – يفترض أن يكون قد ظل ملكاً على الأنباط لمدة ٤٨ سنة – أو أكثر – وهو الأمر الذي يؤكد أصالة انتماء الأنباط

---

[١] Mission - I - p.141 (13)
p.145 (40)
p.151 (40)
p.154 (36)
p.156 (9)
p.157 (44)
p.159 (43)
p.162 (43)
p.169 (9)
p.179 (35)
p.184 (45)
p.186 (24)
p.187 (25)
p.190 (16)
p.193 (48)
p.194 (48)
p.199 (40)

إلى العرب الذين لم يكن تاريخهم السياسي يتضمن – بصفة عامة – آليات تسمح بالمشاركة الشعبية أو تداول السلطة من منطلق اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي، فضلاً عن عدم وجود آلية حساب الحاكم، وهو ما سوف نتحدث عنه في فقرة تالية.

وإذا تركنا الحارث وبحثنا من خلال هذه النقوش عن حاكم آخر، فإننا لا نجد أيضاً سوى تأكيداً وتكريساً لهذه الأوضاع. فمن خلال أسماء الملوك والحكام الواردة في النقوش النبطية التي نحن بصددها. سنجد أيضاً اسم الملك "ماليكو" يتردد في العديد من هذه النقوش إلا أن فترة حكم هذا الملك لا تصل في طولها إلى فترة حكم الحارث، ولعل السبب في هذا يرجع إلى أسباب قدرية تتعلق بفترة حياة الملك وليس بأسباب سياسية أو شيء من هذا القبيل. فمن بين النقوش التي ورد فيها اسم هذا الملك نرى أنه قد ظل يحكم البلاد لفترة تزيد عن العشرين عاماً[1]. أي أن كل قرن من عمر مملكة الأنباط لم يكن يحتاج إلى أكثرمن ثلاثة أو أربعة ملوك على أكثر تقدير حيث تبلغ فترة حكم كل من الحارث وماليكو أكثر من ٧٢ عاماً.[2]

ب – الأمر الثاني الذي يؤكد "العروبة السياسية" لدولة الأنباط من خلال هذه النقوش التي كتبوها على مقابرهم هو أن الملك كان يجمع في يده السلطة الدينية والمدنية معاً مثلما كان الحال في معظم النظم السياسية العربية القديمة منذ عهد "مكاربة" الجنوب[3]

---

[1] (3) Mission - 1- 148
(9) 158
(18) 167
(11) 180
(21) 186
(17) 201
(24) 202
(1) 204

[2] حتى إذا افترضنا أن "الحارث" و "ماليكو" هما اسمان لأكثر من ملك، بمعنى أن هناك الحارث الأول والحارث الثاني والحارث الثالث، ثم ماليكو الأول وماليكو الثاني وماليكو الثالث، وهكذا، فإننا في ظل هذا الافتراض لن نأتي بجديد فيما يتعلق بتفسير هذه النقوش من الناحية السياسية. حيث أن ذكر سنوات الحكم مع اسم الملك بوصفه (سلالة) وليس (شخصاً) هو أيضا من الأمور التي تكرس فكرة خضوع هذه المملكة لنوع من الحاكم المطلق الذي كان يسود هذه المنطقة وتلك الشعوب.

[3] جواد علي ١٣/٢

وحتى عهد الدولة العباسية ثم الإمبراطورية العثمانية.[1] ففي معظم النقوش النبطية التي تتضمن قصر حق استخدام المقبرة على أشخاص معينين وبشروط معينة نجد أن مخالفة هذه الشروط تقتضي أن يكون الشخص المخالف مطالباً بدفع غرامة معينة إلى الملك – أو باسم الملك –[2] ولو كان في المملكة شخص معين أو منصب معين يمثل السلطة الدينية لكان قد ذُكر بوصفه المسئول عن التعويض المفترض أداؤه درءاً للعنة الآلهة عن المخالفين لشروط وصية صاحب المقبرة.

وفي ذات هذا السياق يمكننا أيضاً أن نخرج من هذه النقطة في النقوش النبطية بنتيجة أخرى تبدو متسقة مع الوضع السياسي العام في الدولة. وهي أن نظام الحكم في المملكة كان مركزياً إلى أقصى درجة ممكنة، وبحيث لا يكون من المسموح به أو المتعارف عليه أن يوجد شخص آخر خلاف الملك توكل إليه مهمة الغرامة المقررة على من ينتهك وصية صاحب المقبرة. وهذا التفسير في ظل مدد الحكم الطويلة لكل من الحارث وماليكو يعد أقرب إلى الصواب من تفسير آخر نفترض فيه أن قوة المشاعر الدينية وحرمة الموت لدى هذا الشعب كانت تتطلب أن يصل تجريم الاعتداء على وصية صاحب المقبرة أو المقبرة نفسها إلى تدخل الملك شخصياً.

جـ – الأمر الثالث الذي يؤكد التشابه بين النظام السياسي لدولة الأنباط والنظم السياسية العربية نجده في جملة صغيرة تتكرر في كل النقوش التي ترجع إلى عهد الملك الحارث، ورغم أنها جملة صغيرة روتينية ونمطية إلا أنها في نفس الوقت جملة موحية – خاصة ونحن بصدد دراسة الإيحاءات السياسية لنقوش هذا الشعب الذي لا نعرف عن تاريخه إلا النذر اليسير. ففي كل النقوش التي ترجع إلى عهد الملك الحارث سوف نجد أن اسم الملك يأتي في نهاية النقش مقترناً بجملة "الذي يحب شعبه".[3] وهذه الجملة تستدعي إلى أذهاننا وتماثل ما نعرفه طوال التاريخ العربي القديم والحديث والمعاصر من ألقاب اعتاد الزعماء والملوك العرب أن يطلقوها على أنفسهم، مثل المظفر والناصر والمعتصم

[1] النقوش العربية في تبوك والتي ترجع إلى بداية القرن العشرين تصف السلطان بأنه "خادم الحرمين" انظر:
Mission , 1- 293

[2] Mission , 1 - 145 - 157

[3] Mission , 1 , 141 - 145 - 151

والمستعصم والعادل ..الخ. والأمر بالنسبة للحارث النبطي لا يقتصر على الجملة المذكورة من حيث كونها لقباً له فحسب، ولكن هناك أمرين ينبغي استقراؤهما من هذه العبارة. الأمر الأول منهما، أن هذه الجملة تجعل من الحارث صاحب المبادرة في حب الشعب، فهي لا تقول أن الشعب هو الذي يحبه، ولا تقول أن الحب أمر متبادل بين الطرفين، ولكنها تقول دائماً أن الحارث هو الملك "الذي يحب شعبه". وهذه الجملة على بساطتها تؤكد أن الوضع السياسي في مملكة الأنباط كان يتمثل في نظام مركزي صارم على رأسه الملك الذي يحمل ويملك كافة الصلاحيات. ذلك أن الوصف الذي تسوقه لنا النقوش المتوالية في نفس الصيغة لهذا الملك يؤكد أن الملك كان "صاحب الحق" في أن يمنح شعبه الحب – ولو من خلال جملة روتينية بسيطة – وأن العكس لم يكن متاحاً، وربما كان ذلك لأن الحارث – أو الملك بصفة عامة – ليس في حاجة إلى تأكيد من الشعب بحبهم له، أو لأن الشعوب في هذه الممالك كانت أقل شأناً من أن تأخذ بزمام المبادرة حتى في سياق جملة تذكارية يتم تسجيلها على إحدى المقابر، ومن هنا لا نجد في هذه النقوش الخاصة بمملكة الأنباط نقشاً واحدا يشذ عن هذه القاعدة ويصف الملك الحارث بأي وصف آخر أو بأية صيغة أخرى مثل "الملك الذي يحبه الشعب" أو "الملك المحبوب" أو غير ذلك من الصفات التي تضع الشعب النبطي من الملك في موقع "الفاعل" ولو مرة واحدة ومن خلال جملة مكتوبة على نقش في مقبرة.

والشيء الثاني الذي يستحق التعليق في هذا السياق هو أننا من خلال النقوش النبطية المتاحة نستطيع أن نستنتج أن الأنباط – كشعب – لم يكونوا مجبرين على كتابة مثل هذه العبارات التي تتعلق بالملك على مقابرهم. فهناك بعض النقوش التي ترجع إلى عهد الملك الحارث نفسه ولكنها لا تذكره بمثل هذه الأوصاف، ولا يوجد ما يشير إلى أن عدم ذكر هذه الأوصاف للملك كان يمثل أي نوع من اللامشروعية أو الخروج عن الأعراف أو القوانين.[١] وربما كانت كتابة هذه الأوصاف للملك الحارث على مقابر الأنباط في عهده تمثل عادة أوحى بها للناس من جانب حاشية الملك أو أتباعه، وقام كل صاحب مقبرة بالالتزام بها حتى صارت عرفاً – وهو الأمر الذي يتشابه مع ما جرت عليه العادة حتى الآن في الدول العربية – أو بعضها على الأقل – من حرص أصحاب المحال

---

[١] 1- 183

التجارية والسيارات العامة وغيرهم على إعلان ولائهم للحاكم أو الحكومة من خلال الصور والملصقات المخصصة لهذا الغرض. وهو أمر يتم في أغلب الأحوال دون أن يطلبه الحاكم وربما دون أن يسعى إليه أو يعلم به.[١]

ومن الأمور اللافتة للنظر أيضاً في هذا النوع من النقوش أن أسماء الملوك في النقوش النبطية لم تكن مصحوبة بنفس هذه الجملة - أو غيرها - في عهد أي ملك خلاف الملك الحارث. فهناك نقوش ترجع إلى عهد الملك ماليكو الذي حكم لفترة طويلة تزيد عن الربع قرن، ولكننا لا نجد فيها أية إشارات تؤكد "حب هذا الملك لشعبه" كما كان يفعل "الحارث". كما أن هناك نقوشاً أخرى لملوك آخرين لا تذكر لهم هذه الصفة أو أية صفات أخرى.[٢] والتفسير الذي يبدو على شيء من المنطق في هذا الصدد هو أن الحارث كان يمثل في تاريخ الأنباط نوعاً متفرداً من الزعماء والقادة الذين لا يصح لغيرهم أن يحاول الوصول إلى مكانتهم أو اتخاذ الصفات التي كانت لهم. ومن هنا لا نجد في أسماء الملوك الآخرين للأنباط ما يشير إلى مساواتهم المطلقة بالملك الحارث سواء في جملة "الذي يحب شعبه" أو في ارتباط أسماءهم بعملة البلاد.

د - التطورات السياسية التي شهدتها مملكة الأنباط خلال مراحل تاريخها يمكن تتبعها أيضاً من خلال هذه النقوش. فالواضح من لغة وعدد نقوش المقابر المنشورة في تقرير البعثة الفرنسية أن أغلب هذه النقوش وأكثرها إشادة بالحاكم وتمجيداً له هي تلك التي ترجع إلى عهد الملك الحارث. وهذا الوضع يتسق تماماً مع المصادر التاريخية الأخرى التي تؤكد أن المملكة قد بلغت أوج ازدهارها في عهد هذا الملك - الحارث

---

[١] دولة الأنباط تقع جنوب بادية الشام، والشام تنقسم في العصور الحديثة إلى سورية ولبنان وفلسطين والأردن. وما نبحث عنه الآن في ثنايا وسطور وكلمات النقوش النبطية قد يفسر للبعض الجذور التاريخية لأمور استهجنها المراقبون والباحثون قديماً وحديثاً في هذه المناطق، ولعل أوضح هذه الأمور في بداية التاريخ الإسلامي هي ما يتعلق بطريقة نشأة الدولة الأموية وتحويلها إلى النظام الملكي على يد معاوية بعد سلسلة من الأحداث الدامية والفتن والدسائس التي لم تنقطع طوال عهد هذه الدولة. ثم أمامنا الآن في التاريخ المعاصر طريقة تداول السلطة في سورية بعد وفاة الرئيس حافظ الأسد.

[٢] Mission , 1 - 148 - 158 - 167 - 180....etc

الثالث كما تشير إليه المصادر – ويبدو أن هذه الفترة ترجع للقرن الأول ق.م حين كـــان الأنباط قد جنوا ثمار سياستهم التوسعية على حساب نزاعات قادة الاســـكندر المقدونـــي، وتمكنوا من استغلال موقع بلادهم في ملتقى الطرق التجارية وحققوا بذلك نوعاً من القـوة السياسية والاقتصادية بين جيرانهم.[1]

وفيما يتعلق بالاسم الآخر الذي يتكرر كثيراً في النقوش النبطية، وهو اسم الملـك ماليكو، فإن آخر الأعوام التي تنسب إليه – عدداً – في هذه النقوش هـو العـام الرابـع والعشرون.[2] وذلك على الرغم من أن هذا الملك من المفروض – وفقاً للأبحاث التاريخيـة الحديثة – أن يكون قد حكم لفترة أطول من هذه السنوات الأربع والعشرين.[3] والمفـترض أيضاً أن يكون قد اعتلى عرش البلاد من ٤٠م إلى ٧١م وهو عام وفاته، أي أنه قد استمر في الحكم لمدة ٣١ سنة.

والفترة المنسوبة لحكم هذا الملك هي الفترة التي كانت فيها مملكة الأنباط توشـك على التحول إلى ولاية رومانية.[4] حيث قام الإمبراطور تراجان بضمها إلى الإمبراطورية الرومانية بعد حوالي ٣٤ عاماً من تاريخ نهاية حكم الملك المذكور أو وفاته.[5] والفـــارق بين طريقة ذكر الحارث في النقوش النبطية وطريقة ذكر الملك ماليكو هذا تتفق تماماً مـع الفارق بين عصر كل منهما. ففي حين كانت فترة حكم الملك الحارث تتضمن نوعاً مـــن الاستقلال والقوة السياسية التي تجعل من الأنباط حليفاً للرومان وليس تابعاً لـــهم، كـانت فترة حكم الملك ماليكو تمثل بداية الهيمنة الرومانية في الشرق – على حساب الســلوقيين والبطالمة – وتحول الأنباط من حالة التحالف إلى حالة التبعية، حيث لم يعد للرومان فـــي

---

[1] ياقوت – معجم البلدان – ١/٣٩١
Strabo , 2 : 5 , 12
جواد علي - ٣ / ٢٦

[2] Mission - 1- 202 - 203

[3] Schuerer , Geschichte des Jued. Volkes, 1, p. 740
apud , Mission, 1, 204

[4] جواد علي ٣ / ٤٧

[5] عام ١٠٥م (انظر المرجع السابق)

هذه الفترة حاجة لحليف يتصدى للسلوقيين أو البطالمة في الشرق نيابة عنهم.[1] وكان من الطبيعي خلال هذه المرحلة أن تختلف صورة الملك وصلاحياته وألقابه عنها في المرحلة أو المراحل السابقة من عمر المملكة. وبينما كان من حق الملك الحارث في ظل استقلال مملكته وقوتها – النسبية – أن يكون الملك "الذي يحب شعبه"، لم يكن من المتاح للملك "ماليكو" في ظل بداية تحول موازين القوة في المنطقة لصالح الرومان وحدهم أن تكون له ذات المكانة السياسية والنفوذ الذي كان يتمتع به سلفه، ولعل هذا هو السبب في تقلص المساحة المذكورة له كملك للبلاد في النقوش التي نحن بصددها. وربما كان الملك النبطي في هذه المرحلة – عصر ماليكو أو القرن الأول الميلادي بصفة عامة – لا يمثل في واقع الأمر أكثر من والٍ على البلاد يديرها لصالح الرومان أو بموافقتهم، وهو في هذه الحالة لا يملك شعباً يمنحه الحق في نفس الجملة التي كانت تكتب عن الحارث "الذي يحب شعبه".

وحين نتابع التطورات السياسية التي شهدتها مملكة الأنباط من خلال هذه النقوش في الفترات التالية للحارث وماليكو، نجد أن هناك أسماءً أخرى قليلة تذكر في النقوش بوصف أصحابها ملوك البلاد أو أصحاب السلطة فيها. وهذه الأسماء – شأنها شأن ماليكو – لا تحمل من الصفات ما كان يحمله الملك الحارث، فضلاً عن عدم وجود ما يشير إلى أن أحدهم قد تولى حكم البلاد لفترات طويلة تتسق أو تتناسب أو تقترب من فترات حكم الحارث أو ماليكو. هذه الأسماء تتضمن الملك رابيل.[2] بالإضافة إلى عدد آخر من أسماء القادة العسكريين الذين حلوا محل الملوك في بعض هذه النقوش.[3]

---

[1] تقول المصادر التاريخية أن يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م كان قد التمس من "مالكوس الأول" أو "مالك بن عبادة" ملك الأنباط العربي أن يمده بكتيبة من الجنود والفرسان يتمكن بها من اجتياح الإسكندرية. كما أن روما قد عقدت بعد ذلك معاهدة تحالف مع الأنباط لصد الهجمات العنيفة التي كان يوجهها بدو وقبائل الصحراء على الحدود الشمالية والمصرية.

انظر: عبد الله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر: القاهرة: ١٩٩٢ ص ٢٦ – ٢٧

[2] Mission - 1- 182 - 196 - 199

[3] Mission - 1 – 207 - 213

وفيما يتعلق بالملك رابيل، فإن النقوش التي تشير إليه تذكر إحداها العام الخامس من حكمه، والأخرى العام الثاني من حكمه، والمقبرة الثالثة تشير إلى العام الرابع من حكم هذا الملك. وحين نقارن ما ورد في المصادر التاريخية حول هذا الملك بهذه النقوش فإننا نجد أنه الملك رابيل الثاني الذي اعتلى عرش مملكة الأنباط عام ٧١م، والذي يمثل آخر ملوك هذه المملكة أو على الأقل الملك قبل الأخير من ملوكها المعروفين.[١] حيث يفترض أن يكون الملك التالي له – الأخير – هو ماليكو الثالث.[٢] والملك رابيل هذا يمكن أن نفسر طريقة ذكر اسمه في النقوش – وعدد مرات ذكر هذا الاسم – في ضوء الفترة الزمنية التي حكم فيها البلاد. فالواضح أن هذا الملك والملك الذي يليه يمثلان آخر عهد الأنباط بالاستقلال السياسي، ومن الطبيعي في مثل هذه المراحل من تاريخ أية دولة أن يتقلص نفوذ الحاكم المحلي ويزول عنه الكثير من سلطانه لصالح القوى الجديدة التي توشك أن تقبض على زمام الأمور.

والمرحلة الأخيرة من مراحل تطور النظام السياسي في دولة الأنباط يمكن أن نرصدها في النقوش التذكارية أو نقوش المقابر التي يحتل فيها القادة العسكريون محل الملوك في مجال السلطة أو التكريم.[٣] والواضح في هذه النقوش أنها ربما ترجع إلى الفترة التي تحولت فيها دولة الأنباط إلى مقاطعة رومانية بأوامر من الإمبراطور الروماني تراجان سنة ١٠٥م.[٤] وفي هذه المرحلة من تاريخ الدولة أو الشعب النبطي لا يكون هناك محل لوجود الملوك، ولكن الطبيعي أن يكون هناك ولاة من القادة العسكريين الذين يتم تعيينهم من جانب الدولة الرومانية. وهو الاحتمال الأرجح في تفسير النقوش التي يذكر فيها القادة العسكريون بوصفهم أصحاب الحق في منح صكوك الملكية لأصحاب هذه الأرض أو المقابر التي تتضمن النقوش المشار إليها. ولعل مما يؤكد أو يرجح هذا الاستنتاج، أن النقوش التي تتضمن أسماء القادة العسكريين على هذا النحو تشير في نفس الوقت إلى وجود اثنين من القادة في وقت واحد في سياق الحديث عن ملكية مكان من

---

١ Mission - 1 - 182

٢ Mission - 1 - 204

٣ Mission - 1 - 207 - 213

٤ جواد علي ٤٧/٣

أماكن هذه النقوش.[١] ومسألة مشاركة شخصية في القيادة العسكرية أو السياسية في التاريخ النبطي هي أمر جديد تماماً ولم يرد له ذكر من قبل سواء في النقوش أو المصادر التاريخية. وفي ظل المعلومات المتاحة لا يمكننا تفسير هذا الوضع إلا بأيلولة المملكة إلى السلطة الرومانية بشكل كامل، ولجوء هذه السلطة إلى فرض اثنين من القادة العسكريين يحكمان معاً في المنطقة، وربما كان ذلك الوضع في بداية تحويل مملكة الأنباط إلى ولاية رومانية، وأن الدافع إليه كان حرص الرومان على عدم استئثار الحاكم بالسلطة وبالولاية ومحاولة الانفصال عن الإمبراطورية مرة أخرى.

وبعيداً عن هذه التفسيرات سواء كانت صحيحة أو غير ذلك، فإن المؤكد أن دولة الأنباط هذه – من خلال النقوش التي نحن بصددها – قد مرت بثلاث مراحل رئيسية في تاريخها. المرحلة الأولى هي تلك التي تتمثل في نقوش الملك الحارث، وهي ترجع إلى القرن الثاني ق.م على الأرجح. وهذه الفترة تمثل فترة ازدهار المملكة النبطية واستقلالها ورخائها الاقتصادي ونفوذها السياسي. والمرحلة الثانية هي المرحلة التالية لحكم الحارث وترجع إلى النصف الثاني للقرن الأول ق.م والنصف الأول من القرن الأول الميلادي على وجه التقريب. وفي هذه المرحلة استمر الاستقلال السياسي للمملكة ولكنها لم تكن قادرة على مواصلة لعب نفس الدور الذي لعبته في المرحلة الأولى. ففي هذه الفترة كانت القوى المناوئة للرومان في سبيلها للرحيل وأصبحت الساحة في الشرق مهيأة لسيطرتهم الكاملة. وكان دور الأنباط في هذه الحالة أن يتحولوا من دولة مستقلة استغلت نزاعات البطالمة والسلوقيين في التوسع والاستقرار إلى دولة مستقلة "مضطرة" إلى التحالف مع الرومان وتنفيذ ما يطلب منها لمصلحتهم – حتى ولو اتخذ هذا الطلب صورة التحالف أو احترام سيادة واستقلال الأنباط. والمرحلة الثالثة من تاريخ هذه الدولة هي تلك التي نقرأها من النصف الثاني للقرن الأول الميلادي – منذ عهد ماليكو الثالث – وحتى بدايات القرن الثاني الميلادي حين تحولت المملكة إلى مجرد ولاية رومانية وفقدت استقلالها وصار حكامها تابعين للرومان.

---

[١] Mission - 1 - 213

هـ - مما يذكر أيضاً في سياق النظام السياسي لدولة الأنباط واتساقه مع النظم العربية الأخرى، أن هذه المملكة كانت تحمل معها عوامل انهيارها منذ البدايات الأولى لهجرة شعبها من شبه الجزيرة العربية. فحين نقرأ المعلومات المتاحة عن تاريخ الأنباط إلى جانب النقوش التي قامت البعثة الفرنسية بنشرها في دراستها الميدانية بمنطقة "مدائن صالح" ، سوف نجد أن المصادر التاريخية تقول بأن الأنباط يمثلون أول دولة متحدة قامت على الأطراف الخارجية لمنطقة فلسطين في القرن الخامس ق.م[١] وكانت عاصمتها "البتراء"[٢]. وهي محطة هامة على الطريق التجاري الممتد على حافة شبه جزيرة سيناء[٣]. وبلغت دولة الأنباط ذروة ازدهارها في الفترة السابقة للاحتلال الروماني لسورية سنة ٦٥ق.م حيث كانت كل المنطقة الواقعة شرق وجنوب فلسطين حتى مدينة الحجر (مدائن صالح حالياً) خاضعة لهم، وكان الأنباط متأثرين إلى حد كبير بلغة وحضارة الآراميين.[٤] وكان فتح الرومان للشرق مؤشراً لاضمحلال ونهاية دولة الأنباط حيث تحولت المملكة على يد الإمبراطور "تراجان" إلى ولاية رومانية سنة ١٠٥م.[٥]

هذا هو مجمل ما يذكره التاريخ عن دولة الأنباط التي ندرس الآن نقوشها ونحاول أن نخرج منها بالمزيد من المعلومات عن هذه الدولة. وحين نقرأ الإطار الأساسي والعام للشعب النبطي والدولة التي نجح في إقامتها، لن نجد في هذا الإطار سوى تكرار لأوضاع القبائل العربية القديمة سواء في ذلك من نجح منهم في إقامة دولة أو من بقى على حاله في ظل القبلية والتجوال. ففي حالة الأنباط، تبدأ مراحل دولتهم بالهجرة من الجزيرة العربية إلى أطراف بادية الشام، وهي هجرة معتادة قام بمثلها العديد من القبائل العربية طوال تاريخهم القديم هرباً من قسوة الصحراء وبحثاً عن سبل أفضل للحياة في المناطق الصالحة للزراعة. وحين نجح الأنباط في الاستقرار في موطنهم الجديد كان تراثهم السياسي هو ذات التراث الذي كان لأقرانهم من العرب. ولم يكن هذا التراث يسمح

---

١ جواد علي ١٣/٣

٢ ياقوت - معجم البلدان ٣٣٥/١

٣ ياقوت - معجم البلدان ٢٢١/٢

٤ جواد علي ٦/٣

٥ Doughty , Travels in Arabia Deserta , 41

عن: محمد عزب دسوقي - القبائل العربية في بلاد الشام - القاهرة - ١٩٩٨ - ص ٣١ - هـ ٢٥

بأكثر من دولة شبيهة بالقبيلة، أي أن سلبيات النظام السياسي القبلـــي كـــان لابـــد مـــن استمرارها في النظام الملكي الذي تحولت إليه دولة الأنباط بعد اســـتقرارها وتوحيدهـــا. وحين نستكمل قراءة آليات وتفاصيل هذا النظام من خلال النقوش الآرامية المنشورة مـــن منطقة "مدائن صالح"، سوف نجد أن الأنباط كانوا في واقع الأمر مجرد قبيلة كبيرة تحول اسم شيخها إلى "ملك". فالأوصاف التي تطلق على الملـــوك، ومـــدة حكـــم كـــل منـــهم، والمؤشرات الواضحة على غياب الشكل الصحيح للدولة في حده الأدنى، ومركزية الحكم، وغياب المشاركة السياسية من جانب الشعب، كل هذا كان يمثل الملامح الأساسية للنظـــام السياسي في دولة الأنباط كما نفهم من مجمل تاريخها المعروف ومن النقـــوش الآراميـــة المنشورة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان النجاح السياسي والعسكري والتوسعي الذي واكب دولة الأنباط يمثل هو الآخر نجاحاً من "النوع العربي" وهو ذلك النوع من النجـــاح الذي لا يعتمد على العلم والتخطيط بقدر ما يعتمد على الصدفة أو حسن الطالع أو جـــهود الآخرين.[1] فمثلما كان نجاح زنوبيا ملكة "تدمر" في تحدي الرومـــان وتوســـيع مملكتـــها والاستقلال بها ردحاً من الزمان لا يرجع إلى استراتيجية واضحـــة المعـــالم وإمكانيـــات حقيقية مستقرة ودائمة،[2] فإن نجاح الأنباط أيضاً وتوسعهم في هذه المنطقة وتكوين دولتـــهم لم يكن يرجع إلى استراتيجية واضحة المعالم وإمكانيات حقيقية مستقرة ودائمـــة، ولـــهذا السبب والت كلتا الدولتين وتحولت كل منهما مع الزمن إلى قسم إداري في دولة كبرى لا يحكمها العرب فضلاً عن أبنائها أنفسهم. وفي حالة دولة "الأنباط" كان النجاح وليد عوامل

---

[1] تاريخ شمال شبه الجزيرة العربية وبادية الشام قبل الإسلام يمثل - بصفة عامة - تاريخ الأحداث التـــي شـــهدتها جماعات سياسية صغيرة قامت الواحدة تلو الأخرى على طول حدود الصحراء من ساحل البحر الأحمر إلى أطـراف فلسطين وسورية وأرض الرافدين، وكانت هذه الدويلات قصيرة العمر لأنها لم تكن ســـوى نتـــاج فرعـــي لعمليـــة الاتصال بين منطقة البداوة ومنطقة الحضارة ، فلم تكن فقط ملتقى موجات الهجرة القادمة من الصحراء، وإنما كانت في نفس الوقت حاجزاً بين البدو والحضر. أنظر: محمد عزب دسوقي - المرجع السابق - ٣٠/٢٩

وعن أوضاع العرب في دويلات الشمال بصفة عامة: انظر:

جواد علي ٦/٣

ياقوت - معجم البلدان - ١٣٨/٦

موسكاتي: الحضارات السامية القديمة - ٢٠٤

ابن خلدون: العبر - ٢٠/٢

[2] جواد علي ١٠٣/٣

عديدة ليس بينها المنهج العلمي أو الفكر السياسي أو حتى بعد النظر. فقد نجح الأنباط في تكوين دولتهم لأن مسرح الأحداث في المنطقة في ذلك العصر كان يحفل بصراعات قادة الاسكندر المقدوني حول حق خلافته وتقسيم إمبراطوريته. وهو ذات العامل الذي أدى إلى نجاح زنوبيا ملكة تدمر في الاستقلال بدولتها والتوسع غرباً، حيث كان الرومان في ذلك الحين ينشغلون عنها بالخطر الذي يواجه إمبراطوريتهم في عقر دارها. وكما انتهى أمر الأنباط فيما بعد إلى مجرد مقاطعة في إمبراطورية الرومان، فإن "تدمر" قد لقيت نفس المصير وعلى أيدي الرومان أيضاً فيما بعد.

التراث السياسي القبلي الذي حمله معهم العرب المهاجرون من الجنوب إلى الشمال كان بئس الزاد لهؤلاء العرب. فهم لا يملكون خبرات أو تجارب سياسية حقيقية في إدارة شئون دولة كبرى – أو صغرى – وهم لا يجيدون فنون التعامل السياسي مع الدول الأخرى المتآخمة لهم، وهم لا يملكون تجارب اجتماعية وتركيب طبقي يسمح بنتاج ديمقراطي من أي نوع حقيقي، وهم فوق هذا وذاك أبعد ما يكونون عن فكرة الوحدة السياسية مع أقرانهم من العرب أو سكان شبه الجزيرة العربية.[1] وهذه النقطة الأخيرة تمثل أحد الأسباب الجوهرية في انهيار الدويلات العربية المتتابعة شمال شبه الجزيرة العربية. فكما كان التشرذم هو طابع القبائل العربية طوال تاريخها القديم، فإنه كان أيضاً طابع الأوضاع السياسية للعرب الذين هاجروا من داخل شبه الجزيرة إلى شمالها. ولا يذكر التاريخ أية محاولات للوحدة السياسية بين هذه الدول في أي عصر من عصورها، بل العكس هو الصحيح. فقد كان العداء بين المناذرة والغساسنة في العصور اللاحقة لصالح الفرس والروم يمثل دليلاً قاطعاً على استحالة الوحدة بين الدويلات العربية وغفلة شعوبها وحكامها عن أي فكر سياسي سوي وصحيح يمكن أن يقودها إلى تلافي حتمية السقوط في براثن القوى الكبرى التي كانت تعمل لصالحها.[2]

لم يكن بوسع دولة الأنباط – إذن – أن تستمر أو تتوسع أو تواصل التصدي للدول الكبرى المتاخمة لها، كما لم يكن بوسعها أيضاً أن تسعى للوحدة مع جيرانها من

---

[1] جواد على ٣١٩/٢ ، فيليب حتى: تاريخ سورية ٦٦/١،٦٧

[2] فيليب حتى: تاريخ العرب ١٠٥/١

العرب لتكوين دولة كبرى على غرار الدولة الرومانية أو غيرها. فالأنباط لم يكونوا يملكون مقومات بناء مثل هذه الدولة. والعرب بصفة عامة في ذلك الوقت لم يكن بين تراثهم السياسي وإمكانياتهم الفعلية ما يجعلهم قادرين على إقامة دولة ذات أساس سياسي أو عسكري أو علمي راسخ وصحيح. والمتاح في هذا الوقت هو الذي تحقق بالفعل، فقد نجح الأنباط لفترة من الفترات ولظرف من الظروف في إنشاء دولة مستقلة ذات سيادة، وحين تغير الزمان وتغيرت الظروف – ولم يتغير الأنباط أنفسهم – كان من الطبيعي أن تزول دولتهم ويعودون سيرتهم الأولى شعباً من القبائل لم تتح له الأقدار نصيباً من الفكر السياسي والتجارب والخبرات الفعلية يسمح له بأن يكوّن دولة حقيقية. والأمر هنا لا يقتصر على زوال دولة الأنباط وسائر الدويلات العربية الأخرى في عصور ما قبل الإسلام فحسب، ولكن بقليل من الموضوعية يمكننا أن ننظر إلى الموقع الحالي في الخريطة العربية لأحفاد الأنباط وتدمر والغساسنة والمناذرة وغيرهم من عرب ما قبل الإسلام، ولن نعدم في نظرتنا هذه مؤشرات واضحة تؤكد عدم شفاء العرب من أدوائهم القديمة بعد. فما زال العرب حتى يومنا هذا يمارسون الكثير من الأخطاء التي أطاحت بممالكهم ودويلاتهم القديمة، وإن كان الواقع السياسي العالمي في عصرنا هذا لم يعد يسمح بالإطاحة بالدول، فإنه لا يزال يسمح بالإطاحة بمصالحها وفرصها في التقدم والرقي ما دامت تحتفظ بآليات سياسية عفا عليها الزمن وأثبت التاريخ والجغرافيا وسائر العلوم الاجتماعية والتجارب السياسية أنها لا تصلح لصنع كيان دولي قوي عتيد.

٣ – قراءة اجتماعية للنقوش النبطية

ما تذكره المصادر التاريخية عن الأوضاع الاجتماعية لمملكة الأنباط لا يخرج عن المعلومات القليلة التي تؤكد أنهم يمثلون إحدى الهجرات الموسمية من الصحراء إلى المناطق المزروعة في الشمال، وانهم يمثلون أهم هذه الهجرات التي اختلطت فيها العناصر الآرامية بالعناصر العربية في القرن السابع ق.م.[١]. وأن الأنباط كانوا متأثرين بلغة وحضارة الآراميين بصورة واضحة.[٢] كما تقول المصادر التاريخية أيضاً أن الدخل الأساسي لهذه المملكة كان يرجع إلى مرور الطرق التجارية بأراضي الدولة، حيث كانت عاصمتهم "البتراء" قد ازدهرت منذ ختام القرن الرابع ق.م وظلت نحو أربعمائة عاماً تشغل مركزاً هاماً على طريق القوافل بين سبأ وثغور الشمال، واستمرت أحوال الأنباط مزدهرة رغم ظهور السلوقيين والبطالمة ثم الرومان في هذه المنطقة، وتمكن الأنباط من السيطرة على الحجر (مدائن صالح) شمال الحجاز في القرن الأول الميلادي.[٣] وزالت الدولة سنة ١٠٥م كما سبق أن ذكرنا وتحولت عنهم خطوط تجارة الشرق، واستمر الأنباط رغم زوال دولتهم في ممارسة التجارة وقيادة القوافل، ويبدو من النقوش الأثرية أنهم قد استمروا في هذا النشاط حتى القرن الثالث الميلادي.[٤] هذه المعلومات هي تقريباً كل ما تذكره المصادر التاريخية عن الأنباط وتاريخهم السياسي والاجتماعي. وسوف نحاول فيما يلي إضافة أية معلومات ممكنة حول التاريخ الاجتماعي للأنباط من خلال النقوش الآرامية المنشورة في تقرير البعثة الفرنسية من منطقة "مدائن صالح".

أ – أول ما يمكن استنتاجه من النقوش الآرامية في منطقة مدائن صالح هو أن الأنباط كانوا يشاركون شعوب شبه الجزيرة العربية وقبائلها في المعتقدات الدينية السائدة في عصور ما قبل الإسلام. فمن خلال هذه النقوش نكتشف أن الأنباط كانوا يعبدون العديد

---

[١] جواد علي ٦/٣ – ١١
[٢] جواد علي ٦/٣
[٣] عبد الله خورشيد البري – المرجع السابق ٢٦ – ٢٧
[٤] جواد علي ٣٨٤/٢ ، ٣٨٦ ، ٣١/٣ – ٣٢ – ٥٤

من الآلهة منهم الآلهة العامة والآلهة المحلية. وكان من الأمور المعتادة لديهم أن يؤمن الشخص بأكثر من إله من هذه الآلهة في وقت واحد، أي أن المملكة النبطية – مثل شبه الجزيرة العربية بصفة عامة – لم تكن تجعل من أحد الآلهة إلهاً رئيسياً أو رسمياً للبلاد وإنما كانت الديانة أمراً شخصياً يرجع لطبيعة وقناعة كل شخص، وليس للدولة أو حتى الأعراف السائدة شأن في هذا.

ففي أحد نقوش منطقة مدائن صالح، وفي معرض حديث صاحب المقبرة – من خلال النقش – عن الحماية المقررة لمقبرته من جانب الآلهة، يذكر ثلاثة من هذه الآلهة بوصفها المسئولة عن هذه الحماية، والآلهة الثلاثة من الآلهة المعروفة في الجزيرة العربية بصفة عامة (هبل – مناه) والإله الثالث (دوشرا) من آلهة الشمال في أغلب الأحوال.[1]

معنى هذا النقش أو معنى ذكر الآلهة الثلاثة على هذا النحو يؤكد أن الأنباط كانوا يعرفون سائر ما يعرفه سكان شبه الجزيرة العربية من آلهة، وأن علاقة الأنباط بمنطقة الحجاز تتعدى حدود الجوار الجغرافي إلى الأصول العنصرية والإثنية. ويؤكد هذا النقش أيضاً نقطة أخرى على جانب كبير من الأهمية، وهي أن موقف الأنباط من الدين – بصفة عامة – لم يكن يختلف كثيراً عن موقف سائر قبائل شبه الجزيرة. فالدين في شبه الجزيرة العربية خلال تاريخها القديم لم يكن يمثل أحد المحاور الرئيسية لحياة الناس. ولم يكن أحد العوامل ذات التأثير الجذري في حياة العرب. ولا يذكر التاريخ القديم حروباً بين العرب على أسس دينية أو بدوافع تتعلق بالفكر الديني أو العقائدي. كما أن العلاقات الاجتماعية والسياسية بين القبائل وفي داخلها لم تكن تؤسس على الانتماء الديني أو العقائدي. وذات هذا السبب هو ما أدى إلى تعدد الآلهة والديانات والعقائد ليس بين دويلات وقبائل شبه الجزيرة العربية فحسب، وإنما في داخل نفس القبيلة ونفس الدويلة وربما نفس الأسرة أيضاً، وهو الأمر الذي نلمسه بوضوح في النقش النبطي الذي نحن بصدده حيث يتوزع ولاء الأسرة الواحدة التي تمثلها صاحبة المقبرة بين ثلاثة من الآلهة في وقت واحد.[2]

[1] Mission - 1 - 169

[2] عن العقائد الدينية لدى العرب قبل الإسلام، أنظر: عبد المنعم ماجد – المرجع السابق، محمد بيومي مهران – المرجع السابق، نجيب ميخائيل – مصر والشرق الأدنى القديم – الجزء الثالث، موسكاتي – الحضارات السامية القديمة، جورجي زيدان – تاريخ العرب قبل الإسلام.

ومن الشواهد الأخرى التي تؤكد تشابه الأنبـــاط مــع عــرب شــبه الجزيــرة في عدم وجود تأثير محوري للدين في حياتهم أن ذكـــر الآلهــة فــي نقــوش الأنبــاط الجنائزية في منطقة "الحجر" أو "مدائن صالح" لا يمثــل أمــراً ضرورياً يتكــرر فــي سائر هذه النقوش، بل ربما أن العكس هو الصحيـــح، فمــن بيــن النقــوش التــي تــم نشرها في تقرير البعثة الفرنســية أثنـــاء دراســتهم لــهذه المنطقــة نجــد أن النقــوش المذكور بها الآلهة تعد أقلية بالنسبة للنقوش الأخـــرى التــي تخلــو تمامــاً مــن ذكــر الآلهة.[1] وهو الأمر الذي يعد دليلاً منطقياً على عـــدم وقــوع الديــن – بصفــة عامــة – في بؤرة حياة الشعب النبطـــي ودائــرة اهتماماتـــه الرئيســية، مثلمــا كــان الحــال بالنسبة لشعوب شبه الجزيرة الأخرى. فلو أن الدين يمثـــل إحــدى القيــم الهامــة فــي حياة هذا الشعب ما كانت المقابر بـــالذات مــن الأمـــاكن التــي يمكــن أن تخلــو مــن أسماء الآلهــة.

ب – في نفس هذا السياق – أي الحياة الدينية للأنباط – نستنتج أيضـــاً بعــض ملامح التركيب الاجتماعي أو الاثنولوجي للشعب النبطي. فمن خلال أسماء الآلهـــة – أو الديانات – المذكورة على جدران المقابر أو النصب التذكارية الموجودة في "الحجـــر" أو "مدائن صالح" نجد العديد من الآلهة المختلفة التي كان كل منها يعبد – في أغلب الأحـوال – في منطقة معينة من مناطق شبه الجزيرة العربية. ووجود كل هذه الآلهة في النقـــوش النبطية يعني – إلى جانب حرية العقيدة في المملكة – وجوداً عنصرياً يرجع إلى أصـــول متعددة في شبه الجزيرة العربية بوجه عام . وحين نتناول هذه المسألة فـــي شـــيء مـــن التفصيل، فإننا ينبغي أن نشير إلى الآلهة المذكورة في النقوش النبطيـــة وإلـــى المنـــاطق الأصلية في شبه الجزيرة والتي كانت المراكز الأصلية أو الرئيسية لعبادة هذه الآلهة.

الإله "دوشرا" أو "ذو الشرى" هو إله النبط الكبير الذي نشر الأنباط عبادته فـــي أماكن تجاوزت حدود نفوذهم، وجاء ذكره في النقوش الثمودية والصفوية، ويقال أن الإسم الآرامي القديم لهذا الإله هو (عرا) وأن، "دوشرا" هو لقب عربي أطلقه الأنباط على هـــذا

---

[1] Mission, 1 – 186 (a) 186 (b),187,189,193,194,201,202,207,208…etc

الإله، ومعناه "سيد شرا" أو سيد "الشراة" التي هي جنوبي البتراء.[1] والمصادر اليونانية ذكرت هذا الإله وأشارت إلى أنه إله عربي وشبهته بالإله اليوناني "ديونيسوس".[2]

و"دوشرا" عند الأنباط هو نفسه "ذو الشرى" عند العرب، وقد جاء ذكر "ذو الشرى" مع اسم "مناة" و "هبل" في الكتابات النبطية. ويشير "ابن الكلبي" إلى أن "ذو الشرى" كان صنماً لبني "الحارث بن يشكر بن مبشر بن الأزد" وكان صنماً "لدوس" من "خزاعة".[3] "دوشرا" إذن يمثل إلهاً نبطياً وعربياً في نفس الوقت. وقد ورد ذكر هذا الإله في النقوش النبطية في مدائن صالح أكثر من مرة، والطريقة التي يذكر بها في النقوش النبطية فضلاً عن عدد مرات ظهوره، تؤكد أنه كان الإله الرئيسي لهذا الشعب.[4]

"اللات" كانت كبيرة آلهة الصفويين وأهم الآلهة لديهم. وعرفها أيضاً اللحيانيون.[5] وكانت هذه الإلهة أيضاً من آلهة الأنباط في حوران والحجاز، وكان الأنباط يعتبرونها أم الآلهة.[6] وقد وردت اللات في النقوش النبطية التي ترجع إلى السنوات ما بين ٤٠ – ٦٥م حيث تتحدث هذه النقوش عن اللات وعن المعبد الذي أقيم لها في حوران والسدنة الذين يقومون على خدمتها، كما أن هناك نقشاً آخر يذكر فيه كاهن اللات في حوران[7]. واللات كانت معروفة أيضاً في نقوش وعبادات تدمر، وتصور في الآثار في صورة شبيهة بالإلهة اليونانية "أثينا" إلهة الحكمة.[8] كما أن إسم هذه الإلهة كان يضاف إلى أسماء أهل تدمر ومنهم " وهب اللات" آخر ملوك هذه الدولة.[9]

واللات بصفة عامة هي أحد الأصنام القديمة الشهيرة لدى العرب، وقد تكون قد انتقلت إلى الحجاز من الأنباط والقبائل العربية الشمالية. وكان العرب

---

[1] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٣٥٦
[2] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٣٥٦
[3] ابن الكلبي: كتاب الأصنام – القاهرة ١٩١٤ – ص ٣٨
[4] Mission – 1 – 156,169,179,188,192
[5] محمد بيومي مهران – تاريخ العرب القديم – ٥٢٥ وما بعدها.
[6] نفسه – ٥٢٠ وما بعدها
[7] موسكاتي – المرجع السابق – ٣٥٩
[8] محمد بيومي مهران – تاريخ العرب القديم – ٥٣٣ وما بعدها
[9] محمد بيومي مهران – نفسه

يعظمون بيت اللات وعبادتها حتى أن "ثقيف" كانت تخص "اللات" بما تخص به قريش "العزى". وهناك من المصادر العربية ما يشير إلى أن "عمر بن لحي" هو الذي أدخل اللات بين معبودات العرب.[١] وكان للات حمى وحرم بجوار الطائف يقصده الحجيج ويقدمون لها الذبائح، وتم تحريم قطع الأشجار والصيد والقتل في هذا المكان بوصفه من الأماكن الحرم ذات القداسة.[٢]

"مناة" هي نفسها "منوتو" عند الأنباط و "منوت" عند تدمر و "منت" عند اللحيانيين والثموديين.[٣] وتقول المصادر العربية أن كل العرب كانوا يعظمون ويعبدون "مناة"، وكانت الأوس والخزرج أشد وأكثر الناس تعظيماً لهذا الصنم، كما كان الأوس والخزرج ومن يسير على دربهم من عرب يثرب يحجون مع الناس ولكنهم لا يحلقون رؤوسهم إلى أن يعودوا من رحلتهم فيأتوا بصنم مناة ويحلقون رؤوسهم أمامه، ويعتبرون أنهم بذلك قد أتموا الحج.[٤] وكانت شهرة وانتشار مناة سبباً في دخوله في تركيب كثير من أسماء العرب مثل "عبد مناة" و "أوس مناة" وغيرهما. وقد انتشرت عبادة "مناة" بين كثير من قبائل العرب أهمها – كما ذكرنا – الأوس والخزرج إلى جانب هذيل وخزاعة.[٥]

وفيما يتعلق بالأنباط فأنهم كانوا يعبدون "مناة" أيضاً وأقاموا لها معبداً واعتبروها معبوداً قائماً بذاته، مشاركاً في ذلك "دوشرا" أو " ذو الشرى" وتقتصر النقوش النبطية التي ورد فيها إسم "مناة" على تلك التي عثر عليها في "مدائن صالح".[٦]

"هبل" هو أعظم أصنام قريش، وأعظم أصنام الكعبة التي أتخذ منها العرب مقراً لأصنامهم وأوثانهم. وكان عدد الأصنام في الكعبة يزيد عن ٣٦٠ صنماً منها الكبير ومنها

---

[١] ابن الكلبي – المرجع السابق – ٤٣/٢٧/١٩/١٦
ياقوت – معجم البلدان – ٥/٤
[٢] جواد علي ٢٣٣/٦ – ٢٣٥
محمد بيومي مهران – الحضارة العربية القديمة – ٣٦٢
[٣] محمد بيومي مهران – نفسه – ٣٧٨
[٤] ابن الكلبي – المرجع السابق – ١٥/١٣
[٥] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٣٨١
[٦] Mission - 1 - 169

الصغير وإن كان أكبرها جميعاً هو "هبل" هذا.[1] ويختلف المؤرخون حول بداية وجود "هُبل" في الكعبة، فيقول فريق منهم أن "خزيمة بن مضر" هو أول من أتى به. ويرى فريق آخر أن "عمرو بن لحي" هو أول من جاء بهبل من مؤاب أو العراق، ويبدو الرأي الأخير أكثر صواباً لأن الإسم (هبل) مشتق من كلمة آرامية معناها (الروح).[2]

وهبل كان يمثل أحد الآلهة الكبرى بالنسبة لقريش، وكان القرشيون يلوذون به ويتوسلون إليه جلباً للخير والبركة والانتصار في الحروب وكف الأذى. وكان كفار قريش يهتفون باسم هذا الصنم أثناء قتالهم المسلمين خاصة في غزوة أحد.[3]

ولم تكن عبادة "هبل" قاصرة على قريش أو الحجاز فحسب، ولكن هناك ما يشير إلى انتشار عبادته في قبائل ودويلات عرب الشمال. ويرى ياقوت الحموي أن هُبل كان صنماً لبني كنانة، وكانت قريش تعبده، وكنانة كانت تعبد معبودات قريش وهم هبل واللات والعزى.[4] وقد ورد هُبل كما سبق أن رأينا في النقوش النبطية في مقابر مدائن صالح.[5]

هكذا إذن يمكن أن نستنتج من تكرار أسماء آلهة شبه الجزيرة العربية في النقوش النبطية أن الشعب النبطي أولاً من الشعوب التي تنتمي انتماءً أصيلاً إلى هذه المنطقة، وليسوا من العجم كما تصفهم بعض المصادر،[6] وأن الشعب النبطي ثانياً، لم يكن يمثل عنصراً واحداً فحسب من الناحية الإثنولوجية وهو أمر سوف نتأكد منه فيما بعد حين ننظر في أسماء الأنباط كما وردت في نقوشهم.

---

[1] ابن الكلبي – المرجع السابق – ١٣

[2] ابن الكلبي – المرجع السابق ٢٨، اليعقوبي ٢٥٤/١

[3] الطبري ٥٢٦/٢

[4] ياقوت ٣٩١/٥

[5] Mission - 1 - 169

[6] جواد علي ٣/٦–١١

الزبيدي: تاج العروس ٢٢٩/٥

ابن منظور: لسان العرب ٢٨٨/٩

عن: محمد عزب دسوقي – المرجع السابق – ٢٩ – هامش (٧).

ج – التشابه بين قبائل ودويلات شبه جزيرة العرب وبين الأنباط في المعتقدات الدينية لا يبدو قاصراً فقط على الديانات الوثنية أو عبادة الأصنام كما سبق أن رأينا. وإنما يتشابه الفريقان أيضاً في تواجد العناصر الدينية من الأقليات أو أصحاب الديانات السماوية أو الديانات المجهولة في كل منهما. فعلى حين كانت شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام مسرحاً لكافة العقائد والأديان والمعتقدات والعبادات بداية من الحنفاء وانتهاء بالملاحدة أو من لا يؤمنون بأية أديان من الأصل[1]، فإن الأنباط أيضاً لم تكن عقائدهم تقتصر على الأصنام أو معبودات شبه الجزيرة الشائعة، وإنما كان بينهم أيضاً اليهود وأصحاب العقائد والأديان الأخرى.

ففي أحد النقوش النبطية التي نشرتها البعثة الفرنسية أثناء عملها بمنطقة مدائن صالح نجد أن صاحب المقبرة المقام عليها النقش هو شخص يهودي يسمى شوبايتو ابن عليع وزوجته هي عميرات.[2] والاسم الموجود في هذا النقش لا يمثل إسماً غريباً عن الأسماء الآرامية أو أسماء الأنباط بصفة خاصة، وكذلك أيضاً اسم الزوجة. أي أن الرجل في هذه الحالة هو أحد مواطني مملكة الأنباط وليس من الأجانب أو الوافدين أو الغرباء. وهذا الوضع يعني أن الديانة اليهودية كانت من الديانات الشائعة في مملكة الأنباط. ويعني أيضا أن أصحاب هذه الديانة لم يكونوا يمثلون أقلية عنصرية أو دينية، ولو كانوا كذلك ما أقام أحدهم مقبرته بين مقابر سائر القوم الآخرين الذين ينتمون للديانات الوثنية.[3] كما أن معنى وجود النقش على هذه المقبرة حتى الآن – وقت الدراسة الميدانية – يدل على أن اليهود في مملكة الأنباط كانت لهم نفس الحقوق الدينية والمدنية المكفولة لسائر المواطنين، حيث أن الوضع لو كان مخالفاً لذلك ما كان ليسمح لشخص من اليهود أن يقوم ببناء مقبرته بين مقابر أصحاب الملل والعقائد الآخرى، فضلاً عن أن يكتب نقشاً على المقبرة يؤكد فيه أنه يهودي ويستمر هذا النقش دون أن يتعرض لأي نوع من الطمس أو التدمير.

---

[1] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٣٠٩ وما بعدها

[2] Mission - 1 - 148

[3] المقبرة المشار إليها تقع بين مقابر الأنباط في مدائن صالح ولا يوجد ما يدل على أنها ضمن مجموعة طائفية من هذه المقابر Mission - ibid. - pp. 148 - 151

وهو الأمر الذي يؤكد بشكل قاطع الوجود اليهودي الآمن في المملكة ويؤكد أيضاً أن الدين لم يكن مسألة محورية ذات شأن في هذا المجتمع.

والتواجد اليهودي في مملكة الأنباط يمكن تفسيره بسهولة من خلال نفس التواجد اليهودي في الحجاز بصفة عامة وفي يثرب على وجه الخصوص، ومن خلال عدم اكتراث سكان شبه الجزيرة والقبائل العربية منذ بداية تاريخهم بمسألة الدين ونظرتهم إليه بوصفه أمراً غير محوري لا ينبغي أن يكون من الصيغات الأساسية للعلاقات فيما بينهم. وعلى الرغم من اختلاف المصادر التاريخية حول تاريخ التواجد اليهودي في شبه الجزيرة العربية فإن أقرب الآراء تقول بأن اليهود قد فروا إلى الحجاز واستقروا هناك بعد تدمير القدس مرتين (٧٠م – ١٣٥م) على يد الرومان.[١] والنقش الذي نحن بصدده قد يتسق مع الفرار الأول لليهود إذا نظرنا إلى إسم الملك المذكور في النقش باعتباره آخر الملوك المعروفين من مملكة الأنباط – ماليكو الثالث –[٢] والذي اعتلى العرش بعد ٧١م، وهو تاريخ لا يتعارض مع تاريخ تدمير القدس للمرة الأولى وفرار اليهود منها إلى الجزيرة العربية. وإن صح هذا التفسير فإن الإيماء الأول الذي يأتي من هذا النقش هو سرعة تأقلم اليهود في هذا المجتمع الجديد، وسرعة قبول المجتمع لهم بحيث يكون من حق أحدهم أن يقيم مقبرته في نفس الأماكن المخصصة لمقابر المواطنين القدامى من غير اليهود، وأن يكون من حقه أيضاً أن يشير إلى ديانته على جدران هذه المقبرة دون أن يثير ذلك أي نوع من الضغائن أو الاستنكار.

وفي إطار أوصاف الآلهة التي تذكرها النقوش النبطية في مدائن صالح نجد أن هناك أيضاً ما يشير إلى عقائد أخرى خلاف ما سبق أن ذكرناه، بشأن عبادة الأصنام أو الديانة اليهودية. ففي أحد النقوش النبطية التي تخص المنطقة المشار إليها لا نجد اسماً لإله معين، ولكن هناك وصفاً ينسب لإله – غير المسمى – بأنه القادر على فصل الليل عن النهار.[٣] وفي نقش آخر من ذات هذه المنطقة نجد أن الإله أو الآلهة المذكورة في

---

[١] جواد علي ٦/٥١٤

[٢] Mission - 1 - 204

[٣] Mission - 1 - 142

النقش هي اسم جديد في هذا المجال – تاواي أو تارا – والأرجح أن تكون إحدى الإلهات المحلية في موطن صاحبة المقبرة – منطقة تيما – ولهذا السبب قامت صاحبة المقبرة بوضع نفسها في حمايتها.[١]

وفي نقش ثالث من نفس المنطقة أيضاً نجد أن الإله المذكور هنا ليس من الأسماء التقليدية أو غير التقليدية، ولكنه هذه المرة إله يوصف بأنه (سيد الكون) وهو أيضاً استخدام جديد في النقوش النبطية تقول البعثة الفرنسية أنه يوازي استخدام المسلمين لكلمة (رب العالمين)[٢]

وفي نقش رابع نجد وصفاً آخر لإله جديد يشار له باسم "سيد المنزل"، ويتكرر هذا الوصف في نقشين آخرين الثاني منهما يضيف لهذا الوصف كلمة "الإله"، مما يعني أن كلمة "سيد المنزل" يقصد بها الإله، وان كان هذا الإله لا يذكر بإسم معين من أسماء الآلهة المعروفة للأنباط أو غيرهم.[٣]

ومن خلال هذه الأسماء أو الأوصاف التي نصادفها على النقوش النبطية يمكن أن نؤكد أن الأنباط – شأنهم في ذلك شأن سائر العرب – كانوا يعرفون من الديانات ما يتراوح بين ديانة الحنفاء وبين الإنكار المطلق للآلهة. وأنهم بين هذا وذاك كانوا يعبدون كل ما كان يعبده الآخرون ويعتنقون ذات الفكر الديني الذي كان سائداً في الجزيرة العربية. ومثلما كان الحال في التاريخ العربي القديم بصفة عامة، فإننا لا نجد في وثائق دولة الأنباط ما يشير إلى أي دور لعبه الدين في الحياة السياسية أو الاجتماعية لهذا الشعب.

د – أسماء الأشخاص الواردة في نقوش الأنباط في منطقة مدائن صالح تمثل هي الأخرى أحد العناصر الموحية التي يمكن استخدامها في استطلاع بعض جوانب الحياة والأوضاع الاجتماعية في المملكة النبطية.

---

[١] Mission - 1 - 162

[٢] Mission - 1 - 172

[٣] Mission -1 - 213, 216, 217

وأهم ما يمكن أن نخرج به في هذا السياق هو أن الحياة في مجتمع الأنباط كانت تتسع لقطاع عريض من العناصر البشرية. ولم تكن هذه الدولة أو الدويلة قـاصرة علـى فصيل بعينه من العرب أو عنصر معين من العناصر القبلية في شبه الجزيـرة العربيـة. ذلك أن الأسماء الشخصية لأصحاب المقابر تتسع للعناصر الآرامية والعربية والأجنبية في آن واحد. ففي العديد من النقوش التي نشرها الفرنسيون من منطقة مدائن صـالح هنـاك الأسماء الآرامية الصريحة مثل نافيو – حابو [١]– حوشايكو – جوزايات[٢] – شـوبايتو – عليع [٣]– هانيو تافصا [٤]. وغيرها. وهناك أيضاً أسماء آرامية ذات أصول عربية مثـل: هاجارو (هاجر) [٥] – كاعابو (كعب)[٦]– موجيرو (مجـير)[٧]– أبيـان (أبّـي)[٨]– مـاطيو (مطّى)[٩]– عايدات (عايدة)[١٠]– عدنون (عدنان)[١١]– توراء (ثور)[١٢]– معاويو (معاويـة)[١٣]– شاعدو (سعد)[١٤]– وابراه (وبرة)[١٥]– زاييو (ذئب)[١٦]– عقبو (عقبة)[١٧]– قانيو (قين)[١٨]–

---

[١] Mission - 1 - 142
[٢] Ibid. 145
[٣] Ibid. 148
[٤] Ibid. 151
[٥] Ibid. 165
[٦] Ibid. 172
[٧] Ibid. 182
[٨] Ibid. 186
[٩] Ibid. 193
[١٠] Ibid. 202
[١١] Ibid. 202
[١٢] Ibid. 204
[١٣] Ibid. 207 (2)
[١٤] Ibid. 212
[١٥] Ibid. 220
[١٦] Ibid. 220
[١٧] Ibid. 222
[١٨] Ibid. 223

شامسو (شمس – شميس)[١]- أودينات (أذنية)[٢]- معناء (معـــن)[٣]- عوتيـل (عوثالـــة)[٤]- جوشام (جشم)[٥]- جوبايلو (جبلة)[٦]- بانون (بنانة)[٧]- حابيبا (حبيب)[٨]- زاكيو (زكـــي)[٩]- لخمو (لخم)[١٠]- جاميش (جمش)[١١]- واكيلا (وكيـــل)[١٢]- بــاعتي (بعيــث)[١٣]- راقــامو (الأرقم)[١٤]- لاطيفو (لطيف)[١٥].

وإلى جانب الأسماء الآرامية والأسماء ذات الأصل أو الاشتقاق العربي، نجد فــي هذه النقوش أسماء عربية صريحة أو أسماء يونانية، ومنها على سبيل المثال:
زريق (عربي – سورياني)[١٦] ،عقرب (عربي)[١٧] ، منياركو (يوناني)[١٨] ، هـــيراكليوس، (يوناني)[١٩] ، تيتوس (يوناني)[٢٠] ، أو (روماني) ، مـــاجوس (يونـــاني)[٢١] ، نيقومـــاكوس (يوناني)[٢٢] ، سالمان (عربي)[٢٣] ، لوكيوس (روماني)[٢٤] ، يوفرنيوس (يوناني) [٢٥].

---

١ Ibid. 223
٢ Ibid. 226
٣ Ibid. 226
٤ Ibid. 227
٥ Ibid. 228
٦ Ibid. 231
٧ Ibid. 231
٨ Ibid. 234
٩ Ibid. 234
١٠ Ibid. 234
١١ Ibid. 236
١٢ Ibid. 236
١٣ Ibid. 237
١٤ Ibid. 238
١٥ Ibid. 239
١٦ Mission, 1 - 238
١٧ Ibid. 234
١٨ Ibid. 234
١٩ Ibid. 232
٢٠ Ibid. 228
٢١ Ibid. 227
٢٢ Ibid. 228
٢٣ Ibid. 226
٢٤ Ibid. 219
٢٥ Ibid. 193

من هذا العرض لبعض الأسماء الواردة في النقوش النبطية بمنطقة مدائن صـــالح يمكننا أن نتوصل إلى بعض الملامح المفترضة للنظام الاجتماعي في مملكة الأنباط، وأهم ما نخرج به في هذا الصدد يمكن إيجازه فيما يلي:

- أن الأنباط يمثلون في الأصل خليطاً من القبائل ذات الانتماء أو الأصـــول الآراميـــة والعربية. والأرجح في هذا السياق أنهم شعب من الآراميين اختلــط بـــالعرب أثنـــاء هجرته الأولى إلى شبه الجزيرة العربية ثم أثناء هجرته الثانية إلى جنوب بادية الشـــام ثم أثناء الدولة التي أقاموها هناك تحت اسم مملكة الأنباط. وهذا الوضع نستنتجه مـــن الأسماء النبطية ذات الأصول العربية، وكذلك الأسماء العربية الصريحة الموجودة في نقوش الأنباط. ويعضد من هذا الاستنتاج أن التسلسل الأسري أو تسلسل الأنساب كما هو موجود في بعض هذه النقوش يتضمن أسماءً نبطية (آرامية) وأخرى عربية فـــي داخل الأسرة الواحدة.

- أن العادات والأعراف الخاصة بدولة الأنباط لم تكن تتفق تماماً مع نظيرتها في القبائل العربية الأخرى. ففي حين لا تسمح القبائل العربية – طوال تاريخها القديم – باختلاط أنسابها بأنساب الآخرين، وتقصير الزواج فيها على الحدود الضيقة في داخل نفـــس الأسرة – أبناء وبنات العمومة – أو داخل نفس القبيلة، فإن الأنباط يبدو أن أعرافـــهم كانت تسمح بشيء من التجاوز في هذا الصدد. وهو ما يمكننا استنتاجه مـــن أســـماء الآباء الآرامية وأسماء الأبناء العربية أو اليونانية. وربما يرجع هذا الوضع بالنســـبة للأنباط؛ إلى تخلصهم من الحياة القبلية مع إطلاقها واتجاههم إلـــى العمـــل بالتجـــارة وشتى الحرف الأخرى واضطرارهم من خلال ذلك إلى الانفتـــاح علـــى مجتمعـــات أخرى وعدم التمسك الحرفي بآليات وأعراف الجزيرة العربية.

- الأسماء اليونانية والرومانية الواردة في هـــذه النقـــوش تؤكـــد التحـــول السياســـي الذي عاشه الأنباط بعد أن تمكن الرومان، وقبلهم البطالمـــة مـــن بســـط ســـيطرتهم على هذه المنطقة. والأرجح في هـــذا الســـياق أن الأوضـــاع فـــي دولـــة الأنبـــاط كانت شبيهة بمثيلتها في مصر في فـــترة البطالمـــة والرومـــان حيـــن كـــان علـــى الشخص المصري الراغب في تحســـين أوضاعـــه الشـــخصية أن يتـــأغرق اســـماً

وثقافة حتى يلحق بركب التعاون مع الغزاة. ولما كان الأنباط منذ أواخر القرن الأول الميلادي قد بدءوا رحلة الوقوع في براثن نفس هذا النوع من الغزو، فإنه من المؤكد أن هناك رجالاً منهم حاولوا التقرب من القوى الأجنبية هذه عن طريق اتخاذ أسماء كأسمائهم وتبني ثقافتهم حتى يكونوا من رجالهم في هذه المملكة.

هـ - القراءة الاجتماعية لنقوش الأنباط في مدائن صالح لا تقتصر على الإيحاءات الدينية أو دلالات الأسماء واشتقاقاتها فحسب، ولكن هناك أيضاً بعض ما يمكن رصده عن حياة الأنباط من خلال هذه النقوش. والواضح من القراءة الأولى لهذه النقوش الآرامية - خاصة ما يتعلق منها بشواهد ووصايا القبور - أن المجتمع النبطي كان يماثل المجتمعات القبلية في شبه الجزيرة العربية في عدم وجود قوانين مكتوبة دائمة ورادعة، وأن الأمر هناك كان كنظيره في سائر بلاد العرب، يعتمد على الأعراف أو الظروف اكثر مما يعتمد على قوة القوانين وقدرة الدولة على تنفيذها.

وحين نتناول هذه النقطة في شيء من التفصيل، فإن علينا أن نتجول قليلاً بين هذه النقوش المنشورة من منطقة مدائن صالح وننظر في نصوصها وشروطها وبعض تفاصيل وصايا أصحابها، ثم نرى بعد ذلك كيف تقودنا هذه القراءة إلى استنتاج وضع المجتمع النبطي على النحو الذي أشرنا إليه.

ففي أحد النقوش النبطية التي ترجع إلى العام الأربعين من حكم الملك الحارث، والتي تدخل في إطار شواهد القبور التي يكتب عليها أصحاب المقابر وصاياهم بشأن ملكية المقبرة وأصحاب الحق في استخدامها، نجد أن النقش الذي أمامنا يتكون من عشرة سطور، وأن السطور من الثالث إلى الثامن - أكثر من نصف النقش - تمثل تحذيراً من صاحب المقبرة لأي شخص يقوم بكتابة شروط على المقبرة تخالف وصيته، ويؤكد أيضاً عدم أحقية أي شخص خلاف من ذكرهم في الوصية في التصرف حيال هذه المقبرة بأية صورة من الصور.[١] وفي نقش آخر على مقبرة صاحبها شوبايتو اليهودي المشار إليه في

---

[١] Mission - 1 - 145

فقرة سابقة، يؤكد صاحب المقبرة أيضاً على عدم أحقية كل الغرباء في استخدام هذه المقبرة أو التعامل عليها بأي شكل من التعاملات المعروفة.[١]

وفي نقش ثالث على مقبرة أخرى، يؤكد صاحب المقبرة أنه ليس من حق أي شخص أن يتعامل حول مقبرته هذه أو أن يدخلها أو يخالف أي نص من التعليمات المنصوص عليها بمعرفة صاحبها، ويضيف هذه المرة أن المخالف لهذه الشروط سيكون عليه أن يدفع غرامة قدرها ١٠٠٠ دراخمة.[٢]

وفي نقش آخر يقول صاحب المقبرة – بهدوء هذه المرة – أن استخدام المقبرة يجب أن يكون في إطار الالتزام بحقوق الملكية بين كل الأطراف المشار إليها في النقش الذي يتضمن وصية صاحب المقبرة.[٣]

وعلى واجهة إحدى المقابر الأخرى الضخمة يؤكد صاحب المقبرة أن لعنة الآلهة الثلاثة سوف تحل على كل من تسول له نفسه الاعتداء على حقوق الملكية في هذه المقبرة وعلى من يتصرف فيها بالبيع أو الشراء أو الهبة أو الإيجار أو يكتب عليها أية نقوش أو وصايا إضافية أو يسمح بدفن أي شخص فيها بالمخالفة لحقوق الملكية. ويضيف قائلاً أن هذه المقبرة هي أحد الأشياء المقدسة التي لا ينبغي المساس بها.[٤]

وفي نقش آخر على مقبرة أخرى يؤكد صاحب المقبرة عدم أحقية أقاربه الذين تئول لهم حقوق استخدام المقبرة بموجب وصيته في التصرف في هذه المقبرة بالبيع أو الإهداء أو التأجير أو إضافة أية أطراف أخرى في الوصية الخاصة بها. ويقول صاحب المقبرة أن الغرامة المفروضة على من يخالف هذه التعليمات هي مبلغ ٢٠٠٠ دراخمة.[٥]
وعلى إحدى المقابر الصغيرة في نفس المنطقة تؤكد صاحبة المقبرة أنها وبناتها فقط هن أصحاب الحق في استخدام وملكية هذه المقبرة، وأن من يخالف هذه التعليمات سيكون ملعوناً من الآلهة ويتعين عليه أن يدفع غرامة قدرها ١٠٠٠ دراخمة.[٦]

---

[١] Ibid. 148
[٢] Mission - 1 - 151
[٣] Mission - 1 - 154
[٤] Ibid. 156
[٥] Ibid. 157
[٦] Mission - 1 - 159

وفي مقبرة أخرى من نفس المنطقة أيضاً، تذكر صاحبة المقبرة أن أي شخص يتعرض لحقوق الملكية والاستخدام التي أوصت بها بخصوص هذه المقبرة سيكون عليه أن يدفع غرامة قدرها ١٠٠٠ دراخمة – وعلى خلاف العرف المعتاد، تضع صاحبة المقبرة نفسها هي والمقبرة في حماية إحدى الآلهة المحلية التابعة لموطنها الأصلي في تيما.[١]

وفي إحدى المقابر التي تتميز بالجمال الشديد والعناصر الزخرفية نجد أن المقبرة تخص اثنين من النساء، وأنهما يستجلبان اللعنة من الآلهة دوشرا وهبل ومناة على كل من يبيع أو يشتري أو يهب هذه المقبرة، أو يخرج منها إحدى الجثث أو العظام أو الرفات، أو يسمح بأن يدفن فيها من لا يحق له ذلك. ويضيف النقش أن من يخالف هذه التعليمات سيكون عليه أن يدفع غرامة قدرها ٥ (شامادين) بالإضافة إلى ١٠٠٠ دراخمة.[٢]

وتتوالى بعد ذلك العديد من النقوش المماثلة على مقابر نبطية من نفس هذه المنطقة، ونلاحظ فيها جميعاً نفس ما يمكن أن نلحظه بوضوح من النقوش السابقة. فالغرامات التي يقررها أصحاب المقابر ضد من يخالف الشروط التي يضعونها في وصاياهم غرامات متفاوتة، فبينما يوصي أحد أصحاب هذه المقابر أن تكون الغرامة المقررة هي ثلاثة آلاف دراخمة،[٣] فإن هناك مقابر أخرى لا تذكر فيها أية غرامات على الإطلاق ضد من يخالف هذه الشروط.[٤] وهناك إلى جانب ذلك من يجعل جزء المخالفة لكل من يخالف شروط صاحب المقبرة – من الموصى لهم – أن يفقد حق الوراثة أو حق الملكية الذي يئول له بالوراثة.[٥] وهناك أيضاً مقابر أخرى يوصى أصحابها بوصايا تخالف كل ما سبق. ففي أحد النقوش يوصى صاحب المقبرة بأن تكون غرامة مخالفة الوصية هي ثلاثة

---

١ Mission - 1 - 162
٢ Ibid. 16
٣ Mission - 1 - 179
٤ Ibid. 180, 181, 182, 183, 184, 186
٥ Ibid. , 186

أضعاف الغرامة المقررة في مثل هذه الحالات.[١] وهناك أيضاً مقبرة أخرى يوصى صاحبها بأن تكون غرامة المخالف هي أن يدفع ضعف ثمن المقبرة بالإضافة إلى تعرضه للعنة الآلهة دوشرا ومناة.[٢] وهناك إلى جانب ذلك من يجعل غرامة المخالفة أقل من المعتاد، حيث أن صاحب إحدى المقابر يفرض غرامة قدرها ٥٠٠ دراخمة فقط على كل من يخالف وصيته.[٣]

ومن خلال هذا العرض الموجز لبعض شواهد ووصايا المقابر في منطقة "مدائن صالح" يمكننا أن نستنتج بعض جوانب الحياة الاجتماعية في مملكة الأنباط على النحو التالي:

١- التفاوت الواضح بين قدر الغرامات التي يحددها أصحابها ضد من يخالف وصاياهم بشأن ملكية المقبرة، يؤكد أن القانون في مملكة الأنباط كان أقل شأناً من العرف في القبائل العربية. ففي حين كانت أعراف البدو في الجزيرة العربية في غير حاجة إلى كتابتها على الجدران أو الوثائق حتى يلتزم بها الجميع في الحرب والسلم، فإننا في حالة مملكة الأنباط نجد خليطاً من الغرامات على شواهد القبور، وبحيث يبدو أن شيئاً لم يكن يحدد الحد الأدنى أو الأقصى للغرامة المحددة ضد من يعتدي على حرمة القبور. وتتسع المسافة بين سقف وأرضية هذا النوع من الغرامات حتى تصل في حدها الأقصى إلى ألف دراخمة وخمسة (شامادين)[٤]، وأيضاً إلى دفع ضعف ثمن المقبرة، أو ثلاثة آلاف دراخمة، ثم تهبط في حدها الأدنى إلى ٥٠٠ دراخمة أو لا شيء على الإطلاق في بعض هذه النقوش. وحين يكون العرف أو القانون في المملكة يترك مسألة انتهاك القبور للاجتهاد الشخصي، فلابد أن أموراً كثيرة أخرى في هذه المملكة كانت متروكة

---

[١] Ibid. , 19

[٢] Ibid. , 192

[٣] Mission - 1 - 199

[٤] هذه الكلمة لم تحددها المصادر أو الأبحاث المتاحة بشكل قاطع، والأرجح في أغلب الأحوال أن تكون بمعنى (الغرامة المقررة) ويكون على الشخص المخالف أن يدفعها خمس مرات أو خمسة أضعاف.

أيضاً لذات الاجتهاد الشخصي، وأن دراية الأنباط بالقوانين المكتوبة لم تكن أفضل حلاً من نظيرتها لدى سائر العرب، إن لم تكن أسوأ أو أقل.

٢- الإلحاح الواضح وشدة لهجة أصحاب المقابر في التحذير من سرقة مقابرهم أو الاعتداء على حقوق ملكيتها أو - أيضاً - العبث برفات المدفونين فيها يؤكد ضعف الإلتزام الديني والالتزام المدني - القانوني - معاً لدى الشعب النبطي. فلو كان الالتزام الديني يسود هذه البلاد ما كان أصحاب المقابر في حاجه إلى تخصيص بند شبه ثابت في شواهد قبورهم يدين محاولات الاعتداء على هذه المقابر ويجعل اللعنة والغرامة جزاء من يقوم بذلك. ولو كان الالتزام المدني أو القانوني يسود البلاد ما كان أصحاب هذه المقابر يجعلون من أنفسهم أصحاب الحق في تحديد الغرامة المقررة ضد من يخالف وصاياهم بشأن هذه المقابر وحقوق استخدامها.

٣ - العملة التي تشير لها النقوش في معرض تحديد الغرامة المقررة ضد من يخالف شروط ملكية واستخدام المقبرة هي "الدراخمة" وهذا الوضع يؤكد انفصال مملكة الأنباط - إقتصادياً ومالياً - عن عرب شبه الجزيرة في فترة ما قبل الإسلام أو في القرون الثلاثة الأخيرة ق.م والقرن الأول الميلادي على سبيل التحديد. ففي هذه المرحلة من التاريخ، كان الأنباط يمثلون مملكة تجارية في المقام الأول، استفادت من نزاعات قادة الاسكندر المقدوني (أواخر القرن الرابع ق.م) وتوسعت حتى وصلت حدودها إلى كل المنطقة الواقعة شرق وجنوب فلسطين حتى مدينة الحجر (مدائن صالح) [1]. واستغل الأنباط موقع بلادهم في ملتقى طرق القوافل التجارية في تكوين وضع اقتصادي يقوم في المقام الأول على التجارة. ومن هنا كان لا بد من تعاملهم بالعملة السائدة في هذه المنطقة -

---

[1] جواد علي ١٣/٣
ياقوت - معجم البلدان - ١٩٣/١

التي كانت تقع تحت سيطرة ونفوذ البطالمة اقتصادياً وسياسياً[1] - وكانت هذه العملة هي الدراخمة التي نراها تتردد في نقوشهم حين يكون الحديث عن الغرامات المالية المفترض دفعها من جانب المخالفين.

٤- من الأمور الأخرى التي يمكن استنتاجها من خلال هذه النقوش أن المجتمع النبطي كان مجتمعاً أقل صرامة وأكثر مرونة من المجتمعات العربية الأخرى في داخل شبه الجزيرة العربية وجنوبها. ولعل الإنتقال من حياة البداوة إلى حياة المدنية هو السبب الرئيسي في هذا الوضع. فمن خلال قراءة الأسماء المدونة على شواهد القبور يمكننا أن ندرك بسهولة أن الأنباط لم يكونوا مجتمعاً بدوياً يتزوج فيه الرجل من ابنة عمه، أو تتكرر فيه اسم القبيلة في سائر أسماء أبنائها ورجالها ونسائها، وهو الأمر الذي سبق أن أشرنا إليه عند تحليل دلالات الأسماء النبطية والعربية والأجنبية على شواهد القبور. ويبدو في هذا السياق أن اشتغال الأنباط بالتجارة واضطرارهم للتعامل اليومي مع البطالمة والسلوقيين فضلاً عن أبناء الشام ومصر [2] كان سبباً في تخليهم عن أعراف وعادات البداوة وانفتاحهم على الأمم الأخرى التي ربطتهم بها العلاقات التجارية والحضارية.

تدل شواهد القبور أيضاً على أن مملكة الأنباط قد قطعت شوطاً في مجال المجتمع المدني أو الحضري المخالف للنمط التقليدي لمجتمعات شبه الجزيرة العربية. فمن خلال الأسماء الموجودة على هذه النقوش نجد أن هناك وظائف جديدة على المجتمع العربي كانت تنتشر في مجتمع الأنباط بحكم الآليات الجديدة التي كانت تحكم حركة الحياة هناك. ومن هذه الوظائف وظيفة الطبيب التي نجدها مع إسم أحد أصحاب هذه المقابر[3] ووظيفة الفنان أو النحات التي

---

[1] محمد عزب دسوقي – المرجع السابق – ٣١/٣٠ - لا يقتصر تأثير الأنباط باليونانيين على مجال العملة فقط، ولكنهم قد تأثروا بالعقيدة اليونانية أيضاً على الرغم من احتفاظهم بأسماء المعبودات النبطية والعربية:
انظر: عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٨٦

[2] استمر التواجد النبطي على ساحة التعامل التجاري مع بلدان المنطقة – ومنها مصر – حتى بعد زوال مملكة الأنباط وتحولها إلى مقاطعة رومانية ١٠٥م، أنظر: جواد علي ٣٨٤/٢ ٣٨٦، ٣١/٣ –٣٢ ٥٤

[3] Mission - 1 - 179

نجدها في معظم هذه النقوش منسوبة إلى الشخص الذي قـام بتصميم وبناء المقبرة أو النصب التذكاري أو كتابة النقش المرفق[١] ووظيفة القائد العسكري التي تكتب باللغة اليونانية – وحروف آرامية –[٢] والتي لا بد وأن تكون نتاجاً للاتصال الحضاري بين الأنباط والبطالمة – أو السلوقيين – وهذه يبدو أنها قد حلت محل وظيفة الملوك بعد أن تحولت مملكة الأنباط إلى مقاطعة رومانية في مطلع القرن الثاني الميلادى، ويبدو أيضاً أن الرومان كانوا يسندون القيام بمهامها إلى شخصين[٣] يشارك كل منها صاحبه في أداء المهام الموكلة إليه على غرار نظام القناصل في العصر الجمهوري لمدينة روما أو النظام الملكي في مدينة إسبرطة في العصر الكلاسيكي.

من الأمور الهامة أيضاً في سياق قراءة هذه النقوش أن الأعراف أو القوانين في مملكة الأنباط كانت تمنح النساء نوعاً من الذمة المالية المستقلة عن الرجال أو بصفة عامة كانت النساء في هذه المملكة يتمتعن بحقوق وأوضاع تفوق كثيراً ما كان للمرأة في سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. ففي عدد غير قليل من شواهد القبور التي نحن بصددها نجد أن ملكية المقبرة وحقوق توريثها أو التعامل عليها تكون من حق إحدى النساء وليس الرجال. وأن المرأة في هذه الحالة تكون لها ذات الصلاحيات التي تكون للرجل في إدارة شئون (ملكية) هذه المقبرة وفقاً لمطلق مشيئتها. ومن هذه النقوش نقش يخص غرفة في إحدى المقابر تقول صاحبتها أنها قد خصصتها لنفسها ولبناتها فقط والواضح هنا أن هذه السيدة متزوجة ولكن زوجها لا يرد له ذكر في هذا النقش.[٤] وبافتراض أنه قد توفي عنها في تاريخ سابق، فإن أعراف العرب لم تكن تسمح بمثل هذه الملكية المطلقة للمرأة التي يتوفى عنها الزوج، وهذا الوضع يتكرر أيضاً في نقش آخر بخصوص مقبرة تملكها إحدى السيدات هي وبناتها وتقرر أيلولتها بعد وفاتها إلى نسل بناتها من الرجال والنساء[٥]. وهناك مقبرة أخرى تخص اثنتين من النساء (شقيقتان)

١ Ibid. – 145, 148, 151, 145, 157…etc.
٢ ibid. 153
٣ Mission - 1 – 207, 213
٤ Mission - 1 - 159
٥ Ibid. 162

والمقبرة تقع مناصفة في ملكيتها بينهما، وخصصتاها لنفسيهما ولنسلهما.[1] ومقبرة أخرى تخص أيضاً امرأة اسمها كامكام وابنتها، وخصصتا المقبرة لنفسهما ونسلهما أيضاً.[2]

وهناك أيضاً فقرة يشير النقش الخاص بها إلى أنها تخص سيدة اسمها "شوكاينات" وأنها قد أقامت المقبرة لنفسها ولأبنائها وبناتها، ويضيف النقش أن هذه السيدة من قبيلة مازن.[3] أي أن هذه السيدة تنتمي أصلاً إلى إحدى القبائل ولكنها على الرغم من ذلك قد صارت صاحبة حق في الملكية المنفردة بمقتضى الأوضاع الاجتماعية في دولة الأنباط. وهناك أيضاً مقبرة تخص سيدة تسمى "هنيات" وتخصص المقبرة لنفسها ولذريتها وذرية أبنائها، وأيضاً دون أية إشارة للزوج.[4] وهذه المرأة تضيف شرطاً جديداً في عقاب من يخالف الوصية وهو شرط فقد الملكية كما سبق أن أشرنا من قبل.

وهناك أيضاً نوع آخر من الملكية في هذه المقابر بين الرجل والمرأة، مثلما في إحدى المقابر التي يقول النقش الخاص بها أنها تخص كلاً من شاباي (رجل) ونوبابيكات (امرأة) وأنهما قد خصصا المقبرة لأبنائهما والورثة الشرعيين لهم.[5] ويذكر النقش أيضاً كيفية تقسيم المقبرة بين الطرفين على وجه التحديد.

تأسيساً على النقطة السابقة يمكننا أن نستنتج أن الأوضاع الاجتماعية في دولة الأنباط لم تكن تفرض على هذا الشعب أن يزدري النساء أو يحط من شأنهن أو يعتبرهن عبئاً على الحياة كما كان دأب القبائل العربية في عصورها القديمة. فالحياة في المجتمع النبطي كانت تختلف عن حياة البدو، ولم يكن الأنباط من تلك القبائل التي تعيش على الغزوات وقتال الجيران وسلب أملاكهم، وإنما كان الأنباط مجتمعاً تجارياً في المقام الأول، وكان التعامل بين أفراده وجماعاته وبين أمم أخرى مثل البطالمة والرومان فضلاً عن أبناء الشام ومصر كفيلاً بفرض آليات اجتماعية تخالف تلك التي عرفها الأنباط في داخل شبه الجزيرة العربية. لهذا السبب لم يكن الأنباط في حاجة للرجال دون النساء لتكوين جيوش غزوات القبائل، ولم تكن بالشعب النبطي حاجة لوأد البنات أو ازدرائهن أو

[1] Ibid. 167
[2] Ibid. 169
[3] Ibid. 183
[4] Mission - 1 - 186
[5] Mission - 1 - 194

التوجس منهن مثلما كان الحال في سائر شبه الجزيرة. هذا إلى جانب أن الشعب النبطي – كما يبدو من دلالات الأسماء ومن تباين بعض الأعراف – كان يمثل خليطاً من عدة اتجاهات وروافد وليس قبيلة واحدة تنتمي إلى مجتمع استاتيكي سياسياً واجتماعياً ودينياً. ومن هنا نفهم كيف كان للمرأة في هذا المجتمع وضع أفضل من وضعها في داخل شبه الجزيرة العربية.

التماسك الاجتماعي أو الانتماء للوطن أو البيئة يمكن أن نحاول قراءته أيضاً من خلال النقوش والمعلومات المتاحة فيها. فالنقوش النبطية التي نحن بصددها تؤكد أن سكان دولة الأنباط لم يكونوا شعباً يملك مقومات المواطنة والانتماء على إطلاقها. ففي هذه النقوش نجد حرصاً واضحاً من عديد من الأشخاص وفي عديد من الحالات على ذكر الانتماء القبلي أو الديني إلى جانب اسم كل منهم، ولا تذكر هذه النقوش من أسباب الوحدة القومية سوى أسماء الملوك. وفيما يلي بعض الأمثلة التي يتضح في سياقها صحة ما نقول.

أحد النقوش الموجودة على المقابر النبطية يشير إلى صاحب المقبرة بوصفه "شوبايتو بن عليع" "اليهودي".[١]

ونقش آخر يشير إلى أن المقبرة تخص ابنة "باجرات" وبناتها، وإنهن من "تيما"[٢]

ونقش ثالث يقول أن المقبرة تخص سيدة اسمها "شوكينات" من قبيلة "مازن".[٣]

ونقش رابع يذكر صاحبه أنه يهديه إلى أحد الآلهة المحلية في هذه المنطقة.[٤]

ونقشان آخران يذكران "سيد المنزل" بوصفه الإله المسئول عن البلاد.[٥]

ونقش تالٍ لهما يذكر نفس هذا الآلة بوصفه (الإهات) وبنفس الدرجة من القداسة.[٦]

ونقش آخر يذكر اسما شخصياً ذا أصل يوناني ثم اسم الأب بالآرامية المعتادة.[٧]

---

١ Mission, I, 148
٢ Ibid., 162
٣ Ibid., 183
٤ Ibid., 204
٥ Ibid., 213-216
٦ Ibid., 217
٧ Ibid., 227

ونقش تالٍ له يعكس هذا الوضع، حيث الاسم الأول ذو أصل عربي واسم الأب يوناني الأصل.[1]

ونقش تالٍ لهما يبدو فيه اسم الابن يونانياً أو رومانياً واسم الأب آرامي أو عربي.[2]

ونقش آخر على نفس هذا المنوال حيث الاسم يوناني الأصل واسم الأب آرامي نبطي.[3]

ونقش تالٍ له لا يحمل سوى اسم شخص واحد ذي أصول يونانية أيضاً.[4]

هذا الوضع إلى جانب ما ذكرناه من قبل عن شيوع الأسماء العربية والأجنبية إلى جانب الآرامية، وشيوع مختلف العقائد والأديان والأعراف بين الشعب النبطي، يؤكد أن الأنباط كانوا خليطاً من السكان الذين تجمعهم المصالح والارتباط المكاني أكثر مما يجمعهم الارتباط العرقي أو العنصري. فإذا أضفنا إلى هذا أن العمل التجاري بصفة عامة يجعل الفردية أقرب من القومية أو الأممية أو الانتماء الوطني أو العنصري، فإننا نقترب بذلك من نتيجة مؤداها أن دولة الأنباط لم تكن قائمة على التماسك الاجتماعي أو الانتماء القومي بقدر ما كانت كياناً مرحلياً لا يستند على مقومات سياسية أو اجتماعية دائمة وكافية لإقامة دولة تصلح للبقاء.

---

[1] Ibid., 228

[2] Ibid., 228

[3] Mission - I- 232

[4] Ibid. 234



الجزء الثالث

دراسة اثنولوجية لإحدى قبائل الشمال

دراسة اثنولوجية لإحدى قبائل الشمال

تقديم

قبيلة **الفقراء** هي إحدى قبائل شمال شبه الجزيرة العربية. وهذه القبيلة كانت محل دراسة البعثة الفرنسية في بداية هذا القرن حيث كانت هذه البعثة تقوم بمسح أثرى بمنطقة شبه الجزيرة العربية، وعلى هامش هذه المهمة قامت البعثة بدراسة اثنولوجية لهذه القبيلة.[1] والمعلومات الهامة التي توصلت إليها البعثة في سياق هذه الدراسة يمكن أن تلقي الكثير من الضوء على أوضاع عرب شبه الجزيرة على مدى فترة طويلة تبدأ من الحضارة العربية قبل ظهور الإسلام، وتمر بفترة ظهور وسيادة الدين الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، وتستمر حتى تصل إلى التطور الذي حدث في هذه المنطقة بعد ظهور واستغلال الثروات الطبيعية المتمثلة أساساً في البترول، بالإضافة إلى المتغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدها العالم العربي بصفة عامة وشبه الجزيرة العربية بصفة خاصة.

ونهدف من عرض نتائج هذا البحث الاثنولوجي لهذه القبيلة العربية إلى دراسة المتغير الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسلوكي الذي نتج عن اعتناق القبائل العربية للدين الإسلامي، ودراسة مدى قابلية بدو الصحراء العربية للتطور الاجتماعي والثقافي والسياسي ومدى تأثيرهم بالمتغيرات التي شهدتها المنطقة على مدى قرون طويلة منذ عصور ما قبل الإسلام وحتى التاريخ الحديث والمعاصر. وحتى يتحقق هذا الهدف فإننا سنقوم في البداية بعرض أهم ما توصلت إليه الدراسة الميدانية التي قامت بها البعثة لهذه القبيلة، ثم نقارن معطيات ونتائج هذه الدراسة بما كان عليه حال القبائل العربية في عصورها التاريخية السابقة. ومن خلال هذه المقارنة نستطيع أن نستنتج مدى استجابة

---

1 RR. PP. Jaussen et Savignac, Mission Archeologique en Arabie, Supplement au Volume II, coutumes des Fuqara, Paris. Reedition, Le Caire, 1997 Institut Francais d'Archeologie Orientale.

القبائل العربية في شبه الجزيرة للمؤثرات التاريخية والفكرية والبيئية التي مروا بها في مراحل تاريخهم القديم والحديث.

١ - قبيلة الفقراء

قبيلة الفقراء تمثل وحدة قبلية اثنولوجية من وحدات شمال شبه الجزيرة العربية، وهي تضم الجماعات والأسر التي تم تسجيلها في العصور الحديثة في السجلات الحكومية تحت اسم "عشيرة الفقراء"[١] . وتعرف القبيلة بين جيرانها والقبائل الأخرى المحيطة بها بإسم عربان (أعراب) الفقير. وتتفق هذه القبيلة مع القبائل العربية الأخرى في وجود شيخ على رأس بنيانها العام، ولهذا الشيخ اليد العليا في إدارة شئون القبيلة. ولكنها تختلف في التقسيم الداخلي عن النظام الشائع في القبائل العربية بوجه عام. فهي تنقسم إلى "أفخاذ" وليس "بطون" كما هو شائع في قبائل شبه الجزيرة العربية. والمقصود "بالفخذ" هنا هو نفس المقصود "بالبطن" في سائر القبائل،[٢] وهو التقسيم الأدنى للقبيلة. وهو في حد ذاته يتضمن تركيباً معقداً لا يعرف حقيقته وتفاصيله سوى الأعراب أنفسهم.

ووفقاً لرواية هذه القبيلة لتاريخها، فإنها تنتمي إلى الجيل الثامن عشر منذ بداية التاريخ البشري، أي أنهم يعتقدون وفقاً لتسلسل أنسابهم أن قبيلتهم هذه تقع في الجيل الثامن عشر من الأجيال التي تتلو خلق آدم[٣] وتوجد المقبرة الخاصة بمؤسس هذه القبيلة في منطقة مدائن صالح. ولهذا الرجل - في السيرة الذاتية للقبيلة - قداسة دينية ووضع خاص، حيث أنه كان قادراً على شفاء أي مرض بمجرد لمسة واحدة من يده. ونسل هذا الرجل هم الفقراء الذين تتشكل منهم هذه القبيلة، وهم لا يملكون القدرات الخارقة التي كان يمتلكها جدهم الأول ومؤسس قبيلتهم.[٤] ويروى أن مؤسس القبيلة كان يسكن في البداية في جنوب العِلا، حيث أن إقليم مدائن صالح كان يحتله آنذاك قوم آخرون من العرب.

---

[١] Savignac, op. cit., 3

[٢] ibid., 3-4

[٣] Mission, op. cit., 4

[٤] ibid.

والسكان الأوائل لهذا الإقليم هم المعرفون باسم "ظفير"، وكانوا قد نزحوا إلى هذه المنطقة من الجنوب كدأب العرب الجنوبيين القدامى. ولم يتمكن هؤلاء العرب من التصدي لهجوم بني هلال، وبالتالي تمكن بنو هلال من طردهم والاستقرار بدلاً منهم في مدائن صالح، وتوجه أبناء ظفير إلى العراق هرباً من بطش بني هلال.[1] واستمر بنو هلال في هذه المنطقة ردحاً من الزمان إلى أن داهمتهم مجاعة أتت على الأخضر واليابس وأوشكت أن تقضي على الأنفس بعد أن تمكنت من الذهاب بالثمرات. وأمام هذه الكارثة اعتلى "أبو زيد الهلالي" صهوة جواده وتوجه إلى الغرب. ووصل إلى تونس وراقه ما وجده هناك من خضرة وخيرات، ثم عاد بعد ذلك إلى قبيلته حيث أبلغهم بما رآه في تونس من الخير، وأشار عليهم بالذهاب هناك بحيث أنهم لو تمكنوا من هزيمة أهل البلاد صاروا هم أصحاب كل هذا الرخاء، وإن لم يتمكنوا فإن بوسعهم الحياة في كنف هؤلاء أفضل مما يعيشون الآن في الصحراء ويعانوا المجاعة. وبالفعل ذهبوا بنو هلال إلى تونس واستقروا هناك وتركوا في وطنهم الأصلي أساطير تتحدث عن قوتهم وشجاعتهم وصفاتهم الجسدية الغريبة حيث يقال أن أقصرهم قامة كان يزيد طوله عن المترين[2]. وتمكن أبناء قبيلة الفقراء من الاستقرار في مدائن صالح بعد رحيل بني هلال من المنطقة، وعلى أثر ذلك تمكن الفقراء من طرد الأعراب الذين كانوا قد حلوا محل بني هلال في هذه المنطقة بعد رحيل بني هلال إلى الغرب.[3]

وعلى الرغم من قلة عدد قبيلة الفقراء قياساً بغيرهم من الجيران في هذه المنطقة، فإنهم قد تمكنوا من احتلال نطاق واسع من الأرض لا يتفق مع عددهم القليل في ذلك الوقت. واشتهرت هذه القبيلة بين جيرانها بالقوة والشجاعة. وكانت لهم القدرة على تنفيذ الغزوات والمعارك في سرعة وقوة تتيح لهم النجاح والانتصار وكانت طبيعة الأرض الحصينة التي ضربوا فيها خيامهم ومساكنهم تمثل إضافة لقوتهم وشجاعتهم وهو الأمر

---

١ Jaussen, Coutumes des Arabes, Paris., 313
Mission, ibid., 5
٢ Mission, op. cit., 5
٣ ibid.

الذي أتاح لهم المكانة المتميزة التي وصلوا إليها بين أقرانهم. [1] ولا تختلف قبيلة الفقـــراء في أصولها التاريخية عن سائر القبائل الأخرى التي سكنت شمال شبه الجزيرة، فهم فـــي أغلب الأحوال من العرب النازحين من الجنوب شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية القديمة التي تركت مضاربها بحثاً عن سبل أخرى للحياة في الشمال. [2]

٢ - الوضع الاقتصادي للقبيلة

المنطقة التي تعيش فيها قبيلة الفقراء تمـــاثل الســـواد الأعظـــم مـــن المنـــاطق الصحراوية في شبه الجزيرة العربية. وتقوم الحياة الاقتصادية للقبيلة على الرعي بصفـــة أساسية إلى جانب بعض الموارد الزراعية في المناطق الصالحة للزراعة والتي تـتركز - بالنسبة لقبيلة الفقراء - في نطاق"خيبر". [3]

وتمثل مراعي الإبل والحيوانات الأخرى أهمية بالغة بالنسبة للقبيلة، وحيـــث أن هذه المراعي تعتمد في الأساس على مياه الأمطار فإنها تكون عرضة للجدب لفترات قـــد تصل أحياناً إلى حولين من الزمان بصورة متصلة. وفي هذه الحالة لا يجد بدو الصحراء المتطلبات الأساسية لمعيشتهم وأهمها اللبن الذي يمثل أيسر هذه المتطلبات منالاً وأكثرهـــا أهمية بالنسبة للإعرابي. ولا يكون أمام البدو في هذه الحالة سوى أن يقطعـــوا مســـافات طويلة في الصحراء سعياً إلى أماكن صالحة لرعي حيواناتهم ودوابهم. [4]

والمنطقة الصالحة للزراعة بالنسبة لبدو الفقراء هي منطقة خيبر - التـــي كـــان يسكنها اليهود قبل ظهور الإسلام - وفي هذه المنطقة يمارس البدو بعض أعراف وقوانين الحضر. فالملكية الفردية معترف بها هناك حيث أن كل مزرعة أو بستان يكون له مـــالك

---

[1] ibid. 6

يرى أعضاء البعثة الفرنسية أن مرافقهم من أبناء قبيلة الفقراء كان يبالغ حين أخبرهم أن قوة قبيلته وحصانة موقفـها تتيح لهم التصدي لكافة الأعداء حتى لو كان جيش السلطان نفسه، ويرجع ذلك الرأي للبعثة الفرنسية إلى فقر المنطقة وخلوها من المراعي الكافية التي تتيح للقبيلة موارد اقتصادية تحقق لها قدراً من القوة يسمح بمقاومة الجوع، فضـــلاً عن قوات السلطان.

[2] Ibid. 6

[3] Mission, op. cit., 7

[4] ibid., 7

معروف، كما أن كل قطيع في هذه المنطقة الزراعية له أيضاً مالك معين، ولا يترك الأمر مشاعاً كما هو الحال في النظام القبلي.[1] ولا يمارس في هذه المناطق من ضروب شيوع الملكية سوى ما يتعلق بأرض المراعي وما تتضمنه من الكلأ والماء. ونفس هذا الوضع نلمسه في القبائل المجاورة حيث "تيما" و"العلا". وبالنسبة لأرض "خيبر" فإن ملكية المناطق الزراعية تقتصر على البدو، وهم لا يمارسون الأعمال الزراعية رغم ملكيتهم لهذه الأرض، وإنما يقوم بالعمل جماعات من الفلاحين في ظل نظام يشبه نظام المالك والمستأجر في البلاد الأخرى.[2] ففي قطاع النخيل يقوم الفلاحون بكل الأعمال التي يتطلبها نخيل البلح من البداية وحتى تسليم المحصول، وفي مقابل ذلك يحصل الفلاح أو العامل الزراعي على ثلث المحصول الإجمالي ويستأثر المالك من البدو بالثلثين. وفي قطاع زراعة الحبوب الغذائية تتم الأعمال الزراعية وفقاً للاتفاق بين المالك والمزارع. وفي مقابل جزء من المحصول أيضاً في أغلب الأحوال، ويدفع من عائد هذه الزراعة ما يعرف باسم "حق الماء".[3] وإلى جانب هذه الموارد يأخذ أبناء قبيلة الفقراء من سكان "تيما" و"العلا" مبلغاً سنوياً كفريضة على كل بيت في هذه المناطق، ويعرف هذا الحق باسم حق "الخاوة".[4]

وهناك مورد أخر لقبيلة الفقراء يتمثل في موسم الحج ومن خلال الحجاج السوريين الذين يتعين عليهم المرور من الأراضي التابعة للفقراء أثناء سفرهم من سورية إلى الأراضي المقدسة.[5] وكان على الحاج القادم من سورية أن يدفع مبلغاً كبيراً من المال حتى يسمح له بالمرور من أرض الفقراء، وكان على الحاج أيضاً أن يدفع إلى جانب ذلك للقبيلة بعض أكياس الأرز والبرغل.[6]

---

[1] ibid., 7-8 ، منطقة خيبر لا تخص "الفقراء" وحدهم، ولكنها منطقة زراعية يشارك في ملكيتها والاستفادة من عائدها ثلاث قبائل مختلفة.

[2] Mission, op. cit., 7 - 8

[3] ibid.

[4] Coutumes des Arabes, 162

[5] Mission, ibid., 8

[6] Mission, op. cit., 8-9

وعلى الرغم من أن الحجاج كانوا يستخدمون – في بداية القرن العشرين – السكك الحديدية للذهاب إلى موسم الحج فإن هذا المورد الذي كان متاحاً في الماضي لقبيلة الفقراء لم ينضب أو ينقطع. فالحكومة قد خصصت لشيخ وقيادات القبيلة مبالغ شهرية تدفعها لهم مقابل مرور السكك الحديدية في أراضيهم. وتتراوح هذه المبالغ الشهرية ما بين ٦٠ مجيدي للشيخ و٥ر١٢ لأقل المستحقين. وإجمالي ما تدفعه الحكومة شهرياً لقبيلة الفقراء تحت هذا المسمى يصل إلى ٥ر٢٢٧ مجيدي (وهو ما يوازي ألف فرنك تقريباً وفقاً لأسعار العملة في ذلك الوقت. ولا يدخل في هذا المبلغ مبلغ آخر قدره ١٦٢ مجيدي يتم توزيعها على ١٣ شخصاً من قبيلة الفقراء مكلفين بالحراسة) – من جانب الحكومة– في هذه المنطقة. وبين هؤلاء الحراس من يعمد – عند تقدمه في السن – إلى تكليف شخص آخر لأداء دوره والعمل مكانه – من الباطن – وذلك في مقابل نصف الأجر المخصص للوظيفة، ويتحفظ الحارس الأصلي لنفسه بالنصف الآخر.[١]

والنفقات التي كانت الحكومة قد قررتها لهذه القبائل عند إنشاء خطوط السكك الحديدية كانت تمثل أمراً ضرورياً لمواجهة معارضة القبائل والبدو لهذا المشروع بوصفه اعتداء على حقوقهم وأراضيهم. والحكومة حين قررت صرف هذه الأموال والرواتب الشهرية كانت في واقع الأمر تشتري رضاء البدو بدلاً من دخولها معهم في مواجهات عدائية غير مأمونة العواقب. وينظر أعضاء قبيلة الفقراء إلى ما يتم دفعه لهم من رواتب شهرية على أنه يمثل كرماً وفضلاً من السلطان. وقد أدت هذه المنحة الحكومية الثابتة إلى تحسين الأحوال المعيشية لأفراد القبيلة ومكنت لبعضهم الحياة الكريمة بصورة مستمرة ومنتظمة.[٢]

وقبل وجود القطارات والسكك الحديدية لم يكن بوسع هذه القبائل أن تعتمد في غذائها الدائم على الخبز أو تتمكن من الحصول عليه طوال العام، فقد كانت محاصيل الحبوب المتوافرة لديهم في منطقة خيبر غير كافية لتحقيق الاكتفاء الذاتي في هذا المجال. وقد تم تعديل هذا الوضع بصورة سريعة فيما بعد وعلى أثر تسيير خطوط السكك الحديدية، فقد صار ميسوراً أن يصل الخبز إلى مدائن صالح وإلى مناطق قبيلة الفقراء،

---

[١] ibid.

[٢] Mission, op. cit., 9

ووجدوا فيه غذاءً دائماً يفوق ما اعتادوا عليه من تمر منطقة خيبر. ويبدأ شيوخ وشباب القبائل في الاتجاه لشراء احتياجاتهم من المخبوزات وغيرها من المحلات التي أقيمت في هذه المناطق وبدأوا أيضاً في تقليص عاداتهم المتوارثة في التعامل القائم فقط على نظام التبادل والمقايضة[١].

٣ – السلطة السياسية والقضائية

على الرغم من وجود الحكومة فإن النظام الإداري والقضائي للقبائل يعتمد على النظم والأعراف القبلية. فلا يزال الشيخ يمثل رأس النظام السياسي والقضائي في قبيلة الفقراء. ولا زالت للشيخ في القبيلة كلمة لا ترد، ولا يزال يدير شئونها بالعقل والحكمة وحسن التدبير. ولا يجرؤ أي شخص في القبيلة على عصيان أوامر الشيخ. ورغم أن هذه المكانة لا زالت للشيخ حتى في ظل وجود الحكومة المدنية، فإن سلطته الفعلية في إطار الحكومة ليست كسابق العهد قبل إدراج القبائل في السجلات الحكومية. فالشيخ الآن لا يمكنه ممارسة سائر الصلاحيات والحقوق التي كان يتمتع بها نظراؤه في العهود السابقة. فلا يمكن للشيخ الاستيلاء على خيام أبناء القبيلة، ولا يستطيع أيضاً أن يستولي على دواب وحيوانات تخص أعضاء قبيلته دون مقابل. ولا يمارس الشيخ السلطات المطلقة على قبيلته مثلما كان في العهود السابقة سوى في حالة الحرب أو الغزوات، حيث يكون من حقه في هذه الحالة أن يأمر بتدمير منزل أي شخص يعصى أوامره ويرفض أن يحمل السلاح أو يشارك في الدفاع عن القبيلة.[٢]

وفيما يتعلق بآليات الحياة اليومية بالنسبة لشيخ القبيلة فإن الممارسات اليومية لشيخ القبيلة تتسم عادة بالهدوء والاستقرار. فشيخ القبيلة لا يطلب منه في زمن السلم أكثر من الجلوس في خيمته وإدارة المناقشات والحوارات في شئون القبيلة وتأكيد حالة السلام والتوافق القائمة بين القوم، ويمارس شيخ القبيلة في هذه الحالة صلاحيات ووظيفة القاضي الأعلى.[٣]

---

[١] ibid., 10 & Coutumes des Arabes, op. cit., 265

[٢] Mission, op. cit., 10-11

[٣] Mission, op. cit., 11 تتضمن صلاحيات شيخ القبيلة – وقت الدراسة التي قامت بها البعثة الفرنسية – مهام التنسيق بين القبيلة والجهات الحكومية، أي انه يمثل حلقة الوصل بين الطرفين خاصة في أوقات السلم التي لا تتطلب تدخل القوات الحكومية لإقرار الأوضاع في هذه المنطقة.

وفيما يتعلق بطرق التقاضي في النظام القبلي فإن هناك وسائل عديـدة للتوصـل للحق في المنازعات التي تعرض للفصل فيها. ومن هذه الطرق الاستعانة بشهادة اثنيـن من الشهود، وإن لم تكن شهادتهما كافية، فأن يتم اللجوء إلى القسم بالله، والقسم في هـذه الحالة يتم قبوله ما لم يكن هناك ثلاثة شهود يواجهون ذلك القسم بما يفيد عكس محتـواه. وكانت هناك "رزقة" لمن يتولى وظيفة القاضي الفرعي، وهي تعطي للقاضي عـادة مـن جانب المدعى.[١]

وفي العرف القبلي يتعين على مرتكب الجريمة أن يرحل عن قبيلته ويستقر بعيداً عن أهله وعشيرته لمدة سبع سنوات. وبعد هذه الفترة يبدأ التفاوض مع أحد زعماء القبيلة حول العفو والتصالح. ويتعين على الشخص الذي توكل إليه هذه المهمة أن يعمـل علـى إجبار أو إقناع أسرة المجني عليه بقبول التصالح مع الشخص المبعد وقبول فدية الـدم.[٢] والفدية تعادل ٥٠ من الإبل أو ٨٠٠ مجيدي. وفي حالة فقد الذراع أو الساق أو العين يتـم دفع نصف مقدار الدية السابقة. وفي حالة الجراح أو الإصابات الأقل خطورة يتم تقريـر القصاص ومن ثم الدية وفقاً لدرجة الإصابة.

ومن صلاحيات شيخ القبيلة أيضاً تنسيق ورعاية وتحديد علاقـات القبيلـة مـع الحكومة القائمة. وبالنسبة لقبيلة الفقراء في هذه المرحلة فإن العلاقات بيـن الطرفيـن – الحكومة والقبيلة – هي علاقات سلمية بعد أن تم إقرار السلام بين البدو والحكومـة فـي أعقاب فترة من العداء استمرت طويلاً بسبب هجوم قبيلة الفقراء على قلعة مدائن صـالح. وقد حدث بعد ذلك الاعتداء أن تم حضور ضابط كبير من دمشق وتولى إقـرار الأمـور وتهدئة الوضع في المنطقة، وقام بتوزيع بعض القطع الذهبية كهدايا في القبيلة. وتم أيضـاً نحر الخراف وإعداد الولائم بمناسبة الصلح وشارك غالبية أبناء القبيلة في هذا الطعام وتم إقرار السلام وساعد على ذلك المرتبات الشهرية التي أقرتها الحكومـة لبعـض زعمـاء القبيلة وأفرادها، وهو الأمر الذي أدى إلى امتداد واستقرار حالة الوفاق العام.[٣]

---

[١] Coutumes des Arabes, 188

[٢] Mission, ibid., 11

[٣] Mission, op. cit., 11

والسلام القائم بين القبيلة والسلطان لا يعني الاستقرار الكامل في الأوضاع الأمنية للقبيلة. ففي حالة قبيلة "الفقراء" إذا استثنينا الوفاق الذي يجمع بينها وبين "العطاونة" "وحويطات أبو طايع" فإن سائر البدو الآخرين حول هذه القبيلة يعيشون حالة التوجس والعداء وترقب الحرب أو الغزوات.[١] ولهذا السبب تقضي هذه القبيلة أيامها في رباط دائم خوفاً من الغزوات المفاجئة من جانب الجيران. ويمكننا أن نرصد حالة العداء الدائم هذه من خلال تقرير البعثة الفرنسية الذي تقول فيه بأنها كلما كانت تبحث عن شخص من رجال القبيلة للتجول معها كدليل أو مرشد في أحد أرجاء مدائن صالح فإنها كانت تواجه بأن المكان الذي ترغب في الذهاب إليه لدراسته يعيش حالة عداء مع قبيلة "الفقراء" وبالتالي لا يمكن لأحد من رجال هذه القبيلة الذهاب إليه.[٢]

ووسط هذا الجو العدائي المشحون الذي يعيشه بدو الصحراء، فإن شيخ القبيلة يتعين عليه الاحتفاظ ببرود الأعصاب والقدرة على أداء واجباته المختلفة في زمن السلم. وفيما يتعلق بشيخ قبيلة "الفقراء" فإن الشيخ مطلق – زعيم القبيلة الحالي – والذي صار شيخاً طاعناً في السن، لا يمكنه الآن المشاركة في الجهود الحربية والغزوات، وبعد أن يقوم بواجباته اليومية المعتادة في الشئون القضائية والإشرافية العليا لا يتبقى له سوى الخلود للراحة في منزله المفضل والاستمتاع بما أنعم الله به عليه من سبل الحياة. وإلى جانب ما يملكه هذا الشيخ من الحيوانات والدواب وبعض حدائق منطقة خيبر – زراعات التمور والحبوب والتي تشمل ٥٠٠ نخلة مملوكة له – فإنه ينعم أيضاً بالمخصصات المالية الشهرية التي قررتها له الحكومة، وهذه المخصصات تساعده في شئون حياته الخاصة والعامة ومتطلبات كرم الضيافة الملقى على عاتقه. والشيخ "مطلق" هذا تزوج في حياته أكثر من عشرين زوجة وكون بالتالي أسرة كبيرة العدد، وإن كان لا يحتفظ الآن سوى بزوجة واحدة.[٣] وللشيخ خمس بنات لازلن على قيد الحياة، وله أيضاً ولدان من

---

[١] ibid.

[٢] Mission, op. cit., 11

[٣] ibid., 12-13

صلاحيات شيخ القبيلة العربية في الوقت الحالي لا تبتعد كثيراً عن صلاحياته في تاريخ العرب القديم.

أنظر أيضاً: Coutumes des Arabes, p.p. 127-217

أصل خمسة عشر ابناً مات منهم ثلاثة عشر في الحروب والغزوات. وفيما يتعلق بخلافة الشيخ "مطلق" فإن أحداً من ولديه لا يملك الصفات الضرورية اللازمة لتولي منصب شيخ القبيلة. ويبدو أن الأمر سيؤول إلى أحد أبناء أبنائه ممن يملكون الصفات المطلوبة لشيخ قبيلة "الفقراء".[١]

٤ – الحياة الدينية

قبيلة "الفقراء" كما سبق أن ذكرنا هي إحدى قبائل شمال شبه الجزيرة العربية، وهي تتكون من عرب منتمين قلباً وقالباً إلى الكيان العربي الأصيل وليس الوافد. والمعروف من تاريخ عرب ما قبل الإسلام أن الفكر الديني والممارسات المتصلة به لم تكن تمثل في التاريخ العربي القديم أساساً جوهرياً من أسس حياة وتعاملات وعلاقات العرب. ولابد أن الأمر اختلف بعد ظهور الإسلام وانتشاره بين بدو الصحراء وغيرهم. وقبيلة الفقراء تتميز بأنها قريبة من ناحية الموقع – من مدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولهذا السبب يسيطر الفكر الديني والممارسات المتصلة به على سلوك وتصرفات وحديث أهل القبيلة. والدين الإسلامي يمثل أمراً بالغ العمق في نفوس البدو في قبيلة "الفقراء" وهو يحكم ويغلف كل أعمالهم وأداءهم وحياتهم اليومية. ففي كل الحوارات والمناقشات والتعاملات التي يقوم بها بدو القبيلة لابد من ذكر اسم الله، وفي كل العبارات القصيرة التي تتضمنها حواراتهم هذه لابد أيضاً أن تجد كلمة "الله" أو القسم بالله.[٢] وجميع المعاملات اليومية المعتادة التي يقومون بها مثل النوم أو بداية الرحلة أو بداية الطعام أو استقبال الضيوف والغرباء تبدأ أيضاً بالبسملة.[٣] وهؤلاء البدو يعتبرون أن بداية طعامهم بالبسملة وذكر الله بمثابة أن يكون المرء ضيفاً على مائدة أو طعام ربه. والبدو بطبيعة الحال لا يعرفون لله شكلاً ولا مكاناً. كعقيدة الإسلام – ولكنهم لا يفتأون يذكرونه ويدعونه في كل أحوالهم.

---

١ Coutumes des Arabes, 217 & Mission, op. cit., 12-13

٢ Mission, op. cit., 50-51

٣ ibid., 50

ووفقاً للعقيدة المستقرة في وجدان أبناء القبيلة فإن كل شيء في الكون يقع في سلطة الله ويسير وفقاً لمطلق مشيئته. وحتى حين يقتل أحدهم أو يغزوا أو ينتصر فإن هذا الأمر إنما يتم بيد الله ومشيئته وليس بيد أو مشيئة من قام به.[1] ولا يمثل هذا الإيمان المطلق من جانب البدو أمراً إيجابياً على إطلاقه. فهم من ناحية أخرى – ومن منطلق الإيمان الكامل بالله – قد لا يأخذون بالأسباب أو يعدون للأمر صحيح عدته اعتماداً منهم على أن الله بيده كل شيء. فمن خلال ما يسوقه تقرير البعثة الفرنسية في هذا السياق نجد أن هؤلاء البدو يرجعون كل الأمور لله حتى ما كان يرجع منها لإهمالهم أو تقصيرهم. فالمرافق للبعثة لا يحتاط لرحلة طويلة في الصحراء بالماء الكافي اعتماداً على أن الله سوف يأتي بالفرج في الوقت المناسب، وإن حدث نقص في المياه بعد ذلك وعجز المرافق عن إيجاد موارد إضافية فإنه لا يلوم نفسه أو يعترف بالتقصير ولكنه يقول أيضاً أن تلك هي مشيئة الله.[2] وفي نفس السياق يستخدم البدو ضرورة شكر الله في السراء والضراء بصورة سلبية، فهم حين يتعرضون للغزوات ويفقدون خلالها ممتلكاتهم يعتبرون ذلك قضاء ينبغي عليهم مواجهته بشكر الله قبل أن يتدبروا الأسباب التي ساقت إليهم الخسارة فضلاً عن تدبر أمر الغزوات بين بدو الصحراء بصفة عامة.[3]

وعلى الرغم من أن بدو قبيلة "الفقراء" أكثر تديناً من القبائل الأخرى بسبب اقترابهم من مكة والمدينة كما سبق أن ذكرنا، وبالرغم من أن عقيدتهم الدينية خالية من كثير مما يشوب عقائد الآخرين، حيث أنهم يعرفون أن علاقتهم بالله علاقة مباشرة لا تحتاج وساطة من شيوخ أو رجال دين أو غيرهم، وهم أيضاً لا يعترفون بالأولياء الصالحين والمزارات والموالد والشخصيات ذات القداسة، وهم فوق هذا وذاك لا يعرفون "الخضر" الذي لعب دوراً هاماً في عبادات أنصاف البدو في البلقاء وفلسطين[4] – رغم هذا فإن بدو" الفقراء" يناقضون هذه الإيجابيات في عقيدتهم بممارسات سلبية أخرى. ففي قبيلة "الفقراء" عادة اللجوء إلى الأحجبة المصنوعة من الجلود والتي تحمل كلمات لا يعرفها ولا

---

[1] Mission, op. cit., 50-51

[2] ibid. 51

[3] ibid.

[4] Mission, op.cit., 55

يتمكن من قراءتها معظم من يحملونها. وهذه الأحجبة يقوم بعملـــها بعــض الأشـــخاص المتخصصين في هذا المجال. ويلجأ إليها البدو حين يشعرون بالمتـــاعب أو الأمـــراض، ويضعها الرجل – أو المرأة – على المكان الذي يشعر به بالألم.

وهناك أنواع أخرى من الأحجبة تخصص أهل "العلا" في كتابتها وتوزيعها علـــى الرجال والنساء بغرض انتشار الحب والتعاطف فيما بينهم. وهناك أيضاً أحجبة يتم كتابتها واستخدامها للحفظ من الشر والحسد. وأحجبة أخرى تكتب وتســـتخدم بغــرض تحقيــق الانتصار في الحروب والغزوات.[١]

ومن الممارسات السلبية أيضاً في قبيلة "الفقراء" ما يتصل بعقيدتهم فـــي "العيـــن الشريرة" أو "ضربة العين" أو الحسد بالمعنى الدارج. وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لبـــدو الصحراء، وفي عقيدتهم أن هذه "العين" بوسعها أن تدمر كل شيء ذي نفع بالنسبة لـــهم. وفي عقيدة البدو أن هناك أشخاصاً معينين لهم مثل هذه الخاصية، وأن أحدهم بوســـعه أن يصوب عينيه على إحدى الدواب فيرديها قتيلة على الفور. ويعمل البدو على البحث عـــن رجال يملكون هذه الموهبة، ويبحثون في نفس الوقت عن أشخاص يملكون موهبة التصدي لهم أو بمعنى آخر إبطال مفعول العين الشريرة.[٢]

وفي عقيدة أبناء قبيلة الفقراء يمثل الشيطان – إبليس – عـــدواً لـــدوداً ودائمـــاً للإنسان، وهو يتربص بهم لإصابتهم بكل أنواع الشرور والمتاعب والآثـــام. والشـــيطان أيضاً هو السبب في إصابة الإنسان بالأمراض وبث الشقاق بين الناس، وهو السبب فـــي اضطرابات ومشاكل الأسرة، وهو من يوسوس للأبناء أن يشقوا عصـــا الطاعـــة ضـــد الوالدين.[٣] والطريف في هذا السياق أن صورة إبليس أو الشيطان تختلف لدى أهل "تيمـــا" المجاورين لقبيلة "الفقراء"، حيث يرتبط " إبليس" في عرفهم بالمهارة والإعجاب، ويرتبـــط أيضا بمجموعة من الأسرار التي يحتفظون بها ولا يفصحون عنـــها للغربـــاء بصـــورة مكتملة.[٤]

---

[١] ibid., 56

[٢] Mission, op. cit., pp. 57-59

[٣] Ibid., pp. 59 - 60

[٤] Mission, op. cit., 59

ويعتقد أهل قبيلة الفقراء أيضاً في كائن غريب يطلقون عليه اسم "الغولة" ويقولون أن هذا الكائن يعيش في الصحراء ويظهر ويختفي وفقاً لمشيئته. وأن هذا الكائن يتخذ أحياناً شكل المرأة ويقوم بدعوة البدو والأعراب وما أن يلبي أحدهم دعوته ويقترب منه حتى يقوم بالتهامه على الفور. ويحتفظ أبناء القبيلة ببعض الذكريات والروايات حول هذا الكائن وقصته مع بعض البدو الذين وقعوا في براثنه. ومن هذه الروايات قصة أحد الصيادين من أهل القبيلة، والذي يقال أن اسمه "عودة بن رويحل"، وأنه أثناء سيره في الصحراء تقابل مع هذا الكائن، وكادت الغولة أن تقضي عليه ولكنه تمكن من التصدي لها وقتلها. وعلى الرغم من أن أحداً من البدو لم ير الغولة هذه بعينيه، فإنهم يصدقون رواية "عودة"، ويبررون اختفاء جثة الغولة التي ادعى قتلها بأن زملاء هذه الغولة قد تمكنوا من خطف جثتها بعد قتلها وأخفوها عن أعين البدو الذين كان "عودة" قد دعاهم لرؤيتها.[1] ولا زال البدو في القبيلة حتى الآن يتناقلون هذه الرواية عبر الأجيال نقلاً عن هذا الصياد ومعاصري الحادث.

وفي عقيدة بدو قبيلة "الفقراء" مكان "للجن" ويطلق عليهم البدو اسم "أهل الأرض" ويقولون بأنهم كثيري العدد للغاية وأن بإمكانهم التكاثر كل يوم وأن منهم الذكور ومنهم الإناث، وهم يتناسلون وينجبون الأطفال في باطن الأرض. ولا يعرف الأعراب على وجه التحديد كيفية ممارسة الجن لحياتهم. والجن في عرف البدو ليس بالضرورة عدواً للإنسان، ولكنه حتى في حالة عدم عدائه للإنسان فإنه يمثل له إزعاجاً أكثر مما يمثل له أي نوع من الخير.[2]

ويقال أن الجن يسكنون منطقة مقابر "مدائن صالح" وإنهم يقومون بإيذاء أي شخص يدخل مناطق تواجدهم ومساكنهم في الليل. وعلى الرغم من تعدد الروايات التي تؤكد تعرض الجن للبشر، فإن المظهر الأساسي لهذا التعرض هو المعروف بدخول الجن في جسد الإنسان وتقمص روحه. وقبيلة الفقراء تتميز بوجود أشخاص لديهم القدرة على طرد الجن من أجساد البشر عن طريق التلاوات والقراءات التي يجيدونها.[3]

---

[1] Ibid., pp. 60 - 61

[2] Mission, op. cit., pp. 60 - 61

[3] ibid., pp. 61 - 62

٥ - الأوضاع الاجتماعية

على الرغم من مرور قرون طويلة منذ بداية ظهور القبائل العربيـــة فـــي شـــبه الجزيرة، وقرون أخرى طويلة أيضاً منذ ظهور الإسلام وانتشاره في المنطقة، فإن بـــدو الصحراء لا زالوا يعتبرون الأنثى رزقاً سلبياً اختصتهم به الأقدار. فكما كان العرب فـــي عصورهم الأولى وفي ظل الجاهلية يعتبرون أن ميلاد الأنثى كارثة أصابتهم ويصل بـــهم الأمر في بعض الأحوال إلى التخلص من المولودة بوأدها ودفنها وهي على قيد الحيـــاة، فإنهم في القرن العشرين ورغم اعتناقهم للإسلام وتمسكهم به لا زالوا ينظرون إلى الأنثى المولودة نفس نظرة الازدراء والكراهية.

ففي قبيلة "الفقراء" لا تصاحب ميلاد الأنثى أية مظاهر للفرح أو السعادة أو حتـــى الرضا. والأم نفسها تستقبل ميلاد ابنتها بنفس منكسرة وكلمات حزينة ومشـــاعر يملؤهـــا الإحباط. ولا تتلقى الأم أو الأب أية تهنئه بميلاد الأنثى سواءً من داخل الأســـرة أو مـــن الجيران في القبيلة أو العشيرة.[١]

وميلاد الذكر يختلف تماماً عن ذلك[٢]، حيث تتعالى صيحات الفرح والسعادة مـــن خيمة الأم، وتتلقى الأم التهاني من الجميع، وتبدو السعادة الغامرة في عين الأب، ويقـــوم الأب من فوره بنحر الذبائح ابتهاجاً بالمولود، ويصطحب وليده الجديد إلى باب الخيمـــة. ويتم في نفس الوقت الإعداد لإشعال النيران تكريماً للأم، وهي النار التي يطلق عليها اسم نار "الحي" وتوضع تحت الخيمة وتظل مشتعلة لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ[٣].

ويبرر البدو تفاوت مشاعرهم بين كراهية الإناث وحب الذكور بقولهم أن البنـــت لا تمثل لهم أية فائدة، فهي لا تمثل شيئاً ذا قيمة للأب أو الأسرة أو القبيلة وهي لا تجلـــب شيئاً ولا تمنح شيئاً، ولا تؤدي أي عمل سوى أن تأخذ فقط.

---

[١] Mission, op. cit., pp. 13-14

[٢] Ibid.

[٣] Mission, op. cit. 13

وتقتصر فائدة الأنثى على زوجها فقط. أما الولد فهو يخدم الأسرة ويخدم القبيلة بوصفه قادرا على القتال والغزو وجلب المنافع المختلفة والدفاع عن قبيلته – ومن هنا فإن الجدوى أو العائد العام هو الذي يحكم استقبال البدو للأبناء من الذكور والإناث.[١]

وفي الصحراء يكون الهدف الأساسي من الزواج بالنسبة للبدو هو إنجاب أكبر عدد من الذكور وتكوين أكبر أسرة ممكنة منهم. وكما يترك البدو سائر أحوالهم لله وينسبون إليه انتصاراتهم وانكساراتهم، فإنهم أيضا لا يعبأون بأمر العدد الكبير من الأبناء الذي يقومون بإنجابه، فالأرزاق بيد الله، وتربية هذا العدد الكبير من الأبناء سوف يعينهم عليها الله أيضاً.[٢]

ولا يقتصر حب الذكور وكثرة الأبناء على الأباء فقط، فالمرأة هي الأخرى تعتز بكثرة الأبناء وتباهي بهم أقرانها، ويمثلون لها وضعا كريماً وشرفاً ومكانة أمام زوجها وأسرتها وجيرانها وعشيرتها. والرجل من ناحية أخرى لا يشارك زوجته لحظة الولادة – رغم حبه للأولاد – ولا يحاول التخفيف من آلامها، ويعتبر أن هذه المشاركة تمثل عاراً عليه، ويقابلها بالخروج من الخيمة وانتظار ما سوف يبشر به. [٣]

والمرأة البدوية تتفنن وتتفانى في اتخاذ الوسائل والسبل التي تكفل لها الاحتفاظ بالزوج وعواطفه نحوها ومكانتها لديه، وتصل في ذلك إلى حد اقتناء الحجاب الذي يحفظها من غضب الزوج وتحول مشاعره عنها. وبالرغم من أن الرجال أيضاً – كما سبق أن رأينا – يستخدمون الأحجبة ويعتقدون في جدواها، فإنهم يصفون المرأة التي تلجأ للحجاب في سبيل الاحتفاظ بزوجها وعواطفه بأنها تمارس ما يطلقون عليه اسم "شغل نسوان".[٤]

والبدو بصفة عامة يحملون للمرأة في نفوسهم مشاعر غير سوية، ويوكلون إليها كل الأعمال الشاقة التي تحفل بها بيئة الصحراء، فالمرأة هي المسئولة عن تربية الأطفال،

---

[١] ibid., 14

[٢] Mission, op. cit., 14

[٣] Ibid., pp. 13-14

[٤] Ibid., 15

وهي المسئولة عن كل شئون المنزل، وهي المسئولة بالطبع عن إعداد الطعام والملابس، وهي المسئولة أيضاً عن العناية بالدواب والحيوانات، وهي التي تكلف بإحضار الماء من مصادره القريبة والبعيدة، وهي التي تتولى شئون الضيوف الذين يحلون بخيمة الأسرة.[١] وعلى الرغم من كل هذه المسئوليات وغيرها،فإن كثيراً من رجال قبيلة "الفقراء" لا يثقون كثيراً بنسائهم، ولا يحملون لهن مشاعر طيبة. ويتوجس الرجل من سلوك زوجته أثناء غيابه في رحلة أو غزوة، ويلجأ إلى سؤال الأهل والجيران عن مسلك زوجته وتصرفاتها أثناء غيابه ولا يتورع عن التخلص منها بالطلاق حين يسمع عنها أي شيء لا يروق له.[٢]

ولعل هذا الموقف من الرجل تجاه زوجته هو الذي أدى إلى ظاهرة ارتياح النساء – بصفة عامة – حين تسمع إحداهن نبأ موت زوجها في رحلة صيد أو غزوة من الغزوات. حيث أن بعض الزوجات في قبيلة "الفقراء" يحمدن الله حين يأتيهن خبر وفاة أو مقتل الزوج الغائب، ويبدأن على الفور رحلة البحث عن زوج جديد.[٣] وهذه المشاعر التي تحملها بعض النساء لأزواجهن لا تمنع هؤلاء النساء من ممارسة كل الطقوس المتعارف عليها بين البدو عند وفاة الزوج وإعلان الزوجة الحداد عليه. حيث يتعين على الأرملة في هذه الحالة أن تقوم بتغطية رأسها باللون الأبيض وإخفاء شعرها أو قصّه، بالإضافة إلى عدم تكحيل عينها أو تجميلها، وكذلك ضرورة الانتحاب والولولة على الزوج الراحل كما جرت عليه العادة.[٤]

وبالرغم من الوضع العام غير المناسب الذي تعاني منه النساء في القبيلة، فإن المرأة حين تتقدم في السن لا تواجه الإهمال أو الاحتقار من جانب الرجال أو النساء ولكنها تجلس في خيمتها وتحاط بنفس الاحترام الذي يتمتع به الآخرون والأخريات. وأحياناً تكون للنساء المتقدمات في السن مكانة متميزة في القبيلة بسبب ما لهن من خبرات وتجارب ورؤى ثاقبة تكونت على مدار سنوات أعمارهن الطويلة.[٥] وللمرأة بخلاف ذلك

[١] Mission, op. cit., 14

[٢] Ibid., pp. 15-16

[٣] Ibid., pp. 16-17

[٤] Mission, op. Cit., pp. 16-17

[٥] Ibid., 17

دور هام في تفكير وقرارات رجال القبيلة. ورغم ما يكتنف نظـــرة الرجــل للمــرأة أو الزوجة من الدونية وعدم الاعتداد فإن مشاعر البدو لا تخلو من حـــب النســاء. وهنـــاك قصائد شعرية كثيرة تعبر عن محاسن ومفاتن النساء ومشاعر الرجال نحوهن.[١]

والزواج لدى قبيلة "الفقراء" يختلف عنه في قبائل الشمال الأخرى. ففـــي قبـــائل شمال شبه الجزيرة العربية تبدو عملية الزواج أشبه ما تكون بالصفقة التجارية وأمـــور البيع والشراء. وتتحكم القدرة المالية للرجل في موافقة أهل العروس على اقترانها به. ولا يتردد الأب في تزويج ابنته للقادر على أن يدفع أكثر من الآخرين.[٢] ويختلف الوضع فـــي قبيلة "الفقراء" حيث لا يهدف الأب من وراء زواج ابنته إلى الـــثراء أو الاســـتزادة مـــن المال. ولا يفرض الأب مهراً معيناً على الشاب الذي يتقدم إليه طالباً يـــد ابنتـــه. ويتـــم التفاوض في هذه الحالة حول الروابط والإجراءات الأخرى التي لا يدخل ضمنها المال أو مقدار المهر المطلوب.[٣]

وحين يصل سن الشاب في قبيلة "الفقراء" إلى ثمانية عشر أو عشرين عاماً فإنـــه يبدأ البحث عن فتاة تصلح أن تكون زوجة له، ووسائل التعرف على النساء فـــي القبيلـــة وسائل ميسورة تماماً، حيث يسمح للفتيات في القبائل بالتجول والرعي في كـــل أرجـــاء المكان الذي تعيش فيه قبيلتها. وما أن يقع اختيار الشاب على فتاة معينة حتى يتجه إلـــى والدها بغرض الاتفاق المبدئي واستطلاع رأيه في أمر زواجه من ابنته. ومن النادر فـــي هذه الحالة أن تواجه رغبة الشاب بالرفض من جانب والد أو أسرة الفتاة. وبعـــد موافقـــة الأب يتعين على الشاب أن يحصل أيضاً على موافقة الفتاة.[٤] وفي هذه الحالة يكون عليـــه أن يكلف بعض معارفه أو أقاربه بالحديث مع الفتاة والحصول على موافقتها، وفي أغلـــب الأحوال تتولى الأم أو الخالة هذه المهمة.[٥]

---

[١] Ibid., pp. 17-19

[٢] Coutumes des Arabes, op. Cit., 48

[٣] Mission, op. Cit., 19

[٤] Ibid., pp. 19 - 20

[٥] Mission, op. cit., 20

والفتاة في قبيلة "الفقراء" تتمتع بقدر معقول من الاستقلال في شئون زواجها وخاصة في اختيار الزوج، وهي هنا أكثر استقلالاً من فتيات قبائل الشمال الأخرى التي يتحكم الأباء فيها في زواج بناتها وفقاً للقدرة المالية لطالبي الزواج. ومن حق الفتاة في قبيلة "الفقراء" أن ترفض المتقدم لها ويعتبر رفضها نهاية لمشروع الزواج حتى في ظل الموافقة المبدئية التي يكون الأب قد منحها للعريس.[١] وإلى جانب ذلك كان من حق المرأة أيضاً أن تبدي رغبتها في الزواج من رجل معين حتى وإن كان هذا الرجل لم يتقدم لطلب يدها. وفي مثل هذه الأحوال كان الأب – بصفة عامة – لا يقف أمام رغبة ابنته، بل أنه قد يساعدها في تحقيق هذه الرغبة.[٢]

وتسير الأمور في قبيلة "الفقراء" على ذات النحو الذي ورد بالشريعة الإسلامية فيما يتعلق بتحريم الزواج بين الأصول والفروع. فالزواج من الشقيقين لا يجوز، حتى وإن كانتا مختلفين الأم. وكذلك كل من ورد بالشريعة الإسلامية تحريمهن في الزواج هي محرمات أيضاً لدى بدو "الفقراء"[٣] ويفضل في الزواج أن يتزوج الشاب ابنة العم، ونادراً ما يرفض طلب الشاب في الزواج من ابنة عمه.

والعرف أيضاً أن تكون الزوجة من داخل قبيلة الزوج.[٤] والخروج عن هذه القاعدة يتم فقط حين يقبل الشيخ الزواج من ابنته شيخ قبيلة أخرى من أجل التحالف السياسي، وإن كان العرف الأساسي هو الزواج من داخل القبيلة بوصفه أكرم لبنات القبيلة وأدعى لاحترامهن وعدم الزج بهن في قبائل الغرباء.[٥] ويرى البدو في هذا السياق أنهم لو سمحوا بزواج نسائهم من جيرانهم فإنهم بذلك يمنحون هؤلاء الجيران فرصة التكاثر في العدد والقوة، وهو ما يمكن معه أن يصبحوا أقوى منهم. والأفضل هنا أن يترك هؤلاء الفتيات في داخل القبيلة حتى يلدن الأبناء الذين يضاعفون قوة وقدرة القبيلة.[٦] والمرأة في

---

[١] Ibid.

[٢] Ibid.

[٣] Ibid., pp. 24 - 25

[٤] Ibid. 25 -26

[٥] Mission, op. cit., 25

[٦] Ibid.

قبيلة "الفقراء" لا تحب أن تغادر أرضها، وحتى أن قدر لها ذلك فإنها لا تتطلع إلى الزواج من القبائل الأخرى وتعتبره حطاً من شأنها. وترى النساء أن الحياة البدوية أفضل وأكثر نبلاً وكرامة من حياة الفلاحين.[١]

والطلاق في قبيلة "الفقراء" يخضع أيضاً لما جاء في الشريعة الإسلامية. فهو حق من حقوق الرجل ويقع وفقاً لمطلق مشيئة الرجل.[٢] ومسببات الطلاق بين أعضاء القبيلة تنحصر في عدة حالات شائعة. فالرجل يطلق المرأة حين لا تروق في عينيه لأي سبب من الأسباب، أو حين تكون غير قادرة على الإنجاب، وكذلك حين لا تنجب سوى الإناث فقط، ويطلقها أيضاً حين لا تكون قادرة على الاجتهاد في أداء الأعمال الموكلة إليها، وأيضاً حين ترتكب خطأ فادحاً أخلاقياً أو سلوكياً،[٣] ويطلقها الرجل أيضاً حين يكون رجل أخر يرغب في الزواج منها، ويطلقها الزوج في هذه الحالة - في بعض الأحيان - طواعية أو مجاملة لهذا الآخر.[٤]

وعند وقوع الطلاق تعود المرأة إلى بيت أبيها وتظل فيه إلى أن تتزوج زوجاً أخر أو تقضي باقي عمرها هكذا. ومن حق المرأة أيضاً أن تطلب الطلاق من زوجها وتعود إلى بيت أبيها في انتظار وقوع الطلاق. ومن النادر في هذه الحالة أن يرفض الزوج طلب زوجته أو يجبرها على الحياة الزوجية رغم أنفها.[٥] وحين يطلق الرجل زوجته فإنه يمنحها وقت الرحيل ملابس جديدة ومبلغاً من المال يتراوح بين ٨ و١٠ مجيدي. ولو كان الطلاق قد تم بناءً على رغبة الزوجة لا يكون لها الحق في هذه الحالة في هذا العطاء. وإن كانت المرأة حاملاً وقت طلاقها فإن الزوج يمنحها ما يكفي لغذائها هي وطفلها.[٦]

---

١ Ibid.

٢ Ibid. 26

٣ Ibid.

٤ Mission, op. cit., 26

٥ Ibid., 27

٦ Ibid.

ونظام التبني معروف لدى قبائل "الفقراء" - رغم أن الشريعة الإسلامية قد أبطلته - وللطفل الذي يتم تبنيه الحق في نصف ميراث أبيه بالتبني.[1] وإن لم يكن الأب في هذه الحالة قد أشهر تبنيه للابن، فإنه لا يكون من حق الابن بالتبني أن يطالب بنصيبه في تركة الأب حين وفاته.[2] ويكون من حق أقارب الأب أن يحجبوا التركة بالكامل عن الابن المتبني.

وفيما يتعلق بالأسرة فإن للأب سلطة مطلقة داخل أسرته في قبيلة "الفقراء" وكذلك أيضاً في القبائل المجاورة لها. وإن كان الأب يمنح بعض الاستقلال للبنت في الزواج فإنه يتعامل بكل الشدة والصرامة مع الأبناء من الذكور.

ويصل حق الأب على الأبناء إلى حد إمكانية قتل الابن الذي يخرج عن طاعته.[3] ومن حق الأب أيضاً أن يقوم بطرد وإبعاد الابن الذي يخالف أوامره من المنزل والقبيلة، ولكنه لا يحق له أن يستبعده من الميراث، حيث أن المواريث شأن ديني يطبق فيه الأعراب نص ما أوردته الشريعة الإسلامية.[4]

وعلى الرغم من التزام بدو "الفقراء" بالشريعة في عدم حرمان الابن المارق من الميراث، فإنهم لا يطبقونها في شأن أحقية النساء في الميراث. فبينما يطبق الأعراب في "تيما" جيران "الفقراء" - قاعدة منح المرأة سدس الميراث بمقتضى الشريعة الإسلامية، فإن بدو "الفقراء" يحرمون المرأة من المشاركة في ميراث الأب في حالة وجود أبناء من الذكور.[5] وفي حالة وفاة الرجل عن ابنة وحيدة فإن لها الحق في أن ترث الثلث ويذهب الثلثان للوالدين. وفي حالة وفاة الرجل عن ابنتين دون ذكور، فإنهما ترثان الثلثين ويترك الثلث للوالدين. ويطبق "الفقراء" أيضاً حق الزيادة للابن الأكبر في الميراث، حيث يكون من حق أكبر الأبناء أن يحصل على نصيب من الميراث يفوق نصيب أي من الأخوة الآخرين.[6]

---

[1] Ibid., pp. 25 - 26

[2] Ibid. 26

[3] Mission, op. cit., 30

[4] Ibid.

[5] ibid., pp. 30 - 31

[6] Mission, op. cit., pp. 30 - 31

ويضم مجتمع قبيلة "الفقراء" عدداً من العبيد على الرغم من إلغاء نظام الرقيق بصفة رسمية في عهد الدولة العثمانية.[1] فالرق موجود لدى بدو الصحراء رغم هذا الإلغاء ولكن بصورة تختلف قليلاً عن صورته في العهود السابقة. ولا زالت أسواق العبيد والجواري تعقد في مكة والمدينة بصورة خاصة. وهناك أسعار يتم تحديدها في هذه الأسواق للعبيد والجواري وتتوقف هذه الأسعار على السن والحالة البدنية والصحية للعبيد والجواري المعروضين للبيع أو الشراء. والسعر الأعلى بطبيعة الحال يكون للعبيد والإماء الأصغر سناً والخالية من العيوب الشكلية والبدنية والصحية.[2]

والعبد يرتبط بسيده في كل شيء، وعليه أن يذهب معه إلى محل إقامته، وكانت معاملة العبيد بصفة عامة معاملة آدمية من حيث المأكل والملبس وسبل المعيشة الأخرى، ويتولى العبد الأعمال التي يكلف بها في المنزل الخاص بسيده، ويمنح العبد قدراً من الحرية النسبية، وإن كان لا يحق له التصرف المستقل ولا يتمتع بالشخصية الحقيقية أو الاعتبارية عرفياً أو قانونياً كسائر الأحرار. وفي مدن شبه الجزيرة يحق للسيد أن يعاشر الجارية مثل معاشرته للزوجة، وهذا الوضع غير معمول به في قبيلة "الفقراء".[3] وفي حالة رغبة العبد في الزواج فإنه لابد من الحصول على موافقة سيده، والسيد في هذه الحالة لا يعارض الرغبة التي يبديها العبد، ويكون للطفل المولود في ظل العبودية قدر من الاستقلال يفوق القدر المتاح للعبد القادم من طريق الشراء.[4]

وفي حالة مقتل العبد على يد أحد أبناء القبائل الأخرى يكون من حق سيده أن يأخذ بثأره. وهو في هذه الحالة يختار ما بين الحصول على دية القتيل أو يقوم بقتل أحد أفراد هذه القبيلة على سبيل القصاص. وإذا كان قتل العبد على يد أحد أبناء نفس قبيلة سيده فإن القاتل يكون عرضة للقتل أو الطرد من القبيلة مع دفع الدية.[5] وإذا هرب العبد واحتمى بإحدى القبائل الأخرى فإن على القبيلة التي لجأ إليها أن تقوم بإعادته إلى سيده

[1] Ibid. 31

[2] Ibid. 32

[3] Mission, op.cit., 32

[4] ibid.

[5] ibid.

الأصلي ما لم تكن هناك عداوة أو حرب بين القبيلتين. وإذا كانت بينهما حرب أو عداوة فإن العبد لا يعاد للقبيلة الأولى ولكنه يضم لإحدى أسر القبيلة الثانية أو يظل في خيمة الشيخ الذي يمنحه الضيافة والإقامة ويصبح العبد على هذا النحو تابعاً له. وتكون للعبد في هذه الحالة درجة من الاستقلالية تفوق ما كان له في ظل سيده الأول. وهروب العبيد بصفة عامة كان يرجع إلى إساءة معاملتهم من قبل سادتهم في القبائل التي يهربون منها.[١]

وفي بعض المناسبات الهامة يلجأ الأعراب إلى عتق العبيد ومنحهم حريتهم. وهم بذلك يأمنون شر هروب العبيد منهم ولجوءهم إلى القبائل الأخرى. ويتم عتق العبيد بصفة خاصة حين يشارك في إحدى الغزوات ويبلى فيها بلاءً حسناً، وكذلك حين يتزوج ويبدأ في تكوين أسرة جديدة، وأيضاً حين يولد له المولود الأول. ويتم إطلاق سراح العبد في احتفال يقيمه له سيده وينحر فيه الذبائح ابتهاجاً بهذه المناسبة، ويصبح العبد من هذه اللحظة حراً مستقلاً بمنزله وأسرته ولكنه يظل مع ذلك مديناً بالفضل والعرفان لسيده الذي أعتقه.[٢] وقد يصبح العبد المعتق فيما بعد أحد الشخصيات الهامة في المجتمع البدوي. وقد يصل أيضاً إلى مرتبة ممثل الشيخ الذي يقوم بتنفيذ المهام الخاصة التي يكلفه الشيخ بها. ويسمى في هذه الحالة "عبد الشيخ"، ويمنح بمقتضى هذا اللقب صلاحيات وسلطات مطلقة يستمدها من ذات الصلاحيات الخاصة بشيخه. وقد تم أخيراً تحرير كل العبيد الموجودين في قبيلة "الفقراء" في أعقاب دخول القبيلة في إطار سلطة الحكومة المدنية.[٣]

وفي قبيلة "الفقراء" تسمح الأعراف القائمة للآباء في حالة الضرورة بأن يقوموا ببيع أبنائهم. وتشير تقارير البعثة الفرنسية إلى أن أحد الآباء من أبناء هذه القبيلة واسمه سعيد الهاجرى كان قد قام قبل ثماني سنوات من عمل هذه البعثة ببيع ابنه وابنته لضباط من دمشق[٤].

---

[١] Mission, op. cit., 33

[٢] Ibid., pp. 33 - 34

[٣] Mission, op.cit., 33

[٤] Ibid., 31

ويعتقد البدو من قبيلة "الفقراء" أن السبب في تعرض أي شخص للعبودية هو عدم طاعته لوالديه وهو الأمر الذي يدفع الوالد إلى طرده من الأسرة والدعاء عليه بأن يباع ويشترى كالعبيد، وتتحقق الدعوة في حق هذا الشخص ويصبح عبداً بالفعل.[1]

٦ – العلاقات بين القبائل

تمثل الغزوات أو حالات السطو الجماعي المسلح بين القبائل أهم ما يمكن رصده من علاقات سياسية في قبائل شمال شبه الجزيرة. وهذه الغزوات تمثل من ناحية أخرى وضعاً قديماً يكاد يتزامن مع البدايات الأولى للاستيطان البشري في هذه المنطقة.

والغزوات بالنسبة للأعراب لا تعتبر أمراً مستهجناً أو سلوكاً عدوانياً، ولكنهم ينظرون إليها بوصفها حقاً قرره الله لهم ولا تستقيم بدونه حياتهم. ويقول بدو الصحراء أن لهم الحق في أن "يكون طعامهم من قطيع جيرانهم". والهدف من الغزوات التي يقوم بها بدو الصحراء ضد بعضهم البعض هو تحقيق ذلك الهدف الذي يعتبره البدو أحد حقوقهم الأساسية التي كلفها لهم الله.[2]

وتتم الغزوات التي تقوم بها القبائل عن طريق إعداد المقاتلين من أبناء القبيلة الغازية ويكون على رأسهم القائد الذي يسمى "بالعقيد" وهو الذي يتولى قيادة رجال وأبناء القبيلة أثناء الغزوة. ويتم تقسيم المحاربين في الغزوات إلى فريقين أحدهما كامن والآخر ظاهر.[3] وعند بداية الهجوم يشارك الفريقان في القتال والاستيلاء على الغنائم تحت قيادة نفس العقيد. وفي أعقاب نجاح الغزوة وحين يترك الأعداء أو القبيلة الواقع عليها الاعتداء قطعانهم غنيمة في أيدي قوات الغزو والمغيرين، يبدأ المنتصرون تقسيم الغنائم فيما بينهم. وفي هذه الحالة جرى العرف في الصحراء على أن يأخذ العقيد نصيبه أولاً، ويكون له الحق في اختيار ما يروق له من الغنائم قبل التقسيم، ثم يقوم بعد ذلك بدعوة الباقين لأخذ أنصبتهم، وتكون هذه الأنصبة وفقاً لدرجة بلاء كل مقاتل في الغزوة. وهناك نصيب في

---

[1] Ibid.

[2] Mission, op. cit. 37

[3] Ibid., pp. 37 -38

الغنائم يتم تخصيصه للأعراب الذين قاموا بإعداد الإبل – الذلـــول – المســتخدمة فــي الغزو.[1]

ومن السلوكيات المتعارف عليها أثناء الغزوات أن تكون هناك معاملـــة خاصـــة للنساء والأسرى. وفيما يتعلق بالنساء فإن القواعد والأعراف الخاصــــة بمعاملتـــهم فـــي الغزوات ليست قواعد وأعراف ثابتة بالنسبة لسائر القبائل، ولكنها تتفاوت وتختلــف مـــن قبيلة لأخرى. فعلى حين يعامل أبناء قبيلة "الفقراء" نساء أعدائـــهم معاملـــة حســنة فـــي الغزوات، فإن هناك قبائل أخرى لا تعامل النساء في الغزو على هذا النحـــو بـــل أنـــهم يقومون بنهب وسرقة ملابس ومجوهرات نساء القبائل التي يقومون بغزوها.[2]

وبالنسبة للأسرى فإنه من المعتاد في الغزوات أن يأخذ أبناء القبيلة المعتدى عليها بعض الأسرى من القبيلة المعادية، والعرف جرى على أن يتعامل هؤلاء مـــع أســـراهم بشكل طبيعي فيما يتعلق بالطعام أو الشراب وسبل المعيشة على اختلافها، ويكــون ذلــك الوضع حين تكون القبيلة التي تم غزوها على درجة من الضعف لا تسمح لها بـــالتصدي للقبيلة المغيرة عليها قتالاً بقتال. وتحتفظ القبيلة بهؤلاء الأســـرى إلـــى أن تقـــوم القبيلـــة الأخرى بإعادة ما تم الاستيلاء عليه أثناء الغزو من القطعان والممتلكات الخاصة بـــهم.[3] وأحياناً تلجأ هذه القبائل إلى استعادة أسراها باستخدام القوة أو التحايل بـــدلاً مـــن إعـــادة الغنائم التي حصلت عليها أثناء الغزوة. وفي أحيان أخرى تتخلى الأسرة أو القبيلـــة عـــن أسيرها أو أسراها ولا تجتهد في استعادته. وفي هذه الحالة تقوم القبيلة التي تحتفظ علـــى الأسير بالعمل على حث قبيلته أو أسرته على استرداده. ويتم ذلك من خلال تهديد أقاربـــه بقتله وإرسال جزء من أذنه إليهم بعد قطعها حتى تعلم الأسرة أن الأسير في خطر وعلـــى وشك التعرض للقتل بالفعل.[4] وفي مرحلة سابقة على قطـــع أذن الأســـير تقـــوم القبيلـــة المحتفظة به بإرسال خصلة من شعره إلى أسرته. وفي حالة الرفض النهائي من جـــانب

---

[1] Mission, op. cit. 38

[2] Ibid.

[3] Mission, op. cit., pp. 39 - 40

[4] Ibid., 40

الأسرة أو القبيلة لاستلام أسيرها أو استعادته ورد ما سلبوه من القبيلة الأخرى، فإنه لا يكون أمام القبيلة الأخرى سوى قتل هذا الأسير. وتتفق أعراف الغزوات في عدم أسر النساء وإن كان من الممكن أسر الإماء أو الجواري واعتبارهن في هذه الحالة ضمن الغنائم التي يتم الاستيلاء عليها أثناء الغزوة.[١]

ولا تقتصر العلاقات الداخلية والخارجية في قبائل البدو على الغزوات بطبيعة الحال. فهناك أيضاً المحالفات التي تتم بين العرب على المستويين العام والخاص. فحين يرغب شخصان من القبيلة في التعاون قبل إحدى الغزوات أو أحد الأعمال الهامة، فإنهما يعقدان ما يعرف باسم "المحالفة".[٢] ويتم اتفاق المحالفات هذه أمام الخيمة ويتم نحر الذبائح بهذه المناسبة وفور إتمام الاتفاق، وعند إراقة دم الذبيحة على التراب يقول كل منهم :"أننا قد تحالفنا بحق هذا الدم". ويرتبطان على هذا النحو بالمحالفة ويسمى كل منهما "بالحليف".[٣] ومن الممكن أن تقتصر المحالفة على أي شخصين أو طرفين، ويمكن أيضاً أن تتم بين اثنين من شيوخ القبائل حين ترغب القبيلتان في إنهاء الخصومة بينهما.[٤] وينوب الشيخان في هذه الحالة عن سائر أعراب القبيلة. ويتم الاتفاق بأن يضع كل من الشخصين يده اليمنى في يد الأخر ويقول كل منهما :"أننا قد توحدنا ـ تصالحنا – باسم الله ورسوله، ولن يغير أحدنا على الأخر، ولكننا سوف نعمل معاً في الحرب والدفاع ضد كل من يعلن الحرب أو العداء ضدنا".[٥]

ويلجأ البدو للعهد أو القسم حين يكونون بصدد عقد تحالف أو مصالحة على المستوى العام، أو تعاقد على المستوى الخاص. ويتم العهد أو القسم في هذه الحالة باسم الله ورسوله أيضاً، ويتم أيضاً إراقة دماء الذبيحة فور إتمام هذا الاتفاق.[٦]

---

١ Mission, op. cit., 40

٢ Ibid. 35

٣ Ibid. 36

٤ Ibid.

٥ Mission, op. cit., 36 & Coutumes des Arabes, op. Cit., 160

٦ Mission, ibid., pp. 36 - 37

والأعراب يستخدمون صيغاً كثيرة للقسم الذي يؤكد صدق حديثهم. وأكثر هذه الصيغ هي القسم بالله. وهناك أيضاً من يقسم بحياة أبيه أو حياة أمه أو حياته هو أو بشيء من خصائص البيئة مثل النار أو الكلأ وهناك أيضاً من يقسم بذقنه أو بعينيه. ويمثل القسم ركناً ثابتاً في المعاملات اليومية ويستخدمه الشخص للتأكيد على صدق ما يقول.[١]

٧ – الخصائص الشخصية والبيئية

على الرغم من البيئة القاحلة والتضاريس الصحراوية القاسية فإن بدو قبيلة "الفقراء" – وجيرانهم بطبيعة الحال – يحبون الجمال ويهتمون بملابسهم وتصفيف شعرهم والعناية به، ويهتمون كذلك بذقونهم ويضعون الكحل في أعينهم، كما يهتمون أيضاً ببياض ونظافة وصحة أسنانهم.[٢]

وبدو الصحراء يهتمون اهتماماً كبيراً بالشرف ويعتزون بأنفسهم وعقائدهم اعتزازاً كبيراً شأنهم في ذلك شأن العرب الأوائل في حضارة العرب وتاريخهم القديم[٣]. وتدلل البعثة الفرنسية على تلك الصفة لدى العرب من خلال الرفض القاطع الذي وجهت به هذه البعثة من أهالي بعض القبائل حين طلبوا منهم التعاون معهم لإنجاز مهمة دراسة هذه المناطق. وكان الاختلاف في الدين والطباع هو الدافع لرفض التعاون مع هذه البعثة من جانب الأعراب. ومن ناحية أخرى كان موقف قبيلة "الفقراء" – على رغم تناقضه مع موقف الآخرين – دليلاً على تمسك البدو بالشرف والالتزام، حيث أن أبناء قبيلة "الفقراء" حين اقتنعوا بالتعاون مع البعثة التزموا بوعدهم بشكل قاطع ودون النظر إلى مواقف جيرانهم أو الحجج التي استندوا إليها في مقاطعة الفرنسيين.[٤] ومن الصفات الملازمة لبدو

---

١ Ibid.

٢ Mission, op.cit., 41

٣ ibid.

٤ ibid. & CF: Coutumes des Arabes, 77

القبائل طوال تاريخهم القديم والحديث صفتا الكرم والاستعداد الدائم للقتال.[1] وكل من هاتين الصفتين يمثل ضرورة للأعراب بحكم البيئة والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المفروضة عليهم. فالقتال يمثل للبدو الحل الوحيد للتعايش مع جيرانهم في ظل تكريس الغزو كأحد الحقوق الأساسية للقبائل وأحد المصادر الأولية لكسب العيش. ومن هنا كان على كل قبيلة أن تولي اهتماماً بالغاً بإعداد أبنائها للهجوم على القبائل الأخرى عند الحاجة، وللدفاع عن القبيلة نفسها عند الضرورة. وقبائل البدو – كما سبق أن رأينا – تهتم اهتماماً بالغاً بالتكاثر وإنجاب الذكور حتى يكونوا في المستقبل رجالاً أشداء يزودون عن القبيلة ويحاربون في غزواتها ويجلبون لها قطعان وأرزاق الآخرين. والغزو بالنسبة للقبائل العربية لا يرتبط بموعد محدد أو نذر معروفة، ولكنه من الممكن وقوعه في أية لحظة وبدون أسباب أو مقدمات أو نذر، وهو الأمر الذي يفرض على كافة القبائل أن تكون على استعداد دائم للقتال هجوماً أو دفاعاً.

والكرم يمثل أيضاً صفة أملتها على العرب ظروف بيئتهم وخصائص حياتهم.[2] وبالرغم من أن الكرم صفة إيجابية في حق العرب، فإنه يعد من الصفات البيئية أكثر منه من الصفات العنصرية. فكما أن العرب لم يكن لهم خيار في ضرورة القتال دفاعاً عن أنفسهم ضد القبائل الأخرى أو سعياً للاستيلاء على أرزاق يحتاجون إليها، فإنهم أيضاً لم يكن لهم خيار في ترك خيامهم مفتوحة طوال الوقت أمام المسافرين والغرباء ومستحقي الضيافة وذوي الحاجات، فتلك أعراف وضرورات الصحراء.

وهناك العديد من الخصال السلوكية التي يعتبرها بدو الصحراء من الأمور المرذولة التي يكرهونها لأنفسهم ولغيرهم. وغالبية هذه الصفات ترجع أيضاً لظروف بيئتهم وحياتهم. ومن أهم الصفات التي يعتبرها الأعراب من الرذائل ما يعرف باسم "الخشان"، وهو من يخالف آداب الطعام والمائدة ويتناول قطعة لحم أكبر من الحجم الذي

---

[1] Mission, op. cit., pp. 41 - 42

[2] Ibid.

يمكن بلعه وازدراده بسهولة.[1] وما يعرف باسم "النطول"، وهو من يسرق ما بداخل الخيام أثناء الغزوة [2]، وذلك أن أعراف الغزوات تقضي أن يكون من حق القائمين بالإغارة الاستيلاء على الغنائم التي تقع خارج الخيام فقط، ولا يحق لأحدهم أن يدخل أية خيمة ويسرق ما بداخلها من أمتعة وإلا تحول من غاز إلى لص. وهناك أيضاً ما يعرف باسم "الشرود" [3]، وهو من يهرب أو يشرد عن الجماعة يوم الغزوة أو المعركة أو الحروب. وأيضاً يكره العرب من يعرف باسم "قبان الضيف" وهو الشخص الذي يعرض عن الضيف أو يطرده أو يرفض استضافته.[4] وهناك كذلك من يعرف باسم "أكال الأمانة" وهو الشخص الذي تودع لديه إحدى الأمانات أو الودائع الخاصة بشخص آخر فيقوم بتبديدها. وإلى جانب ذلك يكره العرب من يترك صاحبه عند مواجهة مأزق أو شدة أو ضائقة في طريق يصاحبه فيه.[5] ويكرهون أيضاً الشخص الثري الذي يأكل رزق الفقير، وصاحب العهد الكاذب، ومن يرتد عن دين الإسلام. وكل هذه الصفات المرذولة لا تلحق بصاحبها العار حال حياته فقط بل أنها تمتد أيضاً إلى احتقار الرجل بعد وفاته.[6]

والنساء في البيئة الصحراوية يبدين اهتماماً كبيراً بالزينة والحلي شأنهن في ذلك شأن سائر النساء.[7] وعلى الرغم من حب المرأة البدوية للمشغولات الذهبية مثل العقد والسلسلة والقرط والحلي التي توضع في طرف الأنف فإن الفقر يحول بين أغلبهن وبين اقتناء هذه المشغولات والاستمتاع بها. ومن أهم الصفات التي يفضلها البدو في النساء اللائي يرتبطن بهن بالزواج هي صفة الأسرة الطيبة وحسن التربية والتزام المرأة بالكرم

---

[1] Mission, op.cit., 42

[2] Ibid.

[3] Ibid.

[4] Mission, op. cit., 42

[5] Ibid.

[6] Ibid. 43

[7] Ibid. 43

مع الضيف والإخلاص للزوج.[1] وكما تفرض البيئة الصحراوية الخصائص السلوكية والشخصية على البدو والقبائل فإنها تفرض أيضاً خصائص أخرى مثل أنواع الطعام والشراب وسبل المعيشة.

ففي قبيلة "الفقراء" والمناطق المجاورة لها يعد اللبن هو الغذاء الرئيسي لأبناء القبيلة، وهو طعام ميسور بالنسبة لهم نظراً لوجود الحيوانات التي يقومون بتربيتها والحصول على حاجتهم من الألبان عن طريقها.[2] وفي التاريخ الحديث لهذه القبائل وفي أعقاب إنشاء سكة حديد الحجاز أصبح الخبز من المكونات الهامة لطعام البدو.[3] وأمكن عن طريق القطارات حصول أبناء منطقة "مدائن صالح" على حاجتهم من الخبز بشكل ميسور ودائم وبصورة مباشرة من دمشق. وقبل السكك الحديدية كان أهل هذه المنطقة يحصلون على احتياجاتهم من الخبز أو القمح عن طريق قوافل من الإبل، وكانوا يحصلون على احتياجاتهم من الحبوب الغذائية الأخرى أهمها الأرز – من منطقة "خيبر" و "تيما".– والخبز رغم هذا لا يمثل حاجة رئيسية من حاجات السكان في هذه البيئة، فهم يفضلون التمر عليه كغذاء رئيسي إلى جانب اللبن الحليب بطبيعة الحال. [4]

وبالنسبة للتمر فإن هناك مجموعات كبيرة من النخيل في منطقة خيبر[5]، ويتم رعايتها والإشراف على إنتاجها من خلال مجموعة من العبيد السود المشتغلين بالأعمال الزراعية، ويحصلون في مقابل ذلك على ثلث المحصول. ويقيم "الفقراء" خيامهم بالقرب من منطقة "خيبر" وحولها في وقت جني المحصول.[6]

واللحوم لدى قبيلة "الفقراء" قليلة ونادرة، ولا يأكلونها إلا في مناسبات الأعياد أو المناسبات الهامة، ولابد أن يكون معها الأرز في طعامهم.[7]

---

[1] Ibid. 44

يطلق عرب القبائل أسماء معينة على النساء اللاتى يمارسن سلوكاً سيئاً ويلحق العار بمثل هؤلاء النسوة فى حياتهن وبعد موتهن أيضاً.

[2] Mission, op. cit., 47

[3] Ibid.

[4] ibid.

[5] ibid.

[6] Mission, op. cit., 47

[7] Ibid., 48

وإلى جانب الألبان والتمر والحبوب الغذائية واللحوم، هناك أيضاً بعض المنتجات الزراعية التي بدأ أهل هذه المنطقة في الاعتماد عليها في طعامهم منذ بدايات القرن الحالي. ففي منطقة الواحات في "تيما" بدأ إنتاج الفواكه والخضراوات منذ بداية هذا القرن، وأهم هذه المنتجات في ذلك الوقت كانت الفواكه مثل التين والعنب والرمان، والحمضيات مثل الليمون والبرتقال، والخضراوات مثل الباذنجان والبصل والفجل، وهناك أيضاً البطاطا والبطيخ وغيرهما.[١]

ويلجأ أهالي المنطقة إلى استكمال احتياجاتهم الأخرى من المواد الغذائية التي بدأت في احتلال مكانها على موائدهم من مناطق أخرى أهمها دمشق عبر الصحراء. وقد بدأت في الظهور المحلات المتخصصة في بيع هذه المنتجات في "مدائن صالح". ويحصل البدو على الأموال اللازمة لشراء هذه الاحتياجات من خلال الحيوانات التي يقومون بتربيتها وبيعها.[٢]

وهناك بعض القبائل التي تعيش في هذه المناطق الصحراوية قد يصل بهم الفقر إلى عدم تمكنهم من شراء الغذاء المناسب فضلاً عن عدم امتلاكهم مصادر الغذاء التقليدي لبدو الصحراء بكميات كافية. وهم في هذه الحالة يعتمدون في معيشتهم على مصادر النبات الطبيعي الذي ينمو في بعض المناطق الصحراوية، وأهم أنواع هذا النبات هي الكرات والسعدان والريحانة والصمغ وغيرها.[٣]

والاقتصاد القبلي يقوم بصفة أساسية على الإبل. فهي تمثل رأس مال الأعرابي وأساس حياته وأعماله وغزواته وثروته. ومصدر الإبل لدى بدو الصحراء هو التربية والغزوات.[٤] وتربية أو رعي الإبل في البيئة الصحراوية ولا يمثل أية صعوبة بالنسبة للأعراب، فهي من الحيوانات التي تتحمل الجوع والعطش وتتحمل أيضاً العمل الشاق وكافة الظروف البيئية القاسية التي تتسم بها الصحراء. ويستفيد البدو من الإبل في كل أوجه حياتهم تقريباً، فهي تمدهم بالألبان والوبر والجلود وأحياناً اللحوم إلى جانب قيامها

---

[١] Ibid. 48

[٢] Mission, op. cit., 48

[٣] Ibid. 49

[٤] Ibid. 83

بكل الأعمال الشاقة التي لا تقدر عليها أية أنواع أخرى من الدواب في هذه البيئة. ويطلق البدو اسم "البعير" على كل أصناف الجمال أو الإبل – كما يطلقون إسم "الذلول" على الإبل المستخدمة في الجري والحروب والغزوات. ويطلقون اسم "الناقة" على أنثى الجمل.[١]

ولا تقتصر فائدة الإبل بالنسبة للبدو على مجرد إمدادهم بالطعام أو مساعدتهم في الأعمال الشاقة، ولكنها تمثل لهم ضرورة أساسية قد لا يمكنهم بدونها مبارحة مساكنهم في عمق الصحاري المترامية الأطراف. فالبدو بوسعهم استخدام "الذلول" في الوصول إلى مشارف سورية أو إلى أي موقع آخر لا يمكنهم الوصول إليه بأية وسيلة أخرى. وتصل خدمات الإبل لبدو الصحراء إلى حد إمدادهم بالمياه التي قد تنقذهم من الموت في بعض الأحيان.[٢] ذلك أن الإبل تتمتع بخاصية الاحتفاظ بالمياه في أجسادها، وعند تعرض الأعراب للعطش الشديد وعدم إمكانهم الحصول على أي مصدر للمياه فإنهم يلجئون إلى شرب المياه التي تحتفظ بها الإبل لأوقات طويلة.[٣]

---

[١] Mission, op. cit., 83 - 84

[٢] Ibid. 84 - 85

[٣] Mission, op. cit. p. 85

٨ – القبيلة العربية بين الجاهلية والإسلام

حين بدأت البعثة الفرنسية دراستها الميدانية بمنطقة" مدائن صالح" شمال شبه الجزيرة العربية كان العقد الأول من القرن العشرين يصل إلى نهايته. أي أن قبائل شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت كان قد مضى على اعتناقها للديانة الإسلامية قروناً طويلة.[١] ولما كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية يمثل الحدث الأكبر والأسمى والأكثر أهمية في تاريخ هذه المنطقة، فإننا سنحاول في هذا الجزء أن نقرأ من سطور تقرير البعثة الفرنسية ودراستها الميدانية لقبائل شمال شبه الجزيرة العربية كيف كان اعتناق القبائل العربية للإسلام، وكيف كان التزامهم بتعاليمه، وإلى أي مدى كان تأثير الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية على أوضاع القبائل العربية في شبه الجزيرة. أي أننا باختصار شديد سوف نحاول رصد نتيجة الصراع بين البيئة القبلية وتقاليدها وأعرافها القديمة المتوارثة، وبين ما أتى به الدين الإسلامي لتقويم أداء أبناء هذه المنطقة – وغيرهم بطبيعة الحال – ونبحث أيضاً المفهوم الذي يحتفظ به أبناء القبائل عن الدين الذي آمنوا به واعتنقوه وصار غلافاً لكل أقوالهم وأفعالهم.

١ – القرون الطويلة التي تفصل بين بداية ظهور القبائل – كنظام سياسي واجتماعي – في شبه الجزيرة العربية وبين ظهور الإسلام في هذه المناطق واعتناق القبائل له، تكاد توازي العمر الزمني للدين الإسلامي في هذه القبائل منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى بدايات القرن العشرين الميلادي. وحين ننظر في أوضاع القبيلة العربية الخاضعة لدراسة البعثة الفرنسية في العقد الأول من القرن العشرين، فإننا نكاد نفاجأ بأن قبيلة القرن العشرين في هيكلها العام وعلاقاتها الداخلية هي نفسها قبيلة العصر الجاهلي وما كان يتاخمه من عصور وأحقاب.

فمن خلال قراءتنا للإطار العام للنظم السياسية وآليات الحياة في قبيلة "الفقراء" لا يمكننا بحال من الأحوال أن نجد أية أصداء لكل المتغيرات السياسية والاجتماعية والفكرية

---

[١] Mission, op.cit.V.1

التي يفترض أن تكون الدولة العربية على مدى تاريخها الطويل قد نجحت في الوصول بها إلى أعماق الحياة القبلية والنسيج العام لمجتمع شبه الجزيرة العربية – خاصة في حالة قبيلة مثل قبيلة "الفقراء" التي تقع بالقرب من مركز الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة[1]. ولنبدأ بعرض مجموعة من المتناقضات التي نخرج بها من الدراسة الميدانية للمعتقد الديني لدى بدو قبيلة الفقراء.

ففي حين يغلف الدين كافة تصرفات وأقوال وأعمال أبناء القبيلة، فإنه في واقع الأمر لا ينفذ إلى جوهر هذه التصرفات وتلك الأعمال. فالبدو في هذه القبيلة يبدءون يومهم بالبسملة، ويبدءون طعامهم بالبسملة، ويعقدون التحالفات والعقود والمواثيق باسم الله، وهم أيضاً يفوقون أقرانهم من المسلمين في القبائل الأخرى في حسن فهمهم للدين وإدراكهم بأن المسلم لا يحتاج وساطة بينه وبين الله، ومن ثم فهم لا يعتقدون في الأولياء الصالحين أو المزارات المقدسة التي يدفنون فيها، وهم كذلك ليسوا من أصحاب الموالد وحلقات الذكر وسائر البدع الأخرى.[2] كل هذا يمثل جانباً إيجابياً في حق أبناء قبيلة "الفقراء" وعقيدتهم وممارستهم الدينية. والمفترض الآن أن يكون هذا الغلاف الديني الجيد يتضمن جوهراً ومحتوى لا يقل جودة إن لم يكن أجود وأفضل. إلا أن واقع الحياة والممارسات العامة والخاصة في القبيلة يكاد لا يمت بصلة إلى جوهر وحقيقة الإسلام، بل أن هذا الواقع وهذه الممارسات أقرب بمراحل إلى النظام القبلي وأعراف الصحراء في بداياتها الأولى منها للشريعة الإسلامية أو حتى النظم السياسية المدنية في حدودها الدنيا في مشارف القرن العشرين. ففي ظل الغلاف الإسلامي الصحيح لأبناء قبيلة "الفقراء" لازال بدو هذه القبيلة – وغيرها من القبائل – يعتبرون أن غزو القبائل المجاورة والاستيلاء على ممتلكاتها هو أحد الحقوق الأساسية التي كفلها الله لهم. وحين نعلم أن هذه القبائل التي تتعرض للإغارة هي قبائل عربية تدين هي الأخرى بالديانة الإسلامية، فإننا لابد أن نتساءل عن حقيقة إسلام قبيلة "الفقراء"، ولابد أن نتساءل أيضاً عن سندها الديني

[1] Mission, op. cit. pp. 50 -51

[2] Mission, op. cit. pp. 50 -51

في ممارسة هذه الغزوات واستباحة ما تحصل عليه من غنائم من ورائها. والتساؤل هنا ينسحب بطبيعة الحال على سائر قبائل شبه الجزيرة. وما "الفقراء" في هذا السياق سوى مثال لقبيلة من بدو الجزيرة العربية تمارس ما يمارسه أقرانها، وتتسق أعرافها – بصفة عامة – مع أعراف سائر الجيران.

والغزوات ليست الوجه الوحيد للتناقض بين الفكر الديني والممارسة الفعلية بين بدو الصحراء. ذلك أن هذا التناقض يتجاوز في بعض الحالات حدود الشريعة الإسلامية التي ينبغي على كل مسلم الالتزام بتطبيقها. ففي مسألة الميراث – على سبيل المثال – يخالف الأعراب الشريعة في أمرين شديدي الوضوح،[١] فهم من ناحية يحرمون الأنثى من ميراث أبيها في حالة وجود أبناء من الذكور، وهم من ناحية أخرى يمنحون الابن الأكبر حقاً لم يقرره له الإسلام في أن يحصل على نصيب من الميراث يفوق نصيب الأخوة الآخرين.

وإذا تركنا التطبيق المخالف للشريعة في شأن الميراث لدى قبيلة "الفقراء" فإننا لا نعدم وجوهاً أخرى للتناقض بين عقيدة الناس وأعمالهم في هذه القبيلة. فالبدو على الرغم من شدة إيمانهم بالله وقوة انتمائهم للدين الإسلامي وعزوفهم عن التوسل لله بالأولياء والمشايخ والأضرحة وغيرها من البدع، فإنهم يلجئون إلى الاحجبة والتعاويذ التي يؤمنون بجدواها في حمايتهم من الشر ووقايتهم من الأمراض أو شفائهم منها.[٢] ولو كانت عقيدة بدو الصحراء وإيمانهم بالله تمثل أمراً حقيقياً تمكن من وجدانهم وعقولهم وقلوبهم، ما وجدت هذه الاحجبة طريقها إليهم، ولكانوا قد آمنوا بأن الأمر كله بيد الله ولا حاجة للإنسان المؤمن بخرافات لا تنفع ولا تضر.

وفي نفس هذا السياق هناك أيضاً إيمان أهل القبيلة بالعين الشريرة وضرورة التحرز منها، وإيمانهم أيضاً بالكائنات الخرافية التي يصدقون ما يروى عنها رغم أن أحداً منهم لم يرها بالفعل.

---

١ Mission, op.cit., pp. 30 -31

٢ Mission, op.cit., pp. 55 - 56

ولعل أهم ما يلمسه المرء من تناقضات بين عقيدة البدو وأفعالهم هو ذلك التناقض بين جوهر ومقتضى التدين الذي يفرض الأخذ بالأسباب وبين التواكل الذي يمارسه بـدو الصحراء وهم ينسبون لله كل أحوالهم. فحين لا يحتاط أحدهم للأمـر فيخفـق لا يرجـع إخفاقه هذا إلى تقصير منه ولكنه يرجعه وينسبه إلى مشيئة الله. وحين يشكر أحدهـم الله على بلاء وقع بساحته فإنه لا يعتبر هذا البلاء اختباراً من الله بقدر ما يعتبره قضاءً لا يُرد ولا يعنيه من قريب أو بعيد أن يتدبره. وهو نفس المنطق الذي تسير عليه حيـاة البـدو وعقيدتهم في شتى حالات السراء والضراء.[١]

٢ – التنظيم السياسي والأوضاع الاجتماعية في القبائل العربية – من خلال دراسة قبيلـة الفقراء – تثير العديد من التساؤلات حول مدى نجاح الدولة العربية فـي التواصـل مـع عرب شبه الجزيرة العربية فضلاً عن سائر البلدان الأخرى التي فتحها المسلمون وصنعوا منها في وقت من الأوقات دولة كبرى وإحدى القوى العظمى في زمانها. فقبيلة "الفقـراء" تقع بجوار مكة المكرمة والمدينة المنورة. وكلتا المدينتين كانتا مهد الدعـوة الإسـلامية ومعقل الدولة العربية ونقطة انطلاق المسلمين إلى العالميـة فـي المجـالين السياسـي والحضاري. وحين ينجح العرب في الوصول بدولتهم إلى تخوم أسبانيا غرباً وإلى حـدود آسيا الصغرى شمالاً ويوشكون على اقتحام مناطق بعيدة في الهند والصين ووسط آسـيا، ثم يتركون في غمار هذه الفتوحات قبائل بلادهم الأصلية تنعم بالتخلف والجمود السياسـي والاجتماعي والاقتصادي على مدى ما يربو عن خمسة عشر قرناً. فإن الأمر لابـد وأن يثير التساؤل. ففي قبيلة "الفقراء" – حيث الزمان بداية القرن العشرين الميلادي – لا نجـد فروقاً تذكر بين النظام القبلي في العصر الجاهلي والنظام التي تسير عليه هـذه القبيلـة. فالبعثة الفرنسية لا تذكر في تقريرها ما يشير إلى انتشار التعليم والثقافة بين أبناء القبيلـة. ولا تذكر في تقريرها أيضاً ما يوحي بأي نوع من التقدم السياسي في آليات إدارة شـئون القبيلة. والبعثة أيضاً لا ترصد أية مظاهر للحراك الاجتماعي أو الوعي السياسي والطبقي

---

[١] Mission, op.cit. pp. 50 - 51

بين أبناء المنطقة.[1] والدراسة الميدانية تؤكد أن "فقراء" القرن العشرين هم أنفسهم "فقراء" ما قبل الإسلام. الدولة العربية - بكل حضارتها وقوتها وإنجازها - لم تستطع إقناع البدو بالكف عن غزو بعضهم بعضاً، ولم تنجح أيضاً في خلق آلية حكم أكثر تقدماً من شيخ القبيلة. ولم تنجح كذلك في تكريس قيمة العلم والثقافة ونشرها في هذه القبائل.[2] والدولة العربية - فوق هذا وذاك - فشلت تماماً في بث الروح القومية في نفوس أبناء هذه القبائل. ولم يكن البدو بدورهم قادرين على اعتناق الدين الإسلامي ديناً ودولة. فهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون ويذهبون للحج، ثم كفى الله المؤمنين شر القتال. ليس لهم من الدين سوى تلك الأركان، ولكنه ليس حياتهم، كما لم يكن الدين - بصفة عامة - حياتهم في أي حقبة من تاريخهم القديم. آليات الحياة في القبيلة الإسلامية هي ذات الآليات في القبيلة الجاهلية. شيخ القبيلة هو الحاكم الأول في الجاهلية والإسلام. الغزوات والعداء بين القبائل ظاهرة أساسية ومنتشرة في الجاهلية والإسلام. كراهية الأنثى وازدراؤها قائم في الجاهلية والإسلام. التشرذم وتردي الروح القومية منتشر بين القبائل في الجاهلية والإسلام. اقتصاديات البدو ودقائق حياتهم اليومية لم تتبدل بين الجاهلية والإسلام. مفاهيم وعقائد الناس في الزواج والإنجاب وسائر الأوضاع الاجتماعية لم تتبدل هي الأخرى بين الجاهلية والإسلام.[3] والسؤال هنا ماذا أضاف الإسلام لحياة القبائل؟ وما هو عطاء الدولة

---

[1] Mission, op. Cit., pp. 1 – 13 ; CF: Coutumes des Arabes

[2] Mission , op. cit. p . 53

كما يشير تقرير البعثة الفرنسية، فإن الواضح أن الجهود الحكومية في هذا المجال كانت تقتصر أساساً على إرسال بعض علماء الإسلام أثناء شهر رمضان أو غيره من المناسبات الدينية لإلقاء بعض الدروس الدينية في المساجد.

[3] عن حياة القبائل العربية قبل الإسلام وحضارة هذه المنطقة، انظر:

محمد بيومي مهران : الحضارة العربية القديمة - الإسكندرية - ١٩٨٨

محمود سلام زناتي: نظم العرب في الجاهلية وصدر الإسلام - القاهرة - ١٩٩٥

عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية - القاهرة - ١٩٧٥

محمد خليفة حسن: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة - القاهرة - ١٩٨٥

محمد السيد عبد الغني: شبه الجزيرة العربية ومصر والتجارة الشرقية القديمة - الإسكندرية - ١٩٩٩

العربية لقبائل شبه الجزيرة؟ وأين كانت هذه القبائل والحضارة الإسلامية تجوب العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؟ وإن كان هذا هو حال القبائل القريبة من مكة والمدينة، فما هو حال القبائل العربية الأخرى التي قد تكون في مناطق نائية أو منعزلة عن مراكز الإشعاع الديني والحضاري في شبه الجزيرة؟ كل هذه التساؤلات وغيرها لا بد وأن تقفز إلى أذهاننا ونحن نقرأ أن قبيلة عربية في مطلع القرن العشرين تتخذ من غزو جيرانها أحد مواردها الأساسية، وأنها تحرم النساء من الميراث وفق شريعة الله، وأنها ترى أن الإنجاب بلا حدود هو أفضل السبل لتكوين كيان قوي بصرف النظر عن كيفية توفير الحياة الكريمة لهذا الكيان، وأنها تعيش بمعزل عن كل مستحدثات العلم وأدوات التقدم في عصرها هذا، وأنها لا تزال تتوجس من الغولة والجن والعين الشريرة بينما الأمم الأخرى تسود العالم بالكشوف الجغرافية والثورة الصناعية والتقدم الرهيب في كل المجالات. ألم يكن بين أبناء هذه القبائل من شارك في فتوحات الدولة العربية واحتك بشعوب أخرى ونقل عنها أي قدر من تقدمها الحضاري والعلمي؟ ألم يكن متاحاً لأبناء هذه القبائل سبل الاتصال بالمراكز الحضرية في شبه الجزيرة العربية والشام – من خلال التجارة أو موسم الحج – حتى يكون بوسعهم أن ينقلوا عنها ما ينقصهم من أسباب التقدم والرقي؟. وحين قاوم هؤلاء البدو مشروع خطوط السكك الحديدية الذي يمر ببلادهم هل كان ذلك يعني أنهم قانعين بعزلتهم وأوضاعهم ومواردهم وعازفين عن الاحتكاك بكل الآخرين؟ .. ثم .. إن كان هذا الجمود الاجتماعي والفكري يسيطر على قبائل شبه الجزيرة العربية منذ بداية تاريخهم وحتى ذلك الوقت فكيف وصل الدين الإسلامي إليهم؟ ولماذا لم يستكمل من أبلغهم بالدعوة الإسلامية مهمته في إخراجهم من غياهب القبيلة والجمود؟ أم أن البيئة – في نهاية الأمر – كانت أكثر قوة وعتياً من كافة المؤثرات الأخرى في القبائل العربية؟

٣- حين نستخدم المعلومات التاريخية الهيكلية والمتفق عليها عن تاريخ عرب شبه الجزيرة في تفسير التناقض بين عقيدة وممارسات بدو "الفقراء"، فإننا لن نعدم سبلاً نفهم من خلالها سبب ذلك التناقض، بل أننا قد لا نجده تناقضاً من الأصل. ففي التاريخ القديم لعرب شبه الجزيرة لم يكن الدين في أية حقبة أو أية مرحلة يقوم بدور رئيسي في سلوك

وممارسات ودوافع هؤلاء العرب. كانت البيئة هي السيد المطاع وهي المحرك الرئيس وهي أيضاً الصيغة التي صبغت وجوه ووجدان العرب منذ فجر تاريخهم.[1] الجزيرة العربية في عهدها القديم كانت تسمح بالتعايش السلمي بين عبدة الأصنام وعبدة قوى الطبيعة والمجوس واليهود والحنفاء إلى جانب المسيحيين فيما بعد.[2] وكانت مضارب القبائل – مثلما في المدينة المنورة قبل الإسلام وكذلك في الجنوب والشمال – تجمع بين شتى هذه الأديان ربما في القبيلة الواحدة. وكما كان العرب القدامى يتاجرون في كل شيء حتى الرقيق فإنهم كانوا يتاجرون أيضاً في الأصنام والآلهة الوثنية وموسم الحج.[3] وحين أراد أبرهة الحبشي أن يبسط سلطانه في هذه المنطقة فإنه حاول أن ينشئ مبنى على غرار الكعبة حتى يسحب البساط الديني – ومن ثم الاقتصادي والسياسي – من تحت أقدام أهل مكة وسادة قريش. والبيئة القاسية الصارمة في شبه الجزيرة العربية لم يكن بمقدورها أن تسمح بتواجد شعب رومانسي حالم يتسع قلبه ووجدانه للنفحات الإيمانية وتدبر آيات الكون. وإن كان الحنفاء والصحابة الأوائل قد أبلوا في الإسلام بلاءً حسناً، فإن ذلك يرجع لشخوصهم أكثر مما يرجع لبيئة شبه جزيرة العرب. ولو كان كل العرب على حال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من رجال الله لكان حرياً بشبه جزيرة العرب أن تحكم العالم بأسره إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

البيئة الصحراوية القاسية كانت الدافع الرئيس والمحرك الأول للأحداث في شبه جزيرة العرب. والإسلام نفسه لم يدخل هذه المنطقة ديناً فحسب وإنما دخلها ديناً ودولة. وحين أقام الرسول صلى الله عليه وسلم دعائم دولته على أنقاض النظم الجاهلية كان عرب شبه الجزيرة يواجهون نظاماً سياسياً جديداً قبل أن يواجهوا ديناً جديداً. وعلى من يرفض هذا التفسير أن يرجع إلى حروب الردة ويدرس أسبابها ويرى كيف رفض الأعراب الاستمرار في "دولة" الإسلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. والدوافع

---

[1] عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٥٦

[2] عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٥٦ وما بعدها

[3] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٣٢٥ وما بعدها

الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي التي كانت تحكم حركة الرفض والمعارضة التي لاقاها المسلمون الأوائل. القرشيون كانوا يخشون بوار تجارتهم في الأصنام وموسم الحج وسيادتهم السياسية في المنطقة.[1] والقبائل والممالك الأخرى كلٌ كان يخشى زوال عصفور في اليد يتمثل في مقتضى حالهم وثوابت مواردهم ونفوذهم. الرفض السياسي والاقتصادي والاجتماعي للإسلام كان من الناحية الجوهرية هو أساس عداء الأعراب له. فالتاريخ لا يذكر للعرب اهتماماً بالدين أو تعمقاً في شئونه فضلاً عن عدم ذكره ديناً بعينه كانوا قد أجمعوا عليه. ومن هنا كان تمكن الإسلام من الانتشار في أرجاء شبه الجزيرة العربية. فهو أولاً الكيان السياسي الوحيد الذي كان يملك منهجاً منطقياً وعملياً يمكن أن يجتمع القاصي والداني حوله. وهو ثانياً لا يواجه في هذه المنطقة – ولا غيرها – ديناً آخر تمكن من أفئدة أتباعه إلى حد القتال ذوداً عن حماه. وهو ثالثاً يتفق مع فطرة أي إنسان سوى حتى لو كان هذا الإنسان ابناً لبيئة ذات قلب صخري كبيئة شبه جزيرة العرب. هكذا إذن كان الطريق ممهداً أمام قبائل ومدن وممالك شبه جزيرة العرب لاعتناق الدين الإسلامي. ولكن الإسلام بطبيعة الحال لم يكن بصدد شعب من الملائكة، كما أنه أيضاً لم يكن ديناً إعجازياً جعل الله في يد من كُلف بتبليغه عصا سحرية تحول الناس والبيئة إلى حال غير حالهم بين عشية وضحاها. ومن هنا كان إيمان الناس بالدين الجديد مع استمرارهم في براثن البيئة القديمة. ولم يكن صراع الحياة اليومية بالذي يمنح هؤلاء الأعراب فرصة التقاط أنفاسهم وتكييف أنفسهم وأعرافهم مع معطيات عقيدتهم الجديدة. واكتفى بدو الصحراء بالحل اليسير الذي جادت به فطرتهم. فهاهم يؤمنون بالله ورسوله ويؤدون فرائض وأركان الإسلام ويجعلون من هذا الدين غلافاً لكافة أعمالهم، ولكنهم في نفس الوقت يفسحون مجالاً واسعاً لأعرافهم القديمة ومتطلبات بيئتهم وموروثات أسلافهم حتى وإن كانت تتعارض مع تفاصيل أو هيكليات في الدين الذي ارتضوه. وهم في هذا السياق لا يرتكبون إثماً يحملون وحدهم تبعاته، وإنما يحملها معهم وقبلهم كل من حكم باسم الإسلام وغفلت عيناه من الارتقاء بشأن هذه القبائل والأخذ بأيدي أبنائها من البداوة العمياء إلى الحضارة المبصرة.

[1] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٢٢٢ وما بعدها

٤ – في نفس هذا السياق تبرز أمامنا قضية أو إشكالية التنمية البشرية ونحن نقرأ ما بين سطور الدراسة الميدانية التي أجريت لقبيلة "الفقراء". فعلى مدى التاريخ المعروف لسائر العرب بصفة عامة ولعرب شبه الجزيرة بصفة خاصة تمثل قضية "التنمية البشرية" أمراً يكاد يوازي "الغول" و "العنقاء" في غيابه عن أعين وعقول العرب حكاماً ومحكومين. فالتاريخ القديم والحديث وأيضاً المعاصر لكل من كُتب عليه أن ينتمي إلى العروبة بمعناها الشامل أو العنصري، لا يحتوي على أية إشارات تؤكد اكتراث العرب بتنمية ثروتهم البشرية قدر اكتراثهم بالبحث عن الموارد المادية والثروة المجردة. وحين نتتبع تاريخ القبائل العربية – في إيجاز شديد – بحثاً عن هذا النوع من التنمية في أي مرحلة من المراحل فإننا للأسف الشديد لن نصل إلى أية نتائج إيجابية.

النظام القبلي – كما هو معروف – كان النظام السائد في شبه الجزيرة العربية منذ عصورها الأولى. والقبيلة تتكون بصفة عامة من مجموعة من الأسر والعشائر على رأسها شيخ القبيلة ورؤساء أو ممثلي العشائر.[1] والهدف الأسمى أمام أية قبيلة من قبائل العرب هو الحصول على موارد دائمة وكافية للكلأ والماء، بالإضافة إلى مكان مناسب للظروف المعيشية. والمطلوب من العنصر البشري في هذه الحالة أن يكونوا رجالاً أشداء كثيري العدد قادرين على الدفاع عن القبيلة من ناحية، والمشاركة في الإغارة والغزوات ضد القبائل الأخرى من ناحية. والعرب في هذه الحالة يشبهون – إلى حد ما – ما كانت عليه مدينة أسبرطة في التاريخ القديم لبلاد اليونان. فقد كانت هذه المدينة تعيش حالة التأهب العام والدائم للدفاع أو الهجوم العسكري، وكانت تعد مواطنيها للجندية والقتال منذ نعومة أظافرهم. وبينما كانت سائر المدن اليونانية – وخاصة أثينا – تصنع دعائم حضارة عظيمة لا زال العالم ينعم بها حتى عصرنا هذا، كانت إسبرطة شديدة التخلف في كل شيء سوى الجوانب العسكرية والحربية. وهكذا كان حال القبائل العربية في تاريخها القديم. لا وقت لديها للارتقاء بنفسها أو بمواطنيها، همها الأول تدبير موارد حياتها اليومية، وأعضاء القبيلة بطبيعة الحال هم أساس أو بعض هذه الموارد، وإن كان ثمة

---

[1] عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٤٤ وما بعدها

سبيل لتطوير الموارد الطبيعية، فإن تطوير الموارد البشرية أمر صعب المنال، فهذه البيئة التي لا تسمح أوضاعها بتعليم راق منتظم، ولا حركة أدبية أو ثقافية أو فنية من أي نوع،[1] لا يمكن بطبيعة الحال أن تنتظر منها النهوض بمواطنيها. واستمر الحال على هذا النحو تقريباً طوال التاريخ العربي قبل الإسلام. وحين ظهر الإسلام وانتشر وتكونت الدولة العربية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم صحابته ثم الأمويين والعباسيين ومن تلاهم، لم يكن المشروع العربي يتضمن بنداً للنهوض بالمواطن. فالدولة العربية منذ عهد معاوية كرست واختارت حكم الفرد وجعلته وراثياً، وكان من الطبيعي حينئذ أن تنصرف جهود الحكام وأولياء العهد إلى تثبيت أنفسهم أولاً على عرش البلاد، ثم البحث عن أهل الثقة لمشاركتهم المسئولية، والبحث أيضاً عن أصحاب القدرة على حمايتهم وكفالة أمنهم الشخصي والعام، وإن بقي وقت بعد هذا فإنه يخصص للغزوات والتوسع أو الدفاع عن حدود البلاد أو التصدي للثورات والفتن في البلاد المفتوحة مترامية الأطراف. في ظل هذه الأوضاع، وفي ظل الغياب الشعبي الكامل تقريباً في المشروع السياسي للدولة العربية، لم تكن هناك حاجة لتنمية البشر، خاصة في ظل الانتماءات المتعددة لهؤلاء البشر ما بين العرب والفرس والأفارقة والفرنجة وغيرهم. وحين يكون القائمون على شئون الدولة العربية عديمي الاكتراث بمشاركة شعوبهم في شئون البلاد فإنهم لابد وأن يضربوا عرض الحائط بمصالح وأوضاع بدو الصحراء في شبه الجزيرة العربية. ولا شك أن انتقال عاصمة الخلافة إلى الشام في عهد معاوية ثم بغداد في عهد الدولة العباسية كان أحد العوامل الهامة في تحويل الأنظار عن عرب شبه الجزيرة وإهمال شأن قبائلها ومدنها وممالكها القديمة. وبصرف النظر عن الدراسة التي نحن بصددها عن قبيلة "الفقراء" فإن الصورة التي يعرفها الجميع عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية في جنوب شبه الجزيرة العربية – اليمن – وفي مناطق أخرى من بلاد العرب لازالت – رغم البترول والمدنية الحديثة والتعليم وسائر مظاهر النهضة – تحمل الكثير من سلبيات البداوة

---

[1] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٢١ وما بعدها.

والروح القبلية الناجمة عن غياب التنمية البشرية من المشروع السياسي العربي قديماً وحديثاً.

٥ - غياب التنمية البشرية والبيئية للقبائل العربية منذ بداية تاريخهم وحتى بدايات القرن العشرين أدى إلى تكريس كل السلبيات التي حفل بها التاريخ القديم لعرب شبه الجزيرة واستمرارها حتى في ظل اعتناقهم للديانة الإسلامية والتطورات التي شهدتها المنطقة العربية بعد ظهور الإسلام. فحين ننظر في شيء من الروية والموضوعية إلى أحوال وخصائص القبيلة محل هذه الدراسة فإننا لن نجد اختلافاً يذكر بين آليات الحياة اليومية وأعراف وعلاقات المجتمع القبلي في القرن العشرين وبين نظائرها في العصر الجاهلي. فمن الناحية السياسية والإدارية لم تشهد القبائل العربية خلال الفترة الممتدة من ظهور الإسلام وحتى بدايات القرن العشرين تغييرات سياسية تذكر. فالحكم في القبيلة للشيخ ثم لمن يرثه من الأبناء أو الأحفاد بعد ذلك. والصلاحيات التي يتمتع بها الشيخ صلاحيات مطلقة في زمن الحروب والغزوات وصلاحيات محدودة نسبياً في وقت السلم. والطبقية تحكم النظام السياسي في القبيلة العربية الحديثة تماماً كما كانت تحكمها في تاريخها القديم. ففي زمن السلم يتفوق نصيب الشيخ من دخل وعائد ما تملكه القبيلة على أنصبة الآخرين. وفي الغزوات يتم توزيع الغنائم من ذات المنطلق الطبقي بحيث يحصل العقيد أو قائد الغزوة على نصيب الأسد ثم تتوالى الأنصبة بعد ذلك وفق أهمية المقاتلين وموقع كل منهم في القبيلة وفي القتال. وفي الميراث يحصل الأخ الأكبر على نصيب يفوق نصيب أشقائه. وفي العطاء الحكومي المقرر للقبيلة يتفوق الشيخ أيضاً على سائر القبيلة في المبلغ أو الراتب الشهري المقرر له. والوظائف التي استحدثتها الحكومة لفئة من أبناء القبيلة يتم إيجارها من الباطن بمعرفة أصحابها لآخرين مقابل نصف الأجر المقرر[1]. والغزوات والحروب بين القبائل لم تتوقف طوال هذه الفترة التي تفصل بين تاريخهم القديم والحديث، بل أن مفهوم هذه الغزوات نفسه لم يتغير أو يتبدل، فعلى الرغم من اعتناق كل القبائل

---

[1] عن أحوال وأوضاع العرب والقبائل في بداية القرن العشرين انظر:
RR. PP. Jaussen, Mission Archeologique en Arabie , op. cit., pp. 3 FF

العربية للدين الإسلامي، وبالرغم من أن الدين يؤكد أن المسلمين أخوة، وبالرغم من أن هناك روابط أخرى بين هذه القبائل خلاف الدين وقبله، فإن العرب لا يجدون غضاضة في غزو بعضهم بعضاً وتنتظم بينهم العدوات والاغارات والسلب والنهب، ويضعون لها قوانين وأعرافاً تجعلها دستوراً دائماً ووضعاً قائماً من أوضاع حياتهم السياسية والاقتصادية.[1] ومن الإشكاليات التي تبرز أمامنا في هذا السياق أننا لا ندري كيف يبرر البدو من أبناء القبائل حقهم في غزو القبائل الأخرى في ظل تعاليم الدين الإسلامي التي تفترض في المسلم أن يكون ظهيراً ونصيراً لأخيه وأن يحسن معاملة جاره وألا يتطلع إلى ما يملكه الآخرون. والأقرب للظن أن البدو منذ بداية تاريخهم كانوا ينظرون إلى الصحراء وما فيها من الكلأ والماء بوصفها مشاعاً من حق الجميع أن يقاتل أو يسعى للانتفاع به، ومن هذا المنطلق كانت الغزوات التي يسلبون خلالها قطعان القبائل الأخرى وكافة أملاكهم مما لا يقع تحت سقف مضاربهم وخيامهم.

هذا الجمود السياسي والفكري الذي يمكن رصده بسهولة في القبيلة العربية من خلال دراسة قبيلة الفقراء لا يمثل كل شيء. فالأوضاع السياسية الداخلية في القبيلة يمكن تبرير جمودها طوال هذه القرون بمبررات مختلفة أهمها رفض البدو أنفسهم للتخلي عن نمط حياتهم هذا، وهو ما يمكن أن نلحظه في تصدي أبناء قبيلة الفقراء ومنطقة مدائن صالح لمحاولات الحكومة في إنشاء خطوط السكك الحديدية التي تمر في منطقتهم. وبدو القبائل بالفعل يختلفون في كثير من الجوانب عن أهل المدن أو المناطق الحضرية، ويحتاجون بالضرورة إلى نظم خاصة لإدارة حياتهم حتى في ظل وجود الحكومات المدنية التي ينضمون تحت لوائها. من هنا يمكن أن نفهم أو نتفهم أسباب الجمود السياسي للنظام القبلي في شبه الجزيرة العربية على مدى ما يزيد عن عشرين قرناً من الزمان. ومن ذات هذا المنطلق يمكننا أيضاً أن نتفهم بعض الأعراف القبلية التي دامت طوال هذا التاريخ المديد. إلا أن كل هذه التبريرات التي يمكن أن نستنتج أو تذكر حول جمود القبائل العربية ونظمها وعلاقاتها وعقائدها وأعرافها هي تبريرات في حق أبناء هذه القبائل أكثر منها

---

[1] Mission, op. cit., 4 ff.

أعذار يمكن للحكومات العربية أن تبرر بها تقصيرها في التنمية البشرية والبيئية لهذه المناطق. ولعل الأسلوب الذي واجهت به الحكومة المدنية معارضة القبائل لمشروع السكك الحديدية يمثل المنطق الأعرج الذي تتعامل به الحكومات العربية مع شعوبها وقضاياها الجوهرية. فبدلاً من اتجاه هذه الحكومة – والحكومات السابقة لها بطبيعة الحال – إلى نشر الثقافة والتعليم وتكريس الروح القومية والفكر المستنير بين هذه القبائل منذ البدايات الأولى للدولة العربية الإسلامية، فإن الواضح أن هذه الحكومات قد اختارت أسهل الحلول وتركت هؤلاء البدو لحياتهم وأعرافهم وظروفهم الذاتية وبيئتهم القاحلة القاسية طالما أنهم لا يمثلون خطراً على الدولة من ناحية ولا تنتظر منهم الدولة نفعاً يذكر من ناحية أخرى. ثم جاء الوقت الذي احتاجت فيه إحدى الحكومات إلى اتقاء شر هذه القبائل – بعد هجوم "الفقراء" على قلعة "مدائن صالح" [١]– وكان الحل اليسير أيضاً هو رشوة هؤلاء الأعراب وشراء رضاهم بالذهب والهدايا والرواتب الشهرية للزعماء والشيوخ.[٢]

٦ – من الإشكاليات الجوهرية الهامة التي نصادفها في تاريخ القبائل العربية القديمة والحديثة على حد سواء أن الفئات المهضومة من الأعراب ظلت طوال تاريخها تسهم في تكريس الأوضاع السلبية التي يعانون منها، ولا نجد في تاريخ العرب ما يشير إلى أية محاولات جماعية حقيقية لإصلاح أوضاع اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية تمثل ضرراً دائماً لإحدى الفئات أو الطوائف.

فحين ننظر – على سبيل المثال – إلى وضع المرأة في القبائل العربية قديماً وحديثاً نجد أن النساء أنفسهن كن يشاركن في تكريس النظرة الدونية التي ينظرها الأعراب للأنثى.[٣] ففي قبيلة "الفقراء" وفي مطلع القرن العشرين لم يكن الوضع مختلفاً عنه في أية قبيلة عربية في عصور ما قبل الإسلام عندما يبشر الرجل بالأنثى.[٤] وإن كان للرجال عذر في عدم تقبلهم لميلاد الأنثى نظراً لحاجتهم لأبناء من الذكور يشاركون في

---

[١] Mission, op. cit., pp. 8 - 10

[٢] Mission, op. cit. , pp. 9 - 10

[٣] Mission, op. cit., pp. 13 - 19

[٤] عن وضع المرأة في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، أنظر: عبد المنعم ماجد – المرجع السابق – ٥٢ وما بعدها

القتال في صفوف القبيلة ويحملون اسم آبائهم فيما بعد، فما هو إذن عذر الأم التي تكـــره هي الأخرى أن تولد البنت وتحمل لها من المشاعر السلبية ذات ما يحمله لها الأب؟ العذر هنا – لأول وهلة – هو خشية الأم رد فعل زوجها الذي قد يصل إلى حد الطلاق أو علـــى الأقل الازدراء والإحباط. ولكن، هل يعدم التاريخ العربي امرأة تواجه زوجها وقبيلتها بما أنزل الله في القرآن الكريم من آيات وأوامر وشرائع توجب المساواة بين الذكر والأنثـــى وتُدين كل من يرزق بالإناث فيكاد يردهن على الخالق والسبب معاً؟ ألم يصل إلى أسـماع وعقول الأعراب كيف كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعامل مع النساء ويوصي بحسن معاملتهم؟ أم أن هذه القبائل كانت جماعات ممن يعبدون الله على حرف؟. والأهم من هـذا السياق هو موقف النساء أنفسهن، ومنهن الأم والزوجة ومنهن أيضاً من يعلو شأنها فـــي قومها فتصبح ذات رأي ومكانة قد لا يبلغها الرجال.[1] كيف إذن كانت النساء يسهمن فـــي تكريس هذه الدونية للمرأة في المجتمع القبلي. على الرغم من أن كل شئون الحياة – عـدا الغزو – كانت تقع على عاتقها؟

الواقع أن المرأة – شأنها في ذلك شأن الفئات الأخرى في المجتمع القبلي – كانت أسيرة للأعراف المتوارثة جيلاً بعد جيل. ولم تكن حركة الحياة في مثل هذه المجتمعـــات بالتي تسمح بالتفاعلات الفكرية والاجتماعية التي قد ينتج عنـــها تعديـــل جوهـــري فـــي الأوضاع الطبقية أو الفئوية. ومن هنا كانت النساء آحاداً وليس كياناً، وهـــو ذات شـــأن الرجال وسائر الفئات الأخرى. ومن هنا أيضاً لم يكن بوسع المرأة في مجتمع يخلو مـــن العلم والثقافة والاستنارة أن تمثل كياناً جمعياً ذا قدر من الاستقلالية والقدرة علـــى الأداء الجماعي أو الفئوي. ولم يكن أمام النساء والحال هكذا – سوى تبني نفـــس الأعـــراف ونفس العادات ومن ثم ازدراء وكراهية بناتهن كما يفعل الآباء تماماً. فضلاً عن عدم قدرة النساء على تعديل المفاهيم السائدة في المجتمع القبلي سواء في ذلك ما يخص المرأة أو ما يخص الطفلة الوليدة.

هذا الوضع الذي كانت تعاني منه نساء المجتمع القبلي في شبه الجزيرة العربيـــة ينسحب على كافة الفئات المهضومة في هذا المجتمع. فبحكم آليات الحياة وأعراف القبائل وظروف البيئة كان الجمود هو سيد الموقف. والجمود معناه أن "يبقى الحال على ما هو

[1] محمد بيومي مهران – المرجع السابق – ٢١ وما بعدها

عليه" ، وباقي القاعدة القانونية هنا لا ينطبق على بدو الصحراء، فالمتضرر لا وجود له في ظل رضاء كل الأطراف بحالهم وأعرافهم وكراهيتهم لأي نوع من التغيير، فالإنسان - بصفة عامة - عدو ما يجهل. والجهل هنا لا يمثل عاراً في حق البدو الذين لا تسمح بيئتهم وظروفهم بأفضل مما هم عليه من أحوال وخصال.[1]

٧ - الأعراف والقواعد التي يلتزم بها البدو بالنسبة للغزوات تؤكد أمرين على جانب من الأهمية. الأمر الأول منهما هو أن مشروعية الغزو بالنسبة لعرب الصحراء تكاد توازي مشروعية الحروب بين الدول والأمم المختلفة حيث أن هناك قواعد للغنائم والأسلاب وقوانين الإغارة ومعاملة الأسرى ومعاملة النساء وغير ذلك. والأمر الثاني هو أن العرب على الرغم من إيمانهم بأن الغزوات أمر مشروع وحق لكل قبيلة تسكن الصحراء فإنهم في نفس الوقت يعتبرون أن ما يحصل عليه المعتدون من خلال هذا الغزو يمثل ما يشبه السرقة أو السطو المسلح، ومن هنا يحتفظ أبناء القبيلة المعتدي عليها ببعض الأسرى من القبيلة الغازية للمساومة بهم على إعادة ما تم سلبه أثناء الغزوة.[2] وإلى جانب ذلك فإن وجود قوانين وأعراف خاصة بالغزوات والغنائم بين قبائل الصحراء العربية في بداية القرن العشرين يؤكد أيضاً أن أحداً لم يقترب من هذه العادة - أي الغزو - سواء من جانب الحكومات أو من جانب الأفراد. ويؤكد هذا الوضع أيضاً أن ظروف الحياة في الصحراء العربية لم تشهد في ظل الدولة العربية بعد ظهور الإسلام تغييرات جذرية في سلوك وعقائد الأعراب أو في معطيات بيئتهم مما أدى إلى تكريس السلبيات الأساسية للأعراب في زمن جاهليتهم وامتدادها على نفس النحو - تقريباً - في ظل انتمائهم لدين الإسلام ودولته. ولعل هذه الأوضاع التي كان يعيشها بدو القبائل في شبه الجزيرة العربية سواء في عصور ما قبل الإسلام أو بعد ظهور الإسلام والدولة العربية يمكن أن تكون محل دراسة موضوعية حول الأداء السياسي لنظم الحكم المختلفة التي تعاقبت على هذه المنطقة منذ ظهور الإسلام وحتى بداية القرن العشرين. فضلاً عن أن الأوضاع العامة والخاصة لقبائل شبه الجزيرة بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من اعتناقها الدين الإسلامي

---

[1] عبد المنعم ماجد - المرجع السابق - ٤٣ وما بعدها

[2] Mission, op. cit., pp. 37 -38

قد تكون دافعاً لقراءة موضوعية في ملفات وأحداث الحركة الوهابية التي ربما كان أحد أسبابها أو دوافعها ذلك "الإسلام الشكلي" الذي كانت القبائل العربية ترفع رايته.

٨ – العلاقات بين الأفراد وبين القبائل تؤكد أيضاً أن الدين لم يكن جوهر حياة ومعاملات البدو بقدر ما كان الغلاف الذي يغلفون به حياتهم وأعمالهم. ففي زمن السلم وحين كان يرغب شخصان أو قبيلتان من الأعراب في عقد صلح أو اتفاق أو محالفة، لم يكن كافياً بالنسبة لطرفي الاتفاق أن تكون النوايا صادقة والثقة بينهما متبادلة، ولكن كان من الشروط الأساسية في مثل هذه الاتفاقات أن تبدأ بالصيغ التي تتضمن اسم الله ورسوله ثم إراقة دم الذبائح بمناسبة الاتفاق. ويبدو الأمر أكثر وضوحاً في حالة تعاملات الحياة اليومية بين الأفراد في هذه القبائل. حيث يكثر البدو في استخدام الصياغات المختلفة من الأقسام سواء منها ما كان باسم الله أو بحياة الأب أو الأم أو الشخص نفسه أو القسم بالنار أو الكلأ أو الذقن أو العيون وغير ذلك.[١] والقسم على هذا النحو يمثل ركناً ثابتاً من أركان المعاملات اليومية في القبائل كما تقول دراسة البعثة الفرنسية.

معنى هذا أن البدو لم يكونوا على درجة – كافية من الثقة في أنفسهم أو في بعضهم البعض مما يسمح معه بعقد الاتفاقيات والتحالفات دون الحاجة للأقسام المغلظة أو نحر الذبائح. كما أنهم على المستوى الفردي لم يكونوا أيضاً صادقي أو صحيحي الإيمان وإلا ما كانوا يقسمون بأغلظ الإيمان في كل حديث أو مناسبة حتى يؤكدوا صدق حديثهم، وما كانوا أيضاً ليلجئوا إلى القسم بغير الله لو كان إيمانهم بالإسلام صحيحاً لا تشوبه شائبة. هذا إلى جانب أن مجرد الاحتفاء بالاتفاق بين شخصين من خلال العهود والمواثيق ونحر الذبائح هو في حد ذاته من الأمور التي تؤكد عدم تمكن الدين الصحيح من قلوب ووجدان البدو. فلو كان هؤلاء البدو قد أدركوا من الإسلام جوهره وأدرك الإسلام منهم العقل والوجدان ما كانوا في حاجة إلى توثيق العلاقات فيما بينهم بأكثر من كلمة واحدة يتعين على كل من الطرفين أن يصدق بها صاحبه.

ولا تقتصر حالة الإيمان الظاهري أو غياب الثقة في النفس وفي الآخرين على العلاقات بين الرجل وصاحبه أو بين القبيلة والأخرى، ولكننا نقرأ نفس هذه الحالة في

---

[١] Mission, op. cit., pp.35 - 37

سطور تقرير البعثة الفرنسية حول العلاقة بين الرجل وزوجته في قبيلة "الفقراء". فعلى الرغم من أن الزواج لا يتم في هذه القبيلة إلا بعد أن يتيقن كلا الطرفين من اختيار الآخر، وبعد أن يتيقن الزوج من صدق مشاعره نحو الفتاة وتؤكد الفتاة أيضاً رضاءها عن هذا الزوج، وعلى الرغم أيضاً من أن الأعباء الملقاة على كاهل الزوجة في هذه البيئة تكاد لا تسمح لها بأي نوع من الراحة أو أوقات الفراغ، فإن الأزواج في هذه القبيلة لا يثقون كثيراً في نسائهم.[1] ويظل التوجس يكتنف العلاقة بين الطرفين بحيث يكون الزوج في حالة غياب عن القبيلة مضطراً فور عودته إلى سؤال القاضي والداني عن أوضاع وأحوال زوجته في مدة غيابه، ويكون من حقه أن يطلقها لو سمع عنها ما لا يروقه. والزوجة أيضاً قد تقضي عمرها مع الزوج تخدمه وتطيع أوامره وتلبي رغباته ولكنها في نفس الوقت غير راضية عن معاملته لها أو توجسه منها، ولهذا السبب يرصد تقرير البعثة الفرنسية سعادة بعض الزوجات عند سماعهن نبأ مقتل الزوج في غزوة أو قتال أو وفاته بصفة عامة.[2] وتمتد هيمنة الشكليات على حساب الجوهر إلى هذه الحالة أيضاً، حيث يتعين على الزوجة التي توفى عنها زوجها وهي له كارهة أن تمارس ذات التقاليد والأعراف الشكلية التي تفرضها عليها حياة القبيلة، فترتدي ثياب الحداد وتقوم بالبكاء والولولة وتمارس دور الأرملة الثكلى طوال فترة الحداد حتى لو كانت تشعر بالسعادة الغامرة لرحيل الزوج الجائر. هكذا إذن لم يكن التوجس والعداء واللاموضوعية حكراً على العلاقات بين القبائل العربية فحسب، ولكنه كان أمراً يلقي بظلاله على اللبنة الأولى في البنيان الاجتماعي للقبيلة العربية ويفرض على أبناء هذه القبائل أن يتوارثوا هذه القيم والعادات جيلاً بعد جيل.

٩ – مثلما كان جمود العلاقات السياسية والاجتماعية للقبائل والممالك العربية في تاريخها القديم يرجع بصفة عامة إلى ضعف الاحتكاك العربي بالأمم الأخرى، فإن تقرير البعثة الفرنسية عن أوضاع القبائل العربية في تاريخها الحديث يتناول نفس هذه الظاهرة. ففي سياق الحديث عن الزواج في قبيلة "الفقراء" تؤكد البعثة أن قبيلة "الفقراء" تكرس نفس

---

[1] Mission, op. cit., pp. 19 - 28

[2] Mission, op. cit. P. 19

عادة العرب الأوائل في عدم السماح بزواج يكون أحد طرفيه من خارج القبيلة، وأن بنت العم هي بدايةً من حق ابن عمها عند شروع أي منهما في الزواج، وأن المرأة البدوية لا تقل حرصاً عن الرجل في استمرار حياتها في داخل نفس القبيلة. ولا زال البدو في القرن العشرين يعتبرون زواج بناتهم من شباب القبائل الأخرى أمراً مستهجناً غير مقبول، بينما تعتبر النساء أن الانتقال إلى خارج القبيلة من زوج غريب يمثل إهانة لهن وحطاً من شأنهن. وبصرف النظر عن ظروف البيئة التي أملت على البدو مثل هذه المبادئ والتوجهات والعادات، فإن هذا الوضع كان كفيلاً – وحده – باستمرار كل سلبيات الحياة القبلية في شبه الجزيرة العربية إلى أجل غير مسمى.[1] ولعل دراسة اجتماعية وسياسية لأوضاع العرب المعاصرين من شأنها أن تكرس وتؤكد هذه النتيجة. ذلك أن المنطق والعلم والدين يؤكد كل منهم أن التكوين الاجتماعي الذي يتم من منطلق عنصري ضيق على هذا النحو لا بد أن يأتي بناتج سلبي في غير صالح المجتمع. فمن ناحية المنطق نجد أن قصر العلاقات الزوجية وتكوين الأسرة على أبناء العم بصفة خاصة أو أبناء نفس القبيلة بصفة عامة هو وضع من شأنه أن يصيب الحياة في القبيلة بالجمود الفكري والاجتماعي، حيث يتعين في هذه الحالة أن تتوارث الأجيال نفس الأفكار ونفس الأعراف ونفس العادات والتقاليد ويعجز المجتمع بأكمله عن ملاحقة حركة الأيام والسنين وتطورات الحياة التي ينعم بها الآخرون. ومن ناحية العلم، فإن زواج الأقارب – فضلاً عن مخاطره الصحية المكتشفة حديثاً – يؤدي من خلال الهندسة الوراثية إلى مجتمع شديد الجمود شكلاً وموضوعاً وأشبه ما يكون بحالات الاستنساخ. ففي ظل مثل هذا المجتمع لا يمكن أن ننتظر ظهور أفكار أو رؤى أو نظريات جديدة بوسعها أن تسهم في تطوير الحياة في مختلف المجالات. فالعقول واحدة، وطرق التفكير لا تتغير ولا تتبدل، وجمود البيئة يتم تكريسه واستكمال قسوته بجمود الخصائص الفكرية والفسيولوجية للأجيال المتعاقبة من البشر. ومن ناحية الدين نجد أن الإسلام بعيد كل البعد عن كافة أنواع العنصرية، ويكفي في هذا السياق أنه لم يقض بتحريم زواج المسلم من زوجة تخالفه في الدين، ولم يفرض على الزوج في هذه الحالة أن يجبر زوجته على اعتناق الدين الإسلامي. ولو أن القبائل العربية كانت قد اتخذت من الإسلام دستوراً فعلياً لحياتها لبادرت من فورها بالقضاء على

[1] Mission, op. cit., pp. 19 - 22

العنصرية والتشرذم الذي ينظم مجتمعاتها وآمنت بأن المسلمين أمة واحدة وليسوا مجموعة من القبائل والشعوب التي يأنف بعضها من مصاهرة البعض ويتكاثر بعضها للتفوق على البعض الآخر والعمل للقضاء عليه.

١٠ – ظروف البيئة في شبه الجزيرة العربية فرضت على القبائل في تاريخها القديم والحديث نمطاً من العلاقات الاقتصادية يتفوق فيه الشق السلبي على الجانب الإيجابي بوضوح شديد. ففي التاريخ القديم للقبائل العربية، وباستثناء المناطق الصالحة للزراعة في الجنوب والمناطق التجارية في الجرهاء وغيرها، لم يكن للقبائل العربية الأخرى نشاطاً اقتصادياً يذكر سوى الرعي الذي قد لا يصل إلى مستوى الاكتفاء الذاتي والغزوات أو الإغارات على المدن وتخوم الممالك الثرية. وكانت القبائل الجنوبية التي هاجرت إلى الشمال واستقرت على حدود بلاد الشام تتعيش من فرض الرسوم على تجارة الترانزيت أو خدمة القوافل التجارية التي تمر بأرضها فضلاً عن العمل لحساب القوى الكبرى التي كانت تهيمن على هذه البلاد.

والوضع بالنسبة للقبائل العربية في مطلع القرن العشرين لم يتبدل في قليل أو كثير. فمن خلال الدراسة التي نحن بصددها عن أحوال قبيلة "الفقراء" لا نجد في العلاقات والأوضاع الاقتصادية لهذه القبيلة ما يمكن أن نعتبره تطوراً أو إضافة للاقتصاديات القبلية العربية في عصورها الأولى. ففي قبيلة "الفقراء" يمثل الرعي النشاط الاقتصادي الأول والأساسي والوحيد لأبناء القبيلة. ومثلما كان هذا النشاط لا يحقق الاكتفاء الذاتي فضلاً عن عدم وصوله إلى المستوى التجاري في العصور القديمة، فإنه أيضاً لا يحقق الاكتفاء الذاتي لأبناء قبيلة "الفقراء" في العصر الحديث. ونقرأ في التقرير والدراسة الميدانية للفرنسيين أن أبناء هذه القبيلة لم يكن اللحم يعرف الطريق لموائدهم سوى في الأعياد أو المناسبات الهامة فحسب. ومثلما كان الجمود هو طابع العلاقات والأوضاع الاقتصادية في القبائل العربية القديمة بحيث لم يعرفوا طوال التاريخ القديم حرفة أخرى خلاف الرعي أو التجارة البدائية، فإنهم أيضاً في مطلع القرن العشرين لم يختلفوا كثيراً أو قليلاً عن أسلافهم. ففي قبيلة "الفقراء" ورغم وجود مناطق صالحة للزراعة خاصة بهم في "خيبر" لا يعمل أبناء القبيلة في أي من الأنشطة الزراعية، ويلجئون للمزارعين من العبيد – السود–

للعمل في هذه الحرفة مقابل جانب من المحصول. والبدو في هذه الحالة لا يعرضون عن العمل في النشاط الزراعي فحسب، ولكنهم أيضاً ينظرون إلى الزراعة بصفة عامة بوصفها نشاطاً اقتصادياً وضيعاً لا يليق بهم، وهم يعتبرون أن الفلاحين قوماً لا يحملون من النبل أو الأصالة ما يحمله البدو في الصحراء.[١]

وإلى جانب الموارد التقليدية لبدو الصحراء من الرعي والزراعة، فإن لهم موارد أخرى ذات جذور قديمة أيضاً تتمثل في الإتاوات التي يحصلون عليها من الآخرين سواءً من داخل أو خارج شبه الجزيرة كحق للمرور أو خلاف ذلك. فكما كان تاريخ القبائل العربية القديم يؤكد وجود قبائل عربية وممالك صغيرة يقوم اقتصادها أساساً على الرسوم التي تتقاضاها مقابل مرور القوافل التجارية في أرضها، فإن قبيلة الفقراء أيضاً في بداية القرن العشرين كانت إحدى مواردها الاقتصادية تتمثل في الرسوم التي كان يدفعها الحجاج القادمون من سورية مقابل المرور في منطقة "مداس صالح" التي تعيش فيها هذه القبيلة. وحين قامت الحكومة بمد خطوط السكك الحديدية في المنطقة وأصبح الحجاج يستخدمونها بدلاً من الطريق البري المار "بمدائن صالح" استمر هذا المورد أيضاً لأبناء قبيلة "الفقراء" من خلال الرواتب الشهرية التي قررها السلطان لشيخ القبيلة وبعض رجالها، بالإضافة إلى الوظائف الخاصة بالحراسة والتي كلفت بها الحكومة بعض رجال القبيلة مقابل الرواتب الشهرية الثابتة.[٢] وبالإضافة لذلك كان أبناء قبيلة الفقراء يحصلون على مبلغ سنوي من سكان "تيما" و"العلا" كفريضة على كل بيت في هذه المناطق.[٣] وهو وضع لا يختلف كثيراً عن مجريات الأمور في تاريخ العرب القديم حين كانت بعض القبائل القوية تفرض سطوتها على القبائل الأقل منها وتحصل منها على إتاوات ثابتة تضيفها إلى مواردها. وحين نضيف إلى هذه الموارد الاقتصادية للقبائل العربية ما كان يتم الحصول عليه من خلال الغزوات والإغارات بين هذه القبائل فإننا نكون بذلك – في مطلع القرن العشرين – إزاء أوضاع اقتصادية ترجع أصولها وجذورها وربما تفاصيلها

---

[١] Mission, op.cit., pp. 7 – 8 ; Coutumes des Arabes, p. 162

[٢] Mission, op. cit. pp. 7 - 8

[٣] Ibid. ; CF: Coutumes des Arabes, 162

وفروعها أيضاً إلى البدايات الأولى للاستيطان العربي في شبه الجزيرة في تاريخها القديم.

١١ – فرضت ظروف البيئة في شبه الجزيرة العربية سيادة العنصر المادي وتفوقه على سائر العناصر والدوافع الأخرى في تحديد سلوك وأعراف سكان هذه المنطقة طوال تاريخها. فالعرب يكرهون ميلاد الأنثى لأحدهم لأنها لا تمثل نفعاً مادياً كذلك الذي يمثله الذكر. وحين تساءل أعضاء البعثة الفرنسية أثناء دراستهم الميدانية لقبيلة "الفقراء" عن أسباب كراهية هذه القبيلة للإناث وتفضيل الذكور عليهن كانت الإجابة التي تلقوها من أحد رجال القبيلة هي أن الأنثى تأخذ ولا تعطي، فهي لا تشارك في الغزوات مثل الرجال وتأتي للقبيلة بالغنائم والكسب المادي، ولكنها تأكل وتشرب وتحتاج لكل سبل ونفقات التربية والإعاشة دون أن يأتي من ورائها للأسرة عائد يذكر. ولا يعترف البدو في هذا السياق بكل الأعمال المنزلية والبيئية التي تتكفل بها المرأة في هذا المجتمع، ويقولون بأن العائد من النساء لا يخص سوى الزوج فقط، وكأن الزوج ليس واحداً منهم في نهاية الأمر.[١] وهكذا يجمع العرب في نظرتهم للمرأة بين تكريس العنصر المادي في تقييمهم للبشر والأشياء وبين اللاموضوعية والنظرة الضيقة والمحدودة التي تحكم تقريباً كافة مناحي حياتهم.

وتبرز سيادة العنصر المادي مرة أخرى في السلوك العام لحياة القبائل حين نقرأ أعراف العرب فيما يخص القصاص وطرق التقاضي. ففي هذا المجال يضع العرب تعريفة معينة لكل نوع من أنواع الجرائم التي يرتكبها بعضهم في حق البعض الأخر، ففي حالة القتل هناك "الدية" أو ثمن الدم. وفي حالة الجراح المختلفة هناك أيضاً ثمن معين يفترض أداؤه للمجني عليه عوضاً عن إصابته.[٢] وحين يعقد العرب حلفاً أو معاهدة أو اتفاقاً من أي نوع بين شخصين أو قبيلتين يبرز العنصر المادي أيضاً متمثلاً في ضرورة نحر الذبائح وإراقة الدماء وإعداد الولائم ابتهاجاً بهذه المناسبة. وحتى يكون الصلح أو الاتفاق بين الحكومة وإحدى القبائل فإنه يتم أيضاً من خلال نفس هذا الطابع المادي. ففي

[١] Mission, op.cit., 14

[٢] Coutumes des Arabes, op.cit., 188 & Mission, op. cit. pp. 10 - 11

حالة التصالح الذي تم بين قبيلة "الفقراء" والحكومة بعد الهجوم على قلعة "مدائن صالح" أنابت الحكومة في هذا الصلح ضابطاً كبيراً من رجالها حضر خصيصاً من دمشق وقام بتوزيع الهدايا والقطع الذهبية على أبناء القبيلة، وقامت القبيلة بنحر الذبائح وإعداد الولائم ابتهاجاً بهذه المناسبة، وتم تكريس هذا التصالح أيضاً بالعنصر المادي المتمثل في الرواتب الشهرية التي قررتها الحكومة لشيوخ القبيلة ورجالها.[١] ويبدو العنصر المادي بوضوح شديد حين نقرأ من خلال دراسة قبيلة "الفقراء" كيف كانت الذبائح تمثل القاسم المشترك الأعظم في كافة الممارسات العامة والخاصة في حياة أبناء القبيلة بدايةً من ميلاد الذكور وانتهاءً بوفاة الرجل. فالأعراب في قبيلة "الفقراء" ينحرون الذبيحة حين يشتري أحدهم حديقة أو أرضاً زراعية في "خيبر" [٢] أو"العلا". وحين يراق دم الذبيحة على هذه الأرض يعتبرونه طرداً للشر ومباركة للأرض الجديدة ويمارس الأعراب نفس هذه العادة وهم يدشنون بئراً جديدة يستخدمونها للمرة الأولى ويعتبرون إراقة الدماء في هذه الحالة مباركة لهذا الماء [٣] وذلك البئر. ويقوم الأعراب أيضاً بذبح الذبائح وإراقة الدماء حين يشتري أحدهم أو يمتلك واحداً من الإبل السريعة المستخدمة في العدو أو القتال والمعروفة باسم "الذلول".[٤] وشراء أحد العبيد الجدد هو أمر يستلزم أيضاً الذبائح وإراقة الدماء مثله في ذلك مثل اقتناء الذلول أو الإبل.[٥] وحين يحصل أحد الأعراب من خلال الغزوات على إحدى الدواب أو الحيوانات كغنيمة صارت من أملاكه فإن عليه أيضاً أن ينحر إحدى الذبائح ابتهاجاً ومباركة بهذه الملكية التي آلت إليه، ويقوم أيضاً بوضع دماء الذبيحة على وجه ومقدمة الحيوان أو الدابة الجديدة التي حصل عليها جلباً للبركة.[٦] وعندما تنجح إحدى القبائل في استعادة قطيع كانت تملكه ثم استولت عليه قبيلة أخرى في غزوة من الغزوات، يتعين على القبيلة التي استعادت القطيع أن تقوم أيضاً بنحر الذبائح شكراً وتقرباً لله

---

[١] Mission, ibid.

[٢] Mission, ibid., p. 68

[٣] Mission, op. cit., 69

[٤] Ibid.

[٥] Ibid.

[٦] Ibid.

واحتفالاً بعودة مالها إليها ودراءً للشر عن هذا القطيع الذي كان سليباً.[1] ولدى عودة البدو من إحدى الغزوات الناجحة يكون على كل منهم أن يقوم بذبح إحدى الذبائح ابتهاجاً بما آل إليه من هذه الغزوة ويلقي بدماء الذبيحة على الغنيمة التي استولى عليها وصارت ملكاً له.[2] وحين يحلم أحد الأعراب بأبيه أو أمه أو أحد أقاربه من الموتى يتعين عليه عندما يستيقظ من نومه أن يقوم بتقديم إحدى الذبائح كضحية لمن شاهده منهم في منامه.[3]

وفي قبيلة "الفقراء" أيضاً ينذر الرجل ذبيحة كل عام حين يتعرض للمرض وينتظر الشفاء، على أن يلتزم بتنفيذ ذلك في حالة شفائه وطوال السنوات التي يقدر له أن يعيشها بعد النجاة من هذا المرض.[4]

ويقدم "الفقراء" الأضحيات للجن أيضاً كما يقدمونها للإنس أو لله، فحين يستيقظ أحدهم من النوم وهو يشعر ببعض المتاعب أو الاضطرابات، فإنه يجد من يقنعه بأن الجن لابد وأن يكون له دخل في إيذائه ليلاً على ذلك النحو، ويكون العلاج في هذه الحالة هو اختيار أحد التيوس ذات القرون ثم ذبحه في المكان الذي ينام فيه ذلك الرجل، وتسيل دماء الضحية على الأرض حتى تتشربها التربة – فالأرض في عقيدتهم مساكن الجن ومستقرهم – وتكون الضحية بأكملها في هذه الحالة حقاً للجن وملكاً خالصاً لهم.[5]

والبدو يستخدمون هذه الأضحيات أيضاً في التراوى والعلاج مما قد يلم بهم من أمراض عادية. وتروي البعثة الفرنسية أن أحد أبناء قبيلة الفقراء واسمه "محمد العبد" كان يعاني من متاعب عادية في المفاصل، وعالج نفسه بإحدى الذبائح التي جعل دماءها تسيل على المكان المصاب، ثم أعرض عن الذبيحة بعد ذلك لأن لحومها غير مخصصة للأكل في هذه الحالة.[6]

---

[1] Ibid.

[2] ibid.

[3] ibid.

[4] Mission, op. cit., 69

[5] Ibid. p. 70

[6] ibid.

وفي حالة تبني أحد الأطفال يقوم الأب الذي يتبنى ذلك الطفل بالاحتفال بهذه المناسبة بتقديم إحدى الذبائح على شرف الوافد الجديد في أسرته، ويتعهد في ذلك الوقت بالعناية بالابن الجديد المتبنى مثل عنايته بأشقائه سواءً بسواء.[١]

وإلى جانب هذه الممارسات التي تخص الأعراب وحدهم في بيئتهم هذه وأعرافهم المتوارثة، فإنهم يقومون بتقديم الأضاحي الأخرى وفقاً للشريعة الإسلامية مثلما يحدث في عيد الأضحى وفي شعائر الحج وبعد عودتهم من الأراضي المقدسة، وأيضاً في حالة المواليد من الذكور.[٢]

وكما تبدأ حياة الرجل في قبيلة "الفقراء" بنحر الذبائح فإنها تنتهي أيضاً على هذا النحو. فحين يموت الرجل وتنتهي القبيلة والأسرة من مراسم الدفن، يقوم الابن أو أقرب الأقارب من الرجال بذبح إحدى الذبائح في هذه الليلة على روح الفقيد.[٣]

ويصل الفكر المادي بأبناء الصحراء من قبيلة الفقراء إلى حد البحث عن تجسيد مادي للأمور المعنوية التي لا يُعرف لها تجسيد في أي من العقائد أو الأديان فضلاً عن واقع الحياة. ففي عقيدة بدو "الفقراء" - كما يشير حديث البعثة الفرنسية مع أبناء القبيلة - تتحول الروح بعد وفاة الشخص إلى شكل يماثل شكل الطيور، وتصعد بعد ذلك إلى السماء أو تهبط إلى الجحيم.[٤]

ويتعامل الأعراب على نفس هذا النحو تقريباً مع الأوبئة أو الأمراض الخطيرة التي قد يتعرضون لها ولا يعرفون لها سبباً أو علاجاً. ففي قبائل شمال شبه الجزيرة العربية يتعامل البدو مع وباء أو مرض الكوليرا بوصفه أمراً لابد من مواجهته بالطقوس المادية التي اعتادوها في سائر نواحي حياتهم. حيث يقوم أبناء قبيلة "الفقراء" بذبح الحيوانات كأضحية أو "فدو" لاتقاء شر وباء الكوليرا الذي قد يصيبهم كأحد توابع موسم الحج ومرور قطارات الحجاج في أراضيهم.[٥] وفي منطقة "العلا" يقدم الأعراب "الفدو"

---

[١] Mission, op. cit. 70

[٢] Ibid. pp. 68 - 70

[٣] Ibid.

[٤] Ibid. pp. 77 -78

[٥] Mission, op. cit. P. 46 & Coutumes des Arabes, p. 361

أيضاً عن الشخص الذي يصاب بهذا المرض. وتتضمن الطقوس الخاصة بهم أن يتم اقتياد الذبيحة أولاً إلى حيث يوجد المريض، ويطوفون بها حوله، ثم يتم ذبحها بعد ذلك أمامه وتغطى دماؤها بالأرض ثم توزع لحومها بعد ذلك على الفقراء.[١]

وينسحب الفكر المادي أيضاً على الخصال التي يكرهها العرب في بعضهم البعض وكذلك فيما تعتبره أعرافهم من الرذائل أو الصفات التي يُلعن بها الرجل في حياته وبعد وفاته. ففي عرف البدو يُكره للرجل أن يتناول على المائدة قطعة اللحم التي تزيد عن قدرته على ازدرادها. ويُكره للرجل أيضاً أن يبدد مالاً أو دية أؤتمن عليها. ويُكره أيضاً للرجل أن يسرق ما تحت الخيمة الخاصة بقبيلة أخرى أثناء الغزوات. وهناك من الصفات المرذولة أن يأكل الغني ممتلكات الفقير، وأن يتخلى المضيف عن حاجة ضيفه.[٢] وكل هذه الصفات تدور حول عناصر مادية كما يبدو من عرضها وأسمائها. وإن كان البدو إلى جانب ذلك يكرهون فيما بينهم أموراً أخرى لا تحمل الطابع المادي المطلق مثل الردة عن الدين أو النكوص عن العهد أو الحنث في القسم أو سوء التربية في داخل الأسرة إلا أن هذه الخصال ذات الطابع المعنوي تأتي في الأهمية والممارسة الفعلية في مرتبة تالية للأعراف المادية التي سبق أن أشرنا إليها.[٣]

ويتوالى ظهور العنصر المادي في أحوال البدو وحياتهم اليومية وعقائدهم وأعرافهم، فنجد أن الشعر العربي – في حالة قبيلة "الفقراء" ومن حولها على الأقل – لا يتناول من المرأة سوى الصفات المادية المحسوسة وليس للشاعر شأن بأية عواطف أو مسائل وجدانية أو معنوية في هذا السياق. ويقتصر الشعر الذي نجحت البعثة الفرنسية في استخلاصه من هذه المنطقة خلال دراستها الميدانية على تناول المرأة بأوصافها الحسيه التي أثارت في الرجل كوامن نفسه ودفعته لقرض الشعر وذكر محاسن المرأة التي هام بها عشقاً. وهذه المحاسن المذكورة في الشعر لا تتضمن خلالاً كريمة للمرأى ولا شوقاً – معنوياً أو وجدانياً – يحمله لها الرجل. ولا شيء على وجه الإطلاق سوى أوصاف تتعلق

[١] Mission, ibid. p. 47

[٢] Mission, op. cit., pp. 42 - 43

[٣] Ibid, 43

بالعيون والشعر والنهدين وبياض البشرة أو احمرارها وحجم الخصر والقوام وما إلى ذلك.[١]

وفي شأن المرأة أيضاً تشير تقارير البعثة الفرنسية إلى أن بعض عرب الشمال - خلاف قبيلة "الفقراء" محل الدراسة الميدانية - يغالون في المهور عند زواج بناتهم مما يجعل من الزواج صفقة تجارية أكثر منه ارتباطاً اجتماعياً وإنسانياً. ففي هذه المناطق التي تجمع بين خصائص البيئة البدوية والبيئة الزراعية شمال شبه الجزيرة العربية أو جنوب بلاد الشام لا يتردد الأب في الموافقة على زواج ابنته لمن يدفع أو يملك اكثر من صاحبه. أي أن العروس في هذه المناطق لا تعدو أن تكون سلعة تعرض في مزاد يرسو في النهاية على صاحب أفضل العروض وأعلى الإمكانيات. وليس للمرأة هنا أية حقوق في معارضة رغبة الأب أو اختيار شريك المستقبل. ولكن عليها أن توافق على رغبة أبيها وتقبل الزواج من الشخص الذي يملك المال الكافي لشراء رضا الأب والأسرة.[٢] وإن كان أبناء قبيلة الفقراء لا يمارسون هذه العادة ولا يجعلون بناتهم صفقة يسعى الأب للإثراء من ورائها، فإنهم في نفس الوقت لا يقدمون دليلاً بالقول أو العمل على أن عزوفهم عن هذه المغالاة يمثل مكرمة في حقهم أو حق بناتهم. ولكنهم يرجعون هذه الخصلة الإيجابية فيما يتعلق بزواج بناتهم إلى حرصهم على ألا تكون بناتهم سبباً في إثراء القبائل الأخرى بالرجال والأبناء والمقاتلين الذي يرفعون من شأنها ويمارسون الغزوات ضد قبيلة "الفقراء" نفسها وينتصرون عليها بسلاح قدمته هي - قبيلة الفقراء - إليهم.[٣] أي أن الأمر لا يعدو هنا أن يكون أمر الصالح المادي أيضاً وليس أمر الأزكية أو المرونة الفكرية أو حرية الابنة وتفتح الأب.

ويعود العنصر المعادي للظهور أيضاً حين ننظر إلى علاقات القبائل فيما بينها في زمن السلم. فالعرف بين البدو أو قوانين الصحراء تقتضي على أية قبيلة ترغب في المرور أو الرعي في أراض أو زمام القبيلة الأخرى أن تدفع رسوماً معينة في مقابل ذلك. وفي حالة قبيلة "الفقراء" يؤكد تقرير البعثة الفرنسية أن القبيلة لم تكن تسمح لأية

---

[١] Mission, op. cit., pp. 22 - 24

[٢] Ibid., p. 19 & CF: Coutumes des Arabes, p. 48

[٣] Mission, op. cit. , pp. 19 - 25

طائفة من الأعراب بالدخول المجاني في أرضها سوى لأبناء عمومتهم. وبالنسبة للآخرين فإنه كان يتعين عليهم أن يدفعوا رسماً معيناً - مجيدي واحد - عن كل خيمة من خيامهم في كل مرة يقومون فيها باصطحاب قطيعهم في مراعي "الفقراء". وكان على "الفقراء" أيضاً أن يخضعوا لنفس هذا القانون أو العرف القبلي حين يغادرون حدودهم ويدخلون مناطق القبائل المجاورة لهم.[1]

وتصل غلبة الطابع المادي في حياة القبائل إلى حد التطرف حين نكون بصدد حالات الفقر الشديد أو الحاجة الملحة، فكما كان العرب القدامى يلجئون أحياناً إلى التخلص من بناتهم وأبنائهم خشية الفقر، وكما كان يلجأ بعضهم إلى عدم مبارحة منازلهم حتى الموت حين لا تجد الأسرة قوت يومها، وكما كان البعض يلجأ أيضاً إلى الإغارة على المدن والمناطق التجارية الثرية والقوافل وغيرها حتى يكتسب رزقه في نبل وكرامة بدلاً من التسول. فإن القبائل العربية في مطلع القرن العشرين لم تعدم رجلاً من أبنائها يبيع أبناءه أو عدداً منهم إلى ضابط من دمشق بسبب الفقر والحاجة.[2] ووفقاً لرواية البعثة الفرنسية التي قامت بالدراسة الميدانية لقبائل شمال شبه الجزيرة العربية فإنه كان من حق أي رجل من أبناء قبيلة الفقراء أن يقوم ببيع أطفاله عند الحاجة أو الضرورة.[3]

١٢ - السلبيات التي يحفل بها تاريخ العرب القديم والحديث - والمعاصر أيضاً - لا تعني بحال من الأحوال أن العرب كانوا ومازالوا أمة همجية متخلفة غير قابلة للتطور. ويتعسف كثيراً من يتجنى على الأمة العربية ويصفها بتلك الأوصاف اعتماداً على أحداث التاريخ أو عادات القبائل. ذلك أن البيئة التي نشأ فيها العرب والظروف التي فرضت عليهم تتحمل الجانب الأكبر من المسئولية عن كافة مثالب وممارسات هذه الأمة. ولو كان العرب على المستوى الشخصي أو العنصري مسئولين عن سلبياتهم مسئولية كاملة لما وجدنا في تاريخهم سوى شعوباً من البرابرة الذين لا يعرفون لحياتهم أعرافاً ولا نظماً. ولكنهم على العكس من ذلك يمارسون الكثير من الجوانب الإيجابية حتى في إطار

---

[1] Ibid., p.13

[2] Mission, op. cit., p. 31

[3] ibid.

السلبيات التي تحسب عليهم. فعلى الرغم من أن الغزوات التي تمارسها القبائل العربية ضد بعضها البعض تعد أمراً مستهجناً بالنسبة لأي شخص متحضر لا ينتمي إلى عالم الصحراء، فإن العرب قد جعلوا لهذه الغزوات أعرافاً وتقاليد تفصل بينها وبين السرقة والسطو المسلح واستباحة الأعراض فهم يجرمون سرقة المنازل والخيام أثناء الغزوة، وهم يجرمون أيضاً سبي النساء أو إساءة معاملتهن، وهم أيضاً يجعلون لهذه الغزوات حدوداً تجعلها أقرب للحروب المشروعة منها للسطو الهمجي أو السرقات السافرة. وعلى الرغم من كراهية العرب للمولودة الأنثى وإساءتهم النسبية معاملة النساء، فإنهم في نفس الوقت لا يعدمون نقاطاً إيجابية في هذا الصدد، ولعل أهم هذه الإيجابيات هي حسن معاملة المرأة التي يتقدم بها العمر، وكذلك أيضاً الحرص على حسن تنشئة المرأة والتزامها بالشرف وطاعة الزوج، بالإضافة إلى الأعراف الخاصة بمعاملة النساء عند الغزوات والحروب كما رأينا من قبل.

ومما يحسب للعرب أيضاً التزامهم بحسن معاملة العبيد – رغم أن العبودية أمر مستهجن من الأصل – وحرصهم على منحهم الحرية عند أي عمل متميز يقومون به أو مناسبة هامة بالنسبة لهم كالزواج أو الإنجاب ويحسب للعرب في هذا السياق أيضاً أن بعض قبائلهم لم تكن تبيح للرجل الاستمتاع بالجارية أو الأمة استمتاع الرجل بزوجته.[١]

ومن الخصال الإيجابية للعرب أيضاً في عصورهم القديمة والحديثة الكرامة وعزة النفس التي كانت تدفع بعض الفقراء في العصور القديمة إلى إغلاق خيامهم أو منازلهم على أنفسهم حتى الموت حين لا يجدون قوت يومهم، وفي العصور الحديثة لا نجد في تقرير الفرنسيين حول قبيلة "الفقراء" ما يشير إلى انتشار "السرقة" بمعناها المعروف لدى البدو بين قبائل الصحراء رغم الفقر الحقيقي الذي كانت تعاني منه هذه القبائل والذي كان يجعل طعام بعضها يعتمد على النبات الطبيعي في هذه الصحراء.[٢]

ومن إيجابيات العرب أيضاً ما اشتهر عنهم من الكرم وحسن الضيافة ومراعاة حق الجوار – وفقاً لمفاهيم الجوار في أعرافهم – وإجارة من يستجير بهم وتوفير كافة

---

[١] Mission, op. cit. P. 32

[٢] Ibid. 49

الحقوق الأصلية لذلك المستجير وكأنه أحد أبناء القبيلة.[1] وكانت حماية الغريب في القبائل العربية تصل إلى حد التنكيل بأي شخص من أبناء القبيلة يتعرض له أو يستولي على ممتلكاته، وتروي دراسة البعثة الفرنسية أن شيخ القبيلة قام بإطراق خيمة أحد أبناء القبيلة الذي كان قد سرق بعض ممتلكات شخص من الغرباء الذين أجارهم الشيخ.[2]

وفي مجال العقيدة الدينية يحسب للعرب عزوفهم عن كثير من البدع التي يكرسها غيرهم من المسلمين، ويحسب لهم أيضاً التمسك بالدين واعتبار الارتداد عنه إحدى الخطايا الجسيمة، ويحسب لهم كذلك – في ظل القدر المتاح لهم من العلم – الحرص على أركان وأساسيات الممارسة الدينية والعقائدية. كما يحسب لقبيلة "الفقراء" بصفة خاصة درجة الوعي والتفتح التي دفعتهم لقبول التعاون مع البعثة الفرنسية ومساعدتها على إنجاز مهمتها دون التعرض للتعصب الأحمق الذي ما أنزله الله به من سلطان.

وفي المجال السياسي والتشريعي والقضائي يعد من الإنجازات الإيجابية للعرب قدرتهم على خلق نظم سياسية وإدارية وتشريعية تتناسب تماماً مع بيئتهم ويستطيعون بها الحفاظ على وحدة القبيلة واستقرارها السياسي والاجتماعي.

وإن كانت النظم العربية في هذا السياق تمثل نمطاً متخلفاً قياساً بالنظم المتقدمة في أوروبا وغيرها، فإن هذا أمر لا يلقي برمته على عاتق العرب، فليس للعرب شأن بتكوين بلادهم وظروفها الطبيعية ومن ثم بطريقة الاستيطان ونظم الحياة المفروضة عليها. والقبائل العربية منذ بدايتها الأولى لم يكن بوسعها أن تملك الآليات التي خلقت الديمقراطية والفكر السياسي والفلسفي في أمم أخرى. ولهذا السبب يصبح من التعسف واللاموضوعية أن نطلب من أبناء شبه الجزيرة العربية أن يبحثوا في رمال الصحراء وكثبانها عن الظروف الطبيعية والموضوعية التي أنجبت هوميروس وأرسطو وسقراط وشيشرون والاسكندر المقدوني وغيرهم.

---

[1] Mission, op. cit. pp. 34 - 35

[2] Ibid. 35

إيجابيات العرب – ككيان بشري وعنصري وانثولوجي – قائمة ولا يمكن أن ننكرها عليهم. وسلبيات العرب أيضاً لا ينبغي إهدارها أو عدم التصدي لها بالدراسة الموضوعية. وإن كانت هذه السلبيات ترجع في المقام الأول إلى ظروف البيئة العربية فإن هذا لا يعني الاستسلام لها أو درء مسئوليتنا عنها. فالحياة في المقام الأول تمثل صراعاً بين الإنسان والبيئة، والمفروض أن تسعى الأمم لتحقيق أكبر عائد ممكن من إيجابيات بيئتها وأن تقاتل في نفس الوقت للتغلب على أكبر قدر ممكن من سلبيات هذه البيئة. والمطلب الملح للعرب في كل مراحل تاريخهم هو ضرورة الاهتمام الشديد بالتنمية البشرية والسعي للحاق بركب الديمقراطية التي صنعت النهضة والتقدم لسائر الأمم الأخرى. وإن كنا الآن بصدد دراسة لإحدى القبائل العربية في تلك المرحلة الزمنية فحسب، فإن بوسعنا أن ننظر أيضاً إلى حال الأمة العربية والإسلامية في عصرنا هذا ونرى كيف إنها على الرغم من كل ما طرأ عليها من تحسن في ظروفها المادية والاقتصادية لا زالت تعاني الآفات السياسية والاجتماعية التي كانت تعاني منها في عصورها الأولى. فالعرب حتى الآن يكرسون الفرقة والتشرذم فيما بينهم، والعرب حتى الآن لا يمارسون الموضوعية في كثير من شئون حياتهم، والعرب حتى الآن لا يعترف الكثير منهم بحتمية القومية والوحدة العربية، والعرب حتى الآن غير قادرين على إنجاز مشروع سياسي واقتصادي يواجهون به مشروعات مماثلة مثل الاتحاد الأوروبي أو غيره من الكيانات القومية والاقتصادية الأخرى. العرب – باختصار شديد – يمارسون الحياة في مطلع القرن الحادي والعشرين بذات الآليات التي كان يستخدمها أسلافهم في عصور الجمع والالتقاط. ولن يتقدم العرب قيد أنملة إلا باستخدام عقولهم. وحين يستخدم العرب عقولهم الاستخدام الأمثل فإنهم سوف يدركون أن موقع أية أمة "داخل" التاريخ مرهون بالتنمية البشرية والمشاركة السياسية الشعبية والتطبيق الديمقراطي الصحيح والحقيقي. وبدون هذه العناصر الثلاثة سوف يتعين على الأمة العربية أن تبقى خارج التاريخ وخارج حسابات الآخرين إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

الفهرس

المصادر والمراجع

١. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - بغداد -١٩٥٢

٢. فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - بيروت - ١٩٥٨

٣. نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم - القاهرة - ١٩٦٦

٤. محمد عزب دسوقي: تاريخ القبائل العربية في بلاد الشام - القاهرة - ١٩٩٨

٥. ياقوت الحموي: معجم البلدان - بيروت - ١٩٨٤

٦. ولفنتون: تاريخ اللغات السامية - القاهرة - ١٨٢٩

٧. موسكاتي: الحضارات السامية القديمة - لندن - ١٩٥٧

٨. محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - الإسكندرية - ١٩٨٨

٩. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية - القاهرة - ١٩٨٢

١٠. عبد العزيز صالح: الشرق الأدنى القديم - القاهرة - ١٩٨٧

١١. جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام - القاهرة - بدون تاريخ

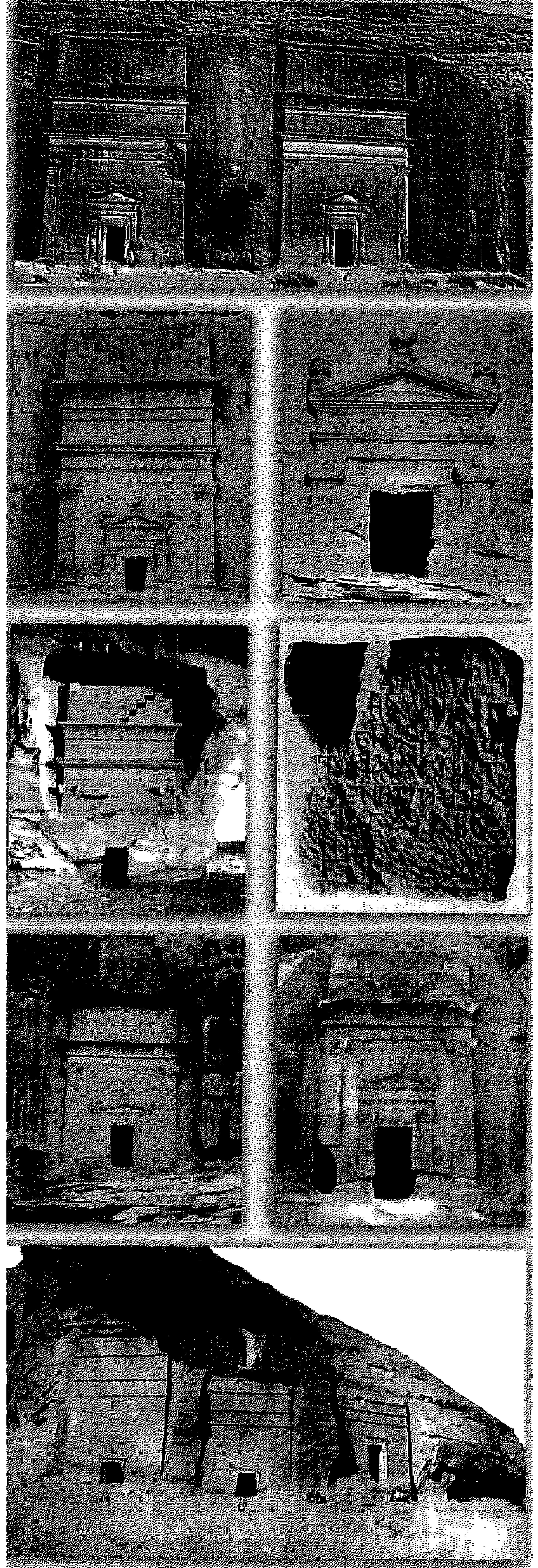
12. RR. PP., Jaussen et Savignac, Mission Archeologique en Arabie, Paris Reedition, le Caire, 1997 Institut Francais d'Archeologie Orientale.
13. Jaussen, Coutumes des Arabes, Paris.
14. Doughty, Travels in Arabia Deserta, London, 1921.
15. O'Leary De Lacy D. D., Arabia before Mohammed, London, 1927.
16. Strabo, Geography, London, 1949.

أحدث إصدارات

دار البستاني للنشر والتوزيع

دار البستاني للنشر والتوزيع
٢٩ ش الفجالة ١١٢٧١ القاهرة
ت. ٩١٤٠٠١ - ب.ص/١٤ / ١٠٠١٤
٣.ض: ١٩٢/٢٤/١٦٦/٤/٥ مدينة نصر

هذا الكتاب



تعد أهم الهجرات المعروفة فى الألف الأولى ق.م. هى هجرة القبائل النبطية إلى شمال شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع ق.م.

ويمثل الأنباط أولى الدويلات المتحدة التى تمكنت من الظهور نتيجة الهجرة الموسمية من الصحراء العربية نحو المناطق الزراعية فى الشمال. وقد خضعت للأنباط كل المناطق المحيطة حتى مدينة "الحجر" التى تعرف الآن باسم "مدائن صالح" والتى تقع بين المدينة والشام. وتمثل منطقة مدائن صالح مجالاً خصباً للدراسات التاريخية والحضارية المتعلقة بشبه الجزيرة العربية، ذلك أنها تجمع بين خصائص المجتمع البدوى والمجتمع الحضرى معاً، بالإضافة إلى قربها من المناطق المقدسة فى شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام. كما تتميز منطقة "مدائن صالح" بوقوعها فى طريق الحج من الشام إلى الحجاز ووقوعها تحت تأثير العديد من الهجرات والدويلات التى أقيمت شمال شبه الجزيرة.

دراسة جديدة وممتعة يتعرف من خلالها القارئ على ملامح التاريخ القديم والحديث والتطور الإجتماعى والسياسى لسكان منطقة "مدائن صالح"، بالإضافة إلى دراسة للنقوش النبطية فى المنطقة والتى تتراوح بين شواهد القبور والنصب التذكارية والدينية شمال شبه الجزيرة وتحليلاً سياسياً واجتماعياً لمحتوى هذه النقوش وملامح الحياة فى مملكة الأنباط. كما يتضمن الكتاب دراسة اثنولوجية قيمة عن قبيلة "الفقراء" التى سكنت منطقة مدائن صالح.

وهكذا جاء هذا الكتاب الممتع، مرجعاً فريداً فى وجود مادة علمية ووثائقية باللغة العربية لمنطقة مدائن صالح الهامة فى تاريخ العرب القديم والحديث.

الناشر

دار البستانى للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠